مختارات ميريت

إعداد وتقديم: ابراهيم عبد العزيز

أساتذتي

نجيب محفوظ

ميريت



أساتذتى
لنجيب محفوظ

مختارات ميريت

أساتذتى لنجيب محفوظ

المؤلف: إبراهيم عبد العزيز

الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

يطلب من دار ميريت للنشر والمعلومات

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

الغلاف : أحمد اللباد

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٣٢١٢

الترقيم الدولى: 977-351-026-3

إعداد وتقديم:
ابراهيم عبد العزيز

أساتذتى لنجيب محفوظ

ميريت للنشر والمعلومات

الفهرس

مقدمة

وتوضيح من هيكل

حين طرحت سؤالي الأخير على الأستاذ نجيب محفوظ في إحدى حواراتي المستمرة معه ومنذ بداية اشتغالي بالعمل الصحفي قائلاً له:

* ما هو العنوان الذي تختاره ليوضع على ملف حياتك؟

- فقال : أنت الآن تسأل سؤالا لتهرب مما يجب أن تفعله أنت!

* فقلت لأديبنا الكبير : أريد ويريد معي كل المحبين أن يعرفوا منك العنوان الذي تختاره أنت على ملف حياتك؟

- فقال أستاذنا نجيب محفوظ عنوانا يتمثل في بيت شعر يحبه:

أيها الناس المخبون على الأرض المجدونا... فكما أنتم كنا وكما نحن تكونونا.

حديث الشجرة والمقبرة

وقصة هذا البيت من أبيات الشعر الجاهلي شيء والمعنى الذي قصده نجيب محفوظ شيء آخر أو لعله قصد المعنيين معا فلا بأس أن يأخذ الفكرة ويصبغها بالمعنى الذي يريده دلالة على ما يهدف إليه وذلك هو حق الفنان.

أما القصة كما وردت في الحقيقة ، فإن الشاعر "عدى بن زيد العبادي" المتوفى سنة ٥٠٧م وكان نصرانيا ، خرج يوما مع النعمان بن المنذر (ملك الحيرة) وكان وثنيا، فنزلا في ظل شجرة مورقة ، فقال "عدي" : أيها الملك أبيت اللعن.. أتدري ما تقول هذه الشجرة؟

قال : ما الذي تقول يا عدي؟

قال عدي: إنها تقول:

من رآنا فليحدث نفسه / أنه موف على قرن زوال .

رب ركب قد أناخوا حولنا / يشربون الخمر بالماء الزلال.

ثم إنهما جاوزا الشجرة ومرا بمقبرة ، فقال عدى: أتدرى ما تقول تلك المقبرة ؟ قال النعمان : لا.

قال عدى: إنها تقول:

أيها الركب المخبون على الأرض المجدونا.

كما أنتم كذا كنا كما نحن تكونونا.

فانتبه "النعمان" وقال "لعدى" : قد علمت يا عدى أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وأرى أنك إنما أردت موعظتى فقل ولك الأمان.

فدعاه "عدى" إلى ترك عبادة الأوثان ففعل".

وكما ترى فإن البيت الذى ذكره نجيب محفوظ عنوانا على ملف حياته هو بيت من الشعر على لسان مقبرة استنطقها الشاعر لتقول لهؤلاء السائرين على الأرض الساعون فى جد ونشاط أن الحياة مهما طالت بهم فهم فى النهاية إلى تراب الأرض عائدون كسابقيهم الذين كانوا مثلهم فى الأزمان السابقة يسعون فوق الأرض بجد ونشاط أيضا.

وكما ترى أيضا فإن صياغة نجيب محفوظ للبيت قد اختلفت عن صياغته الأصلية وإن احتفظ بمعناه ومحتواه ، وإن كان البيت دالا على التشاؤم ، فلا نظن أن نجيب محفوظ كان متشائما وهو يختار هذا البيت من الشعر الجاهلي ليضعه عنوانا على ملف حياته وهو الذى لم يفقد الأمل فى إنصافه أدبيا ، وهو الذى كان يقترب من التسعين حين اختار هذا البيت عنوانا، وقام بإعادة صياغته، بما يتفق مع رؤية الفنان الذى يأخذ ويدع من الأشياء ما يراه ملائما لفكرته أو رؤيته الإبداعية ، ومن ثم يصبح المعنى المقصود لواقع الدال: أيها السائرون على الأرض الساعون فى جد ونشاط ، نحن مثلكم مجدون، وكما سرنا إلى النجاح أنتم كذلك سائرون. فالجد هو قدوة نجيب محفوظ والجد جزاؤه النجاح، ومن جد وجد ، ومن زرع حصد.

الأديب الحق.. سلة مهملات!

والمعنى أيضا كما قال نجيب محفوظ فى حوار آخر: "أردت أن أكون أديبا فاجتهدت ودرست وتمرنت وألفت وقدمت أحسن ما عندى على قدر ما أستطيع". ويعبر عن الجد كذلك فى حياة نجيب محفوظ قوله "الأديب الحق فى أوله عبارة عن سلة مهملات" فهو لا ينشر شيئا إلا بعد

أن يكون قد كتب عشرات المرات قبل أن يرضى عما يكتبه ليقول ها أنا ذا ، بل بعد أن يكون الأديب قد استقر فى وجدان الناس يعاملهم فى كل إبداع يكتبه كما لو أنه يكتب للمرة الأولى ، فينحى جانبا مالا يرضى عنه أو يمزقه رغم معاناته فى إخراجه، وهذا ما فعله نجيب محفوظ بعد أن استقر على عرش الرواية حين كتب رواية "ما وراء العشق" ولم تعجبه أو حسب تعبيره "لم أرتح لها فمزقتها" وشعار نجيب محفوظ فى ذلك هو "الاتقان" الذى طالبنا به رب العباد "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون".

وطالبنا به رسول الله إلى العباد "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".

أو كما يفسره نجيب محفوظ فى إجابته حول الخطوات اللازمة للوصول إلى القمة، فلخصها فى "الإخلاص، والصدق مع النفس، والعمل".

دفاعا عن الشرف

لهذا فإن نجيب محفوظ بعد أن يطمئن لما يكتبه ينشره على الناس، ثم بعد ذلك ينساه ليتفرغ لعمل جديد، فقد أصبح العمل المنشور ملكا للقراء والنقاد ينظرون إليه من أى زاوية يرونها ويفهمونه بأى فهم يفهمونه ، فلا شأن له به بعد أن أخرجه من رحمه الإبداعى، ومع ذلك فهو يقول "ولكن والحمد الله لا أعير إلا من أحترمه ولا أبغى إلا وجه الفن كما أعتقده".

فهو يستفيد من نقد النقاد بينه وبين نفسه المبدعة ، ولكنه لا يرد مدافعا ولا موضحا ولا مفسرا، اللهم إلا فى حالتين فقط اضطر إليهما اضطرارا، أحدهما للدفاع عن شرفه الأدبى، وثانيهما للدفاع عن شرفه الدينى.

أدب الكسالى

فقد نظر العقاد للقصة نظرة مهينة ، وهى اللون الأدبى الذى كان نجيب محفوظ قد اختاره وربط به مصيره ومستقبله، ومن ثم كان من الضرورى عليه أن يدافع عن سلامة اختياره لأن المسألة أصبحت بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت ، فهادم القصة ليس كاتبا عاديا، إنه العقاد الكاتب الجبار كما أسماه زعيم الأمة سعد زغلول ، وهو كاتب

الشرق بالحق الإلهى كما أسمى هو نفسه.

ومن العجيب أن رأى العقاد فى القصة لم يكن رأيا جديدا حين نشره فى مجلة الرسالة سنة ١٩٤٥ ، فقد أعلنه من قبل فى (المجلة الجديدة) التى كان نجيب محفوظ نفسه يكتب فيها مقالاته الأولى التى تمثل بداياته فى حقل الفن والإبداع، فقد نشر على لسان العقاد فى مايو ١٩٣٤ قوله ".. ولولا سهولة القصة السخيفة، ولا سيما عند الذين لا يحفلون بتجويد اللغة - لما كثرت الدعوة إليها بين الكسالى من الناشئين.

وهنا "سأل المحرر" الأستاذ العقاد: لماذا لا يعالج القصة ليرينا شيئاً "مثالياً" فى هذا الفن ينسج على منواله هؤلاء الناشئون الذين يصفهم "بالكسالى!" ولماذا يخلو أدبه من القصة..!؟

فأجاب : "إن كتابتى لم تخل من القصة، لأننى كتبت فصولا مختلفة بعنوان "مذكرات إبليس" قبل نيف وعشرين سنة، ولم ينشر من هذه المذكرات، غير مذكرة واحدة عن إغواء فتاة.. وتبدد سائرها فى أيام الحرب، مع ما تبدد من أوراقى الخاصة. كذلك كتبت قصصا وأماثيل منشورة فى مجموعات المقالات التى طبعت، ومنها "الفصول" و"المراجعات".. على أننى لا أهتم كثيراً بكتابة القصة ، لأننى أعتبرها نوعاً من أنواع الأدب التى يكثر فيها الإسفاف، ويقل فيها السمو، وهى غير مطلوبة لذاتها ، بل مطلوبة فى الأكثر لأنها أيسر منالا عند الجماهير التى لم تألف دراسة الآداب الرفيعة، ولن ترى فى كل ألف قصة وقصة تظهر واحدة جديرة بالقراءة والبقاء!".

إن جاء لى العمل بالفقر أحبه!

إذن فلماذا لم يتصد نجيب محفوظ للعقاد وانتظر إحدى عشرة سنة ليرد على كلام سبق أن صرح فيه العقاد برأيه المستخف فى القصة؟

والسبب بسيط جدا هو أن نجيب محفوظ لم يكن قد حسم أمره بعد ككاتب قصة، ومن ثم فإن امتداح القصة أو ذمها لم يكن يعنيه فى كثير أو قليل ، وكان يجب أن تنقضى كل هذه السنوات حتى يكون نجيب محفوظ قد اختار طريقه وحدد مصيره لكى يرد على النقاد الذى يحبه حبا يفوق كل وصف كما قال هو بنفسه عنه، ورغم ذلك لم يتغير حب نجيب للعقاد، فهو رمز للحرية، بل هو الحرية نفسها كما يراه وينظر إليه

مثلما رآه ونظر إليه من قبل باعتباره قد سما بالأدب إلى الذروة من الكمال والتبجيل.

وقد أنصف العقاد نفسه، نجيب محفوظ أكثر من مرة وشهد بعالميته وتنبأ له بجائزة نوبل.

ورغم كل هذا المجد الذى سما إليه نجيب محفوظ فلم يشعر يوما بالعبقرية أو يتمكن منه الغرور ، يقول "والله ما شعرت بها - العبقرية - لا فى أول عمرى ولا فى آخر عمرى ، إنما أنا شعرت أنى رجل مجتهد ومثابر وشغال ومحب لعملى وأعشقه، هذا ما أستطيع أن أحدثك عنه كأشياء ملموسة موضوعية، فأنا أحب العمل أكثر من حبى لثمرته ، يعنى إن جاء لى بالمجد والفلوس.. أحبه، وإن جاء لى بالفقر أحبه، وإن لم يأت بشىء حتى الفقر، أيضا أحبه".

أول جنيه

ومن المفترض أن قمة السعادة لنجيب محفوظ هى حصوله على جائزة نوبل، ولكن الرجل كان له رأى آخر، يقول "سعدت بجائزة نوبل لاشك، إنما فاق تلك اللحظة الشعور الذى أحسست به فى حياتى الأدبية عندما نشرت لى أول مقالة فى الصحف بعد رفض مقالات كثيرة سابقة".

إنه الإحساس الأول بالوجود الأدبى.

إنه الإحساس الأول بالسعادة فى زهرة العمر، الذى يفوق الإحساس الأخير بالسعادة فى خريف العمر، حيث لم يفرق مع نجيب محفوظ أن يحصل على جائزة نوبل أو لا يحصل عليها، فقد وصل إلى الشاطئ بأدبه ، ووصل بالرواية إلى بر الأمان كلون أدبى معترف به فى أدبنا العربى، ولولاه ما قامت للرواية العربية قائمة، كما قال توفيق الحكيم، وحسبه من فضل أن فعل هذا، ولم تكن جائزة نوبل إلا إقرارا بالحقيقة واعترافا بها، أى تحصيل حاصل.

ولم يكن مبلغ الجائزة الذى اقترب من المليون أكثر حظا من الجائزة نفسها بل بأول جائزة كبرى حصل عليها مقارنة بأول عمل نشر له، وأول جنيه حصل عليه فى حياته الأدبية، يقول "لقد كانت سعادتى بأول جنيه حصلت عليه من قصة نشرتها فى مجلة "الثقافة" يفوق سعادتى بحصولى بعد ذلك على جائزة الدولة التقديرية، بل إننى اعتذرت عما يساوى قيمة ثلاث شهور من مرتبى فى وزارة الأوقاف مقابل أن أكتب

القصة القصيرة فى صحيفة "أخبار اليوم"، فما دام مرتبى يكفينى فالقناعة كنز لا يفنى".

أرفض الخناقة مع الأزهر

هذا هو نجيب محفوظ المتواضع فى كبرياء، المستغنى فى كرامة، المؤمن بالفعل والعمل لا بالقول والادعاء، ولهذا ورغم قناعته أنه لم يسيء للإسلام فى "أولاد حارتنا" كما رأى البعض إلا أنه جعل سلامة الوطن واستقراره فوق حبه لنفسه ودفاعه عن عمله الذى كان أحد أسباب اختياره للحصول على "جائزة نوبل"، يقول دفاعا عن نفسه وعقيدته - وهى المرة الثانية التى اضطر للدفاع فيها بعد رده على العقاد - "اليوم عندما أريد تحويلها - أولاد حارتنا - إلى كتاب وأدخل فى خصومة مع من يتهمونها .. ممكن .. فلماذا لا أفعل؟

أولا: لأنى اعتقد أن الخصومة التى بينى وبين خصوم الرواية ، وهمية وليست حقيقية.. هذا هو اعتقادى ، وأنهم لو قرأوها كما يجب أن يقرأوها لما وجدوا فيها ما يخالف، والدليل على ذلك أنها تقرأ فى جميع البلاد الإسلامية والعربية ، ولم يعترض عليها أحد، رغم أنهم مسلمون مثلهم، لكن فيه مسئولية أخرى، وهى بما أنه ليس هناك فى الواقع معركة، إذن فإننى أكون داخلا فى معركة وهمية، وأنا أرفض ذلك لسببين:

السبب الأول: هو أننى أعرف أن وطنى يواجه مشكلات كثيرة ولذلك لا أحب أن أضيف إليه مشكلة جديدة روائية.

ثانيا: أن الأزهر وهو أساس الرفض يلعب فى حياتنا الآن دوراً كبيراً ، وهو شرح الإسلام الحقيقى والتصدى للتطرف والانحراف.. إذن نحن معه فى هذا القارب الدينى السنى الواحد، ولذلك لا يصح إنى أعمل فيه "خناقة" ، وخصوصا أنها "خناقة" لا تقوم على أساس.. إذن نترك الأمور حتى يأذن ربنا بالتفاهم والفهم الصحيح".

أنا وسلمان؟!

ورغم تفهم نجيب محفوظ لظروف البلد وتجنبه الدخول فى معارك أو خصومات من أجل روايته إلا أن خصومه كانوا مصممين على الطعن فى إيمان الرجل، والسلام، إلى درجة تشبيهه بسلمان رشدى

الكاتب البريطانى، الهندى الأصل، الذى أساء للإسلام وجرح المسلمين بكتابه "آيات شيطانية"، يقول نجيب محفوظ.

"من الغريب أن تجمع جريدة "النور" الصادرة عن "حزب الأحرار" ، بينى وبين سلمان رشدى فى صورة نصفها لوجهى ونصفها لوجهه، وتعلق عليها بأن هؤلاء "أولاد حارتنا"، لدرجة أن واحدا قال لى: إن هذا تحريض على قتلك"[*].

"لقد كتبت "أولاد حارتنا" بعد توقف عن الكتابة دام سبع سنوات، وكانت هناك مجموعة من الأفكار جرى بها القلم، ولم أنقلب ناقدا "لأولاد حارتنا" إلا بعد الحملة الأخيرة عليها من جريدة "النور" ، لأتذكر هل كانت بالبشاعة التى كتبوا بها عنها، ووجدت أن الرواية ليس فيها ما يسىء إلى الإسلام أو يستهزئ بالأنبياء، وإنما المسألة نوع من سوء التفاهم بين الرواية وبعض الشيوخ ، فهى أزمة قراءة ، لأنهم قرأوا روايتى بناء على ضوء عرائض اتهام، لأنه لا يوجد شيخ من شيوخ الأزهر يقرأ روايات. لأن الربط بين شخوص الرواية وشخصيات الأنبياء هو ربط خاطئ وإساءة للأنبياء أنفسهم، لأنه لا يوجد نبى يمشى حافيا ويدخل "خمارة"، كما جعلوا من شخصية "جبل" سيدنا موسى، والذين قرأوا "أولاد حارتنا" فى البلاد العربية وهى بلاد إسلامية، لم يقاطعوها كما قاطعوا رواية سلمان رشدى ، وإذا كان رأى الذين اتهموا "أولاد حارتنا" لا يزال كما هو منذ ثلاثين سنة[**] ولم يتخذوا ضدى الإجراء الإسلامى. فإنهم بذلك يكونون مهملين فى حق الدين.

ولو كان رأيي كرأيهم لدخلت معركة معهم من أجل نشرها، ولكننى أرى أنه سوء قراءة "لأولاد حارتنا" ، والدخول فى معركة من أجلها يكون على غير أساس".

شهادة الشعراوى

لقد أسقط الرجل روايته من حسابه، ولو على الأقل من قائمة أعماله التى يعترف بنشرها، ومع ذلك لم تسقطه فتاوى البغى والغلواء من حسابها فأرادوا إسقاطه غدرا واغتيالا لولا لطف الله وعنايته التى لا

---

[*] كان ذلك بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ، وقد حدثت النبوءة بالفعل وجرت محاولة لاغتياله.

[**] عندما تحدث نجيب عقب حصوله على نوبل فى "الجمعية الفلسفية المصرية".

تغفل ولا تنام.

ولا تختلف النظرة لطه حسين عن النظرة لنجيب محفوظ، فكلاهما تلاحقه فتاوى التكفير أحياء وأمواتا، رغم أن حساب الإنسان لا يكون بأثر رجعي طالما أنه لم يتمسك بما يخالف الإسلام، أو يعترف بتحديه لمشاعر المسلمين، فهل فتشوا في قلبه، أليس من كفر مسلما فقد كفر. أليست شهادة الشيخ الشعراوى كافية لرفع الظلم الذى لحق بطه حسين على الأقل بسبب "في الشعر الجاهلي" الذى تجاوزه بينما هم قد تجمدوا عنده لغرض في نفس يعقوب، لقد كتب لي الشيخ الشعراوى بخط يده قائلا:[*] "وخير تكريم لطه أن أسأل الله النفع لكل من أخذ عنه وقرأ له حتى يتصل خير عطائه لكل أبناء العروبة إلى أن تقوم الساعة رحمة وجزاء عما قدم للغة القرآن".

طه حسين يراجع مجانية التعليم

وهكذا ألا يكون أساتذة نجيب محفوظ الذين اختارهم باعتبارهم المؤثرين الأساسيين في تكوينه الثقافي، ليسوا مجرد شخصيات أدت دورها ومضت إلى حال سبيلها، أو أثرت في معاصريها كنجيب محفوظ وغيره أثناء حياتها في زمانها ومكانها ثم انقضى التأثير عندما مضى الزمن ولم يعد المكان هو المكان والظروف غير الظروف.

فليست "فكرة الحرية" عند العقاد بالفكرة المنقضية، وليست "فكرة التسامح" عند الشيخ مصطفى عبد الرازق بالفكرة المنتهية، وليست فكرة مجانية التعليم عند طه حسين بالفكرة التى ولى أمرها، وإن كانت تحتاج إلى ترشيدها، وقد طالب طه حسين نفسه في مراجعته لفكرته، بتطويرها لتلائم الظروف المستجدة.

ولنقرأ تصريحه لمجلة "صباح الخير" في العشرين من أغسطس ١٩٦٤، حين يقول "إذا كانت مجانية التعليم قد أتاحت الفرصة لكل إنسان أن يتعلم فإن هذا يجعلنا ندير دفة التعليم بحكمة وحذر وخطة مدروسة، وأستطيع أن أقول في إيجاز: ليس من الحكمة أن نجد مكانا لكل تلميذ في التعليم الثانوى.. أقولها بإيمان.. لا.. وليس من الحكمة أن نفعل هذا".

أليست مراجعة طه حسين لفكرة مجانية التعليم صاحب الفكرة

---

[*] نص الرسالة بخط الشعراوى في كتاب المؤلف "رسائل طه حسين" - دار ميريت للنشر والمعلومات.

نفسها، جديرة بالبحث والتأمل فى اللحظة الراهنة باعتبار أن التعليم هو سر التقدم، إن صلح صلحت الأمة، وإن فسد فسدت الأمة، ولا أقول إن لنا فى أمريكا مثلا يحتذى فى هذا المجال بالذات، بل تكفى الإشارة إلى عنوان التقرير الذى نظروا به إلى تراجع التعليم عندهم حين قالوا "أمة فى خطر" ، كناقوس إنذار بهبوط الخط البيانى لتقدمهم وأساسه وذروة أمره "التعليم"، فما أحوجنا إلى استعادة مراجعة فكرة طه حسين عن "مجانية التعليم" كما راجعها هو بنفسه وطورها لخدمة مواطنيه، مضيفين إليها خبرات الأمم المتقدمة فى مجال التعليم، وإلا فنحن مقبلون على الانهيار، إما تطوير التعليم وإما الكارثة.. فنحن بحاجة إلى مؤتمر قومى للتعليم على غرار المؤتمر الاقتصادى. لأنه لا أمل فى أى تنمية أو تقدم اقتصادى بدون نهضة تعليمية.

ويبدو أن رأى طه حسين لا يزال صحيحا رغم مرور سنوات طويلة حين قال ساخراً فى كتابه "من بعيد" نرى كل شيء يتغير فى مصر، ونرى الرقى تناول كل شيء إلا التعليم فهو بحمد الله باق حيث كان لأن المشرفين عليه لا يفكرون فى تغييره ولعلهم غير قادرين على أن يفكروا فى تغييره"!.

توضيح من هيكل

ولسنا بحاجة إلى أن نفصل الحديث عن أساتذة نجيب محفوظ فهو قد تحدث عنهم كما عرفهم، وتحدثنا عنهم لنزداد معرفة بهم، وإن كان من الضرورى التوقف فى هذه المقدمة عند شخصية د. حسين فوزى، الشهير "بالسندباد" لمراجعة رأى رأيته بالكتاب السابق على هذا الكتاب بعنوان(*) "فى براح الفكر" للدكتور حسين فوزى، تقديم نجيب محفوظ وإبراهيم عبد العزيز، وقد جاء فى تلك المقدمة "جنت السياسة على د. حسين فوزى فى أخريات حياته الأدبية والفكرية والعلمية الحافلة فصار مجهول الفضل والذكر".

وقصدنا بالسياسة هنا زيارته إلى إسرائيل.

ولكن الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل كان له رأى آخر يقول "إن نظرة د. حسين فوزى للأمور لم تكن سياسية ، بل كانت ثقافية ، فإسرائيل فى نظره هى اليهود الذين أثروا العلم والثقافة والموسيقى فى

(*) صدر عن المجلس الأعلى للثقافة.

العالم مثل "هاينى" و"شاجال" و"سترافينسكى" و"فرويد" وغيرهم، فكان حسين فوزى وهو يزور إسرائيل لا يفرق بين "دولة مغتصبة" ، واليهود الذين أثروا الحضارة الإنسانية والذين لم يكونوا إسرائيليين، قد يؤيد "اليهود" أصحاب الإنجازات الثقافية فى العالم، بعض سياسات إسرائيل أو يتعاطفون معها، ولكنهم ليسوا إسرائيليين، بل إن اينشتين وهو يهودى رفض رئاسة إسرائيل حين عرضوها عليه، إذن فإسرائيل شىء واليهود شىء آخر، وهو ما لم يفكر فيه د. حسين فوزى وهو يقوم بزيارة "إسرائيل"، وذلك هو الخطأ الذى وقع فيه بظن أنها تمثل الإنجازات الحضارية "لليهود" الذين تأثر بهم السندباد فى ثقافته وقراءته وشغفه بالموسيقى.

من هذا المنطلق يجب أن نفسر زيارة د. حسين فوزى لإسرائيل وليس من منطلق سياسى أو أى منطلق آخر.

هكذا تحدث الأستاذ هيكل [*] ، وهو ما نتفق فيه تماما معه. لذا لزم التنويه والاستدراك تصحيحا لمقدمة كتاب "فى براح الفكر" المشار إليه.

هؤلاء السبعة - لماذا؟

ولا شك أن الأساتذة السبعة الذين اختارهم نجيب محفوظ ليسوا كل أساتذته على الإطلاق بل هم أبرز من تأثر بهم ، وقد كان تحمسه للحديث حولهم كتقديم لبعض كتبى عنهم نابعا من منطلق أنهم أساتذته، ولم تتبلور فكرة جمعهم فى كتاب واحد إلا بعد أن سألت نجيب محفوظ عن أساتذته فحددهم بسبعة أساتذة، هم: يحيى حقى، توفيق الحكيم، العقاد، طه حسين، الشيخ مصطفى عبد الرازق، د. حسين فوزى، وسلامة موسى.

وقد صدرت لى كتب عن بعضهم بتقديم نجيب محفوظ لهم، إذن فمن قبيل التكرار إعادة نشر ما نشر مرة أخرى فى كتاب آخر حتى ولو كانت هناك فائدة من جمعهم فى كتاب واحد يسهل الرجوع إليه دفعة واحدة، ولم يكن هناك مفر من هذا الحل لإضافة بعض الشخصيات التى

[*] جاء ذلك خلال تعليق الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل على الفقرة المشار إليها أثناء مقابلته لإبراهيم عبد العزيز وهو يهديه كتاب "فى براح الفكر".

ظلمت بعد موتها وكانت في حياتها قد شغلت الحياة والناس، هذا مع محاولة عقد مقارنة عن أوجه المقاربة بين شخصية نجيب محفوظ وأساتذته، من صفات وطباع أخلاقية وأدبية .

ولن يستطيع أحد أن ينكر أن سماحة نجيب محفوظ تشبه سماحة الشيخ مصطفى عبد الرازق، ولا أحد يمكنه أن ينكر أن اعتداد نجيب محفوظ بكرامته هي كاعتداد العقاد، بكرامته الشخصية والأدبية، وليس في مقدور أحد ألا يقارن بين احتضان نجيب محفوظ للأجيال الجديدة وتشجيعه لها وبين احتضان سلامة موسى لنجيب محفوظ نفسه وغيره من أدباء جيله لإعطائهم فرصة ينالونها عن جدارة واستحقاق بعد اكتشاف مواهبهم وقدراتهم .

وهكذا لن نجد أستاذا ممن تأثر بهم نجيب محفوظ وشاركوا في تكوينه الثقافي حتى لو لم يلتق بأحدهم كالعقاد ، إلا وكان بينه وبينهم بعض أواصر القربى الفكرية وصلات الرحم الإنسانية.

نداء إلى المنحرفين

ويخطئ من يظن أن هذه الشخوص المادية هي كل ما تأثر به نجيب محفوظ، بل هناك الوطن والشعب، وهي رموز معنوية أشاد بها نجيب محفوظ دائما، ولم ينكر أبدا فضلها عليه، فأي تأثير أبلغ من المكان وعبقرية المكان الذي تمثله مصر واستمد منه نجيب محفوظ أسماء أخلد رواياته، وأي تأثير أبلغ من الزمان الذي يمثله الشعب بأحداثه وحوادثه التي صنعت عالم نجيب محفوظ، ولننصت إليه يتحدث عن وطنه وشعبه اللذان أوصلاه إلى العالمية بغوصه في أعماق الوطن الذي تمثله الحارة ، وغوصه في أعماق الشعب الذي يمثله المواطن البسيط.

إنه يقول "صاحب الجائزة الحقيقي هم أبسط الناس في هذا الشعب الذين عاشرتهم وأحببتهم فألهموني بشخصياته وموضوعاته فأنجزتها ، وأخذت أنا الجائزة".

ويقرر أيضا أن "الجمهور هو الذي يعترف بالمفكر ويعطيه حقه في الوجود، وهذا هو أهم من النقد".

وليس بسطاء الشعب هم فقط الذين يحبهم نجيب محفوظ ، ولكنه يحسن الظن أيضا بالمنحرفين، نعم المنحرفين الذين يستبيح لهم العذر

ويطالبهم بالانضمام إلى أحضان الوطن والإخلاص له، فهم فى نظره لا يقلون وطنية عن غيرهم من المواطنين الصالحين ، إنها دعوة نجيب محفوظ للمصالحة الوطنية والتصالح بين بنى الأمة ووطنهم طلبا للإصلاح الشامل.

لقد كتب نجيب محفوظ بخط يده قبل أن تمتد إليه يد الغدر ، "نداء إلى المنحرفين" فى وجهة نظر" . بالأهرام فى زوايته الأسبوعية، يقول:

"فإنى أوجه ندائى للمنحرفين من كل الأنواع والطبقات . أقول لهم إن الانحراف لا يحول بين المرء وحب وطنه وبخاصة إذا جاء انحرافه نتيجة لظروف سيئة قاهرة . وأذكرهم بأن قراصنة الإنجليز قد أدوا أجل الخدمات لإنجلترا واستحق نفر منهم ألقاب الشرف من الملكة "اليصابات".

وأذكرهم بأن لصوص مصر ونشاليها تعاهدوا يوم عودة الزعيم الخالد سعد زغلول من منفاه على الكف عن ارتكاب أى جريمة فى ذلك اليوم، ومر اليوم بسلام رغم خلو البيوت من سكانها واكتظاظ الشوارع بالعباد. وإذن فحب الوطن يجمع بين المنحرف والسوى. وأنا لا أطالبكم بتقويم سلوك أو الكف عن الانحراف، كونوا ما شئتم وما شاء الزمان لكم، ولكن لا تنسوا وطنكم الحزين. أدوا واجبكم بالكمال والتمام، أقبلوا، بكل همة على العمل والاتقان، احترموا المتعاملين معكم من الشعب. بثوا النشاط فى الحقل والمصنع والإدارة والمستشفى والشارع.

ومهما يكن من أمر فالحسنة بعشر أمثالها. وسوف تجدون مكانا لكم فى حضن أمتكم . وسوف تذكره لكم. وتغفر لكم سيئاتكم جميعا. وما أنتم فى الأصل إلا أناس طيبون يجرفهم تيار النكبات والأزمات وقدوات السوء. ولتعودن يوم النجاة إلى أصلكم الطيب وسلوككم وتقواكم النقية".

وليس هذا الرأى ببعيد عما يقوله العقاد فى كتابه "عالم السدود والقيود"، عن تجربته مع السجن والمسجونين أو المنحرفين بلغة نجيب محفوظ، حيث يقول بعد أن خبر خلائقهم الوضيعة أو المشوبة بالوضيعة "وإن لم يجز لنا أن نقول أن الخير فيهم معدوم، وأن صلاحهم ميئوس منه، ولا سيما حينما يعالجون بما يناسبهم، وحين يقترن حسن النية فى علاجهم بالفكرة الرشيدة، والعزم الصبور".

وهل يبعد أيضا ما قاله نجيب محفوظ عن اختفاء الجريمة يوم

عودة سعد من منفاه، عما حدث أثناء حرب أكتوبر من اختفاء الجريمة وكف المجرمين عن جرائمهم، إنه الهدف القومى الذى يتفق عليه الصالح والطالح، فيتساوى الجميع فى حب الوطن حين يدع الداعى إلى تحرير الوطن والحفاظ على سلامته والتصدى لأعدائه، حيث تظهر عظمة المصريين على اختلاف أنواعهم وطبقاتهم بما فيهم صالحهم ومنحرفهم، فيلتف الجميع حول وطنهم وقد ظهر الانتماء واستيقظ الضمير، فهل لابد من أزمة تتهدد الوطن لكى يحدث ذلك، أم لابد من مشروع قومى يسارع إليه كل المصريين مفيدين ومستفيدين؟

لولاك يا مصر

وكما كان للشعب نصيبه من تقدير نجيب محفوظ، فقد كان للوطن تقديره أيضا، استمع إليه فى هذه السطور التى تكاد أن تكون شعراً لبلاغتها وبساطتها وصدقها النابع من القلب لتصب فى القلب.
يقول نجيب محفوظ[*]:

"مصر يا وطنى
غاص قلمى فى نيلك
فكان مداده ذهبا
وحروفه نورا
وسطوره أصالة
وصفحاته المكتوبة ناصعة الحقيقة
مصريا وطنى
بدءا من درب قرمز
ومرورا بالجمالية
والحسين
والسيدة
وانتهاء بأهرامك
وسدك العالى
دعينى أنحنى لك

[*] من حديثه إلى مصطفى بدر ومحمود الشربينى بالأنباء الكويتية ١٩٨٨/١٢/٦.

إجلالا وشكرا
فلولاك لما انتبه أحد
ولا التفت
ولاعرف باسم الحرفوش نجيب محفوظ"

إبراهيم عبد العزيز

تقديم

نجيب محفوظ

"عندما أكتب أتذكر لا إراديا من علمونى فى الكتب أو فى المدارس، ولذلك حين أفكر فى الخدمات التى قدمها لى من كونونى ثقافيا، أشعر أننى مديون بأكثر من ديون مصر.

لذلك عندما أقدم رواية لى للطبع أسأل نفسى عما لى فيها؟

هل هى اللغة؟

إن اللغة موجودة من أيام الجاهلية.

هل هو الفكر؟

إن الدنيا مليئة بالأفكار.

هل هى المذاهب؟

أنشأها ناس دفعوا ثمنا غاليا.

هل هو الفن؟

إنه موجود فى كل مكان.

إذن ما الذى أكون قد فعلته لأستحق

أن يوضع اسمى على رواية لى؟"

نجيب محفوظ

يحيى حقى

القنديل

"يحيى حقى من الفنانين العظام، ومن مفاخرنا القومية بلاشك وأعتقد أنه لم ينل حقه من التكريم"

نجيب محفوظ

أساتذتى(*)

تعرفت على الأستاذ يحيى حقى أديبا مبدعا حين قرأت له "قنديل أم هاشم" ، سنة ١٩٤٥ ولكنه كان يكتب قبل هذا التاريخ لأنه من مؤسسى القصة القصيرة فى مصر والعالم العربى، وحين كان أبناء جيله يكتبون لم نكن نقرأ، وحين بدأنا نقرأ انقطعوا جميعا عن الكتابة تقريبا ما عدا المرحوم محمود تيمور، فقد سافر من سافر إلى أشغال مختلفة ، ومنهم الأستاذ يحيى حقى الذى اختفى فى السلك السياسى، ولذلك لم أعرفه إلا من خلال "قنديل أم هاشم" حيث كنت متابعا لسلسلة "اقرأ" التى تصدرها "دار المعارف" ، وكانت مفاجأة جداً لى لأننى وجدت أدبا عذبا جدا، جميلا جدا، إلى درجة أستطيع أن أقول معها إن "قنديل أم هاشم" والثلاث قصص الملحقة بها فى هذه المجموعة القصصية القصيرة ، "خيشت" فى عقلى، وعشقت كاتبها على غير معرفة أو اتصال به، ولكنى عرفته كفنان كبير صاحب فن عظيم أمتعنى فنه وأدبه وجمال أسلوبه، وحين سألت عمن يكون "يحيى حقى" ، علمت أنه فى السلك السياسى، فكانت هذه أول معرفة به ، أما اتصالى به وتعرفى عليه فقد كان فى نادى القصة، وكنت ممن يدعوهم وآخرين إلى بيته حيث كان يقيم أولا فى الزمالك ، ويحاضرنا عن الأسلوب ودقته، والأشياء التى اهتم بها فى حياته، وأتيحت لى فرصة الاقتراب منه أكثر خلال الفترة التى أنشأ فيها فتحى رضوان وزير الإرشاد، "مصلحة الفنون" (من سنة ١٩٥٥ م إلى ١٩٥٩م)، والتى كان يحيى حقى أول وآخر من تولاها كمدير لها، واقترح أن يأخذ مساعدين له ، أنا وأحمد باكثير، وبدأنا نعمل معه فى مصلحة الفنون، وهناك ارتبطت به عن قرب لأننى كنت مديراً لمكتبه،

(*) هذه المقدمة هى حصيلة حوار إبراهيم عبد العزيز مع نجيب محفوظ فى كتاب "رسائل يحيى حقى إلى ابنته" للمؤلف بالاشتراك مع نهى حقى – هيئة الكتاب.

وقد لمست فيه البساطة والتقدمية والإقدام والاستنارة دون أن يدعى أو يزعم هو شيئا من هذا، فقد كان سلوكه يشى به ويدل عليه، ولم أره مرة واحدة يمارس سلطات الموظفين على مرءوسيه ، وطوال الفترة التى عشتها معه مرءوسا له لم أشعر أننى أعمل مع مدير، وإنما هو رجل صديق ودود، كانت حجرتنا بجوار حجرته، وكان يترك مكتبه ويأتى إلينا ليتحدث معنا، كما كنا نذهب إليه لنتحدث معه، وعند مغادرته لمكتبه، وكان قد استقر فى "مصر الجديدة" ،وكنت لا أزال أقيم فى "العباسية" ، كان يصطحبنى معه فى "الأوتومبيل" الخاص به، وينزلنى فى شارع "رضوان شكرى" حيث أقيم، ثم يمضى هو إلى حيث يسكن.

وتواصل الحوار فيما بيننا فى المكتب و"الأوتومبيل" فى كافة شئون الأدب والحياة، قد نختلف فى الآراء ووجهات النظر، ولكنه اختلاف بين اثنين لديهما استعداد للاختلاف، مثلما لديهما الاستعداد للاتفاق، فقد كان كل منا يحترم رأى الآخر حتى لو اختلف معه، واتصلت علاقتى بالأستاذ حقى، أديبا بأديب، بل إلى ما هو أعمق من ذلك على المستوى الإنسانى، وإن كنت كموظف ملتزم أقوم لتحيته إذا أقبل، وإن كان هو قد أنكر ذلك السلوك منى باعتبارى أديبا كبيرا كما كان يقول، ولكننى كموظف أعطى الوظيفة حقها، فهو مديرى يعنى مديرى رغم الصداقة والعلاقة الإنسانية، لكنه حين يأتى لابد من الوقوف تحية له، لا أعرف غير ذلك سلوكا من موظف نحو رئيسه حتى لو كانت صداقتى به تبرر لى أن أعامله بغير ذلك، ولكننى كنت أقوم له كنوع من التحية وأدب الوظيفة، لأننى طوال عمرى موظف تأدبت بآداب الموظفين، وكنت أقف لأناس - لا تؤاخذنى - كانوا يحملون الابتدائية القديمة، فكيف لا أقف "ليحيى حقى"؟!.

ولم تنقطع علاقتى به حتى بعد أن باعدت بيننا الأيام، فقد اتصلت هذه العلاقة فى كل فرصة حتى عندما دخلت فى دور الشيخوخة وكان هو قد اعتزل الحياة العامة إلى حيث أراد أن يعيش فى الظل، فكنت أسأل عليه دائما عبر التليفون، كما لم ينقطع سؤاله عنى.

وحين فاز الأدب العربى بجائزة "نوبل" ممثلا فى شخصى، رشحت وأهديت يحيى حقى هذه الجائزة كواحد من المبدعين الممتازين الذين يستحقونها لولا الحظ الذى لم يجعلهم ينالونها، فقد كانت القصة

القصيرة التى كان يكتبها الأستاذ يحيى حقى من أجمل ما كتب فى الأدب المصرى والعربى المعاصر، وهو أحد عمدها المؤسسين، ليس فى هذا شك أو تجاوز.

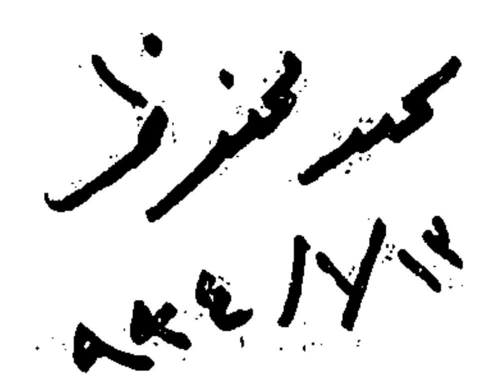
وكان كل منا يهدى كتبه للآخر، وعلى قلة ما أبدع الأستاذ يحيى حقى فإن كل آثار، تبقى مرشحة للبقاء والخلود، فمجموعاته القصصية القصيرة على قلتها كانت كلها "نقاوة"، تبقى ما بقى الأدب يقرأ، وحين يؤرخ لتاريخ الأدب وكتابه خلال الفترة التى عاشها يحيى حقى، سيكتب عنه ضمن من أبدعوا فى أكثر من مجال، فهو سوف يذكر بين كتاب المقالة، كما سوف يذكر بين كتاب النقد، وفى القصة القصيرة سيذكر أجمل ذكر.

وإذا كان الأستاذ حقى قد غاب بجسده عنا، فإن أعماله لا تغيب، وقد بقى أثرها فى نفسى لا يمحى أبداً، وعلى المستوى الإنسانى أشعر من ناحيته دائما بشعور طيب جميل لا يتغير أبداً.

إن يحيى حقى نفسه يمثل كتاباً خاصاً للسلوكيات الحافلة بكل القيم والمعانى الإنسانية النبيلة، فضلاً عن أنه كان معلما لكل المبدعين وأبا لكل الأدباء.

أما حياته فقد كانت بالنسبة لى ثروة كبيرة، وكانت وفاته خسارة أكبر، ولا أخفى عنك أنه كان من الناس الذين حزنت عليهم حزناً شديدا جدا، فقد كان صديقاً لا يعوض، نزيه الفكر، صافى القلب، بسيطاً ممتعاً فى كتاباته وأحاديثه، صاحب روح ساخرة ونكتة بارعة، وفكر مستنير، ولذلك يجب الاحتفال به بطريقة غير تقليدية، وأنا لى طريقة خاصة فى الاحتفال بذكرى الراحلين، بعكس ما يتردد عن تمثال يقام، واسم يطلق على معهد أو شارع، ومثل هذه النوعية من التكريم ليس لى اعتراض عليها ولكنها مع احترامى لا تمثل إحياء للذكرى، لأنك؛ عندما تطلق اسم يحيى حقى على شارع سيصبح يحيى حقى بعد جيل أو جيلين، شارعاً، مثلما نقول شارع "نوبار" ولا أحد يعرف من هو "نوبار"؟، ولكن ما أطالب به بالنسبة ليحيى حقى هو جمع مؤلفاته الكاملة، فهو الذى يستحق ذلك أكثر من آخرين تجمع مؤلفاتهم الكاملة وهم على قيد الحياة، وربما كانوا فى أواسط العمر، وهذه مسألة غريبة، ولكنها أولى وأليق وأحق بأديب كبير مثل يحيى حقى، فتجمع أعماله كلها فى مكان واحد خوفاً

عليها من التشتت والضياع بحيث تكون موجودة فى المكتبات العامة والخاصة، وهذا خير احتفال نحيى به ذكرى صاحب القنديل الذى سيظل يضئ حياتنا كمشعل استنارة دائم.



القنديل

"يا نجيب

أنت تحس معنا جميعا بفضل التحامك بأمتك مذ كنت، أن هذه الجائزة هى كاشفة غير منشئة لقرار إجماعى من شعبك بأنك تستحق هذه الجائزة، ولذلك فلعله لأول مرة فى تاريخنا أن تعم الفرحة كل قلب وفى كل بيت لأن أديبا من أبنائنا قد نال الاعتراف به على الساحة الدولية"

يحيى حقى

سيدتى الأولى

هل أنا فى حاجة إلى أن ألفتك إلى حجم التواضع بين نجيب محفوظ صاحب نوبل ، ويحيى حقى صاحب "قنديل أم هاشم" وكلاهما سليل بيئة شعبية ، أولهما ابن الجمالية والآخر ابن السيدة زينب ، ولم تزد نوبل محفوظ صاحبها إلا تواضعا ، ولم تزد الحياة الدبلوماسية التى عاشها حقي إلا رغبة فى العودة إلى الأصل الذى نبع منه وعاش فيه ، ولهذا يقول " طوال حياتى الدبلوماسية لم أتأثر بأى مظهر من مظاهرها..إن الإحساس الشعبى هو الذى جعلنى دائما أحس بإنسانيتى ، وإلا ما زدت عن كونى قردا لابس سموكن".

ورغم تقارب السن بين الأديبين الكبيرين (محفوظ١٩١١- حقى١٩٠٥) إلا أن نجيب محفوظ لم ير يحيى حقى إلا أستاذاً من أساتذته الذين خصهم بالتحية و الذكر ، باعتباره سابقاً له فى ميدان الأدب ومن مؤسسى القصة القصيرة ، وبذلك تصبح المسألة ليست فروق توقيت سبق بها يحيى حقى ، نجيب محفوظ بل هى فروق سبق أدبى وريادة إبداع ، ولذلك لم يكن مفاجئاً لى حين أدرت حواراً بين نجيب محفوظ بعد حصوله على نوبل وبين أكثر من ثلاثين شخصية معاصرة ، وسأله شيخ الصحفيين حافظ محمود - من خلالى -:

إذا طلب إليك بعد حفلات التكريم التى تقام لك عن جدارة أن تقيم أنت حفلة تكريم لنجم فى مصر .. فمن يكون هذا النجم ولماذا ؟

فأجاب نجيب: أقيمه ليحيى حقى ، لأنه من الفنانين العظام ومن مفاخرنا القومية بلاشك ، واعتقد أنه لم ينل حقه من التكريم، فيحيى حقى ممن تأثرت بهم، فهو من مؤسسى القصة القصيرة فى مصر، وهو مدرسة وأسلوب ويستحق التكريم.

وكما أن محفوظ معجب بأسلوب حقى باعتبار أن الكاتب هو

"الأسلوب" فقد كان حقي يبادله نفس الإعجاب الذى لمسه الشاعر فاروق شوشة فى أول حضور له لندوة نجيب محفوظ فى - كازينو أوبرا - ١٩٥٩، للاتفاق على أول حوار مع نجيب محفوظ للبرنامج الثانى - البرنامج الثقافى الآن - يقول (*) "وقبل أن أغادر الندوة كان يحيى حقى قد وصل وبيده عصاه الشهيرة، وانحنى نجيب فى مودة وإعزاز بالغين ليفسح له مكانا فى صدر الندوة، ثم ليستمع إليه بكل جوارحه، ويصغى بكل الاحترام والاهتمام، ويحيى حقى يفيض فى التعليق على الصفحات التى استوقفته من "الثلاثية" والشخصيات التى أحبها وتعاطف معها، والأسلوب الذى كتب به نجيب محفوظ ، ويضغط يحيى حقى على الكلمة ويؤكدها "الأسلوب" ، ويردد نجيب محفوظ فى تواضع آسر: نعم يا يحيى بك".

لذلك يرى يحيى حقى أن فن القصة الحديثة ما هو إلا أسلوب، ويؤكد ذلك فى تقديمه لسيرته المنشورة فى صدر قنديله "ولا أتحول عن اعتقادى بأن كل تطور أدبى هو فى المقام الأول تطور أسلوب" . لهذا يؤكد يحيى حقى(**) "أن دعوتى الأولى التى كرست لها حياتى هى حتمية اللفظ فى مكانه ، دقة التفكير، فأنا دعوت إلى أسلوب أسميته أسلوبا فنيا وليس أسلوبا أدبيا، وليس ثرثرة"، ولهذا يرجو أيضا فى جهاده فى الفن ألا يذكر جهاده فى القصة بل فى إيجاد أسلوب لها، وهو فى ذلك يقول "وأنا أفضل وأحب أن ينسى عملى كقصصى ، ولكن لابد أن يذكر لى أننى خدمت اللغة العربية كثيرا، بمعنى أننى أخرجتها عن الميوعة والتشتت وعن المترادفات ، واحترامها أشد الاحترام، وتقبيل يديها كأنها سيدتى الأولى، فهى صاحبة الفضل على".

لذلك يعلن يحيى حقى حزنه أشد الحزن إذا لم يلتفت أحد إلى دعوته للتجديد اللغوى، فى محاضرته "حاجتنا إلى أسلوب جديد"، والتى سجلها فى كتابه "خطوات فى النقد"، ويرشح روايته "صح النوم" كنموذج لهذا التجديد الذى أحدثه فى اللغة، ومن هنا يأتى اعتزازه برائعته التى "قد تكون.. أحب أعمالى القصصية إلى نفسى لأنها تطبيق صارم للمبدأ الذى أنادى به فى ضرورة التزام الدقة والعمق فى أسلوب الكتابة".

(*) الأهرام ٢٠٠٠/١٢/٣١.

(**) من حديثه إلى هاله كمال بمجلة صباح الخير ١٩٩١/٦/٢٠.

ولكن التزام الدقة هل يعنى أن يصور الأديب كل شئ - باسم الفن - بصرف النظر عن أخلاقيات المجتمع الذى يخاطبه، أو كما يقول يحيى حقى وهو يتحدث عن جهاده فى الفن، عن "موضوع أن الفنان غير خاضع للأخلاقيات العامة - مؤكداً أن - هذا الكلام عيب" ، ويضيف أن "فلوبير" ضحى بكل هذا الناموس من أجل أن يصل إلى الصدق فى أدبه. ولكن أنا أضحى بهذا مائة مرة، ولا أضحى أبداً بأى مبدأ أخلاقى فى سبيل الفن.

وفى قصتى "الشاعر بصير" أحكى عن شاعر يستعير من يمامة أو حمامة ريشها ليكتب قصيدة ، فنزع منها كل ريشها ووقفت على الأرض جريحة بين يديه، وسألته : ماذا كتبت؟ فقال : قصيدة عن جمال الطير وهو يطير فى السماء!!

فانظر هذا هو حال الفنان بالضبط ، إنه قد يدوس بقدمه بعض المعتقدات أو بعض القوانين الأخلاقية من أجل أن يصل إلى غرضه. وهذا ميدان يجب أن نحترس منه وأن نجد الحد الوسط بين حاجة الفنان إلى الصدق الكامل التام وبين حاجته أن يرفع دائما الفضيلة والأخلاق.

أما نجيب محفوظ وإن اختلف فى هذا الرأى مع يحيى حقى باعتبار أن للفن مقاييسه الخاصة التى لا ينبغى إخضاعها للأخلاق، إلا أن نجيب محفوظ لا يترك الأمر هكذا على إطلاقه بل يضع له شروطا من الفن نفسه باعتباره الفيصل والحكم فيما إذا كانت المسائل الأخلاقية موظفة لصالح العمل الفنى أم مقحمة عليه، وهو فى هذه القضية يقول[*].

يجب أن يقاس العمل الفنى بالمقاييس الفنية وحدها، وليس بأى مقاييس أخرى أخلاقية كانت أو اجتماعية. فإذا ورد بالعمل الفنى ما قد نشعر أنه خارج على الأخلاق فإن ذلك لا يكون إلا فى الإطار الذى يفرضه الفن، والذى لا يدعو الإنسان إلى الانحراف فى فكره إزاءها، لأنه فى هذه الحالة إنما ينظر إلى العمل كأدب وليس كشىء آخر، ومع ذلك فقد اطلعت على بعض أعمال لشباب وجدت فيها الجنس مقحما ولا يمثل إلا ابتزازا وإثارة، وهذا يجب التنبيه له وعدم تشجيعه".

---

[*] نصف الدنيا ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٠.

إننى لم أكذب

إذن أليس فى عميد الرواية العربية نجيب محفوظ، وعميد القصة العربية يحيى حقى، قدوة لكتاب القصة والرواية فى بحثهم عن الفن الجاد، لا الشهرة الرخيصة من أيسر الأبواب وأسرعها؟ إنها ليست نصيحة ولكنها مجرد وجهة نظر لمن أراد أن يقتدى بأديبين كبيرين لعله يكون أحدهما، بالصبر والمثابرة والدأب والتجويد بحثا عن الفن الجميل والإبداع المشوق لنفسه أولا، لا بحثا عن شيء آخر، "وطولة البال تبلغ المراد" كما يقولون.

أو كما يقول نجيب محفوظ(*) "يهيأ لى أن الكاتب وهو يكتب إنما هو يكلم نفسه أى أنه يكتب لنفسه، ولا أعتقد أن عليه أن يكتب للجماهير بشكل مباشر، وإن كانت الجماهير تحتل مكانا ما فى خلفية ذهنه، ولا يجب أن تكون فى مركز الصدارة، وإلا كان ذلك على حساب أشياء أخرى كثيرة، إن الكاتب وهو يكتب يفكر فقط فى العمل، وفى نفسه، وفى قارئ يشبهه، ثم عليه بعد ذلك أن ينتظر حظه" .

ويطلب نجيب محفوظ من الأدباء(**) "أن يؤمنوا بالعمل ويؤمنوا بالصبر وأن الطريق طويل، وفى حاجة إلى العمل وأن يحبوا عملهم أكثر مما يحبون نتائجه".

ويزيد يحيى حقى الأمر إيضاحا بالنسبة لمن يضعون أعينهم على الجماهير طلبا للشهرة قبل أن يضعوا أعينهم على العمل نفسه ، فيقول(***) "معروف أن هؤلاء الشباب يقعون فى مشكلة يتعرض لها أى رجل يتعرض لأعمال فنية... كى ينشر هؤلاء لابد أن يشتهروا، ولكى يشتهروا لابد أن ينشروا.. كيف إذن تهرب من هذه الحلقة المفرغة؟

أقول لهم لا داعى لليأس، لدينا الآن لحسن الحظ عدة مجالات ثقافية فى العالم العربى مفتوحة الأبواب لهم، فعليهم أن يطرقوا كل باب مرة واثنتين وثلاثا.

هذه هى المثابرة والثقة فى النفس والطموح.. وأنا مقدر حال الشباب ومقدر السعادة الهائلة جدا للشاب عندما ينهض من النوم ليجد جريدة بها قصته وبها اسمه.

(*) المصدر السابق.

(**) من حديثه للمؤلف إلى جريدة "الشرق" القطرية ١٩٩١/١١/٢١.

(***) صباح الخير – السابق.

لكن أقول له: لتفوتك هذه السعادة لا يهم.. وأسألك سؤالا هاما قبل أن تحتج عليَّ وتثور: من أنت؟ وماذا فى داخلك ، وهل درست نفسك؟ وهل درست مقدرتك على التعبير واهتمامك بالحياة واهتمامك بالناس ومعرفتك وتجربتك بالعواطف؟ تأمل نفسك قليلا وانظر إلى جوانب النقص فيك.. فمن أهم جوانب النقص فيك : أن تعرف لغة أجنبية.. تجلس على المقاهى تشكو وتضع قدما فوق قدم!

أمامك الآن ندوات أدبية كثيرة اذهب إليها.. وأقسم لك أننى أتحسر لأن أمامى كل يوم ندوة يجب أن أذهب إليها ولا أستطيع - (موجها كلامه لكل شاب) تعلم كما تعلمنا وستجد نفسك تشق "الطريق للإبداع".

ولم يكن يحيى حقى الأستاذ يوجه للأدباء الشبان مجرد نصائح يطلقها فى الهواء عبر الأحاديث التى يدلى بها، ولكنه كان يطبقها متى أتيحت له الفرصة لذلك.

على سبيل المثال عندما عين رئيسا لتحرير مجلة "المجلة" من أبريل ١٩٦٢ إلى ديسمبر ١٩٧٠ حاول المحافظة للمجلة على شعارها الذى اتخذته لنفسها "سجل الثقافة الرفيعة" ففتح صفحات المجلة لكل قلم يحقق هذا الشعار، مقدما الآخرين على نفسه، ومن هنا تتضح فلسفة يحيى حقى كرئيس للتحرير، وهى درس عملى يقدمه لكل رئيس تحرير، فيقول فى سيرته الذاتية "لم أتصور وظيفة رئيس التحرير على أن الدولة سلمته مجلة ليتبحبح فيها على هواه، ويطلع على القراء كل عدد بمقال له أو عنه، بل إن واجبه يفرض عليه أن ينشر فى المجلة أحسن ما يصله ومن بين ما يصله مقالته هو، فإذا وجد فيما يصله ما هو أفضل منها لم ينشرها!؟

ولم يكتف يحيى حقى بالاتصال بالمبدعين من خلال صفحات "المجلة"، بل اتصل بهم بشكل مباشر "فقد نجحت فى تحويل مقر "المجلة" إلى ندوة متصلة لا تكاد تنفض، يشارك فيها عدد كبير من شباب الأدباء والباحثين احتضنت المجلة إنتاجهم، وكان لها شرف تقديم الكثيرين منهم إلى القراء لأول مرة".

ولم يكن يحيى حقى يرى فيما يفعله مجرد عطف من أستاذ على تلاميذه، بل هى رسالة يجب عليه أن يؤديها نحو من يعتبرهم أصدقاءه لا

تلاميذه ولذلك خطا خطوة أبعد فى قيامه برسالته حينما كان يكتب مقدمات يشجع بها الموهوبين ويدفعهم للتقدم خطوات للأمام وقد أسلم الراية إليهم لاستكمال مسيرة الإبداع، أو كما عبر عن ذلك بقوله "ومما اعتز به صداقاتى العديدة بالأدباء الشبان واحتفائى بكتاباتهم على اختلاف مذاهبها، فالحنو على الجيل الصاعد ليس مسألة عاطفية فى نظرى ، فالفنان الصادق هو الذى يشعر أن المعبد أو الهيكل الذى يعيش فيه يجب أن يستمر وأن يسلمه جيل إلى آخر. هناك بالطبع لذة الأب وهو يرى إبنه يتقدم ، ولكن اللذة الأساسية هى المتصلة بوجود الفن واستمراره.

لعل ذلك يفسر كثرة المقدمات التى كتبتها لقصص الأدباء الشبان، وقد سمعت من يقول إننى جاملتهم، والواقع أننى لم أكذب فى أى مقدمة كتبتها بل قلت الحقيقة بأسلوب رقيق، ولكنى أغضب حينما يوصف نقدى بأنه "دبلوماسى" لأن هذا معناه أنه نقد منافق، وأنا سعيد بتقديم عدد كبير من الأدباء الشبان".

ولعل الدور الذى قام به يحيى حقى هو نفسه الدور الذى قام به نجيب محفوظ من خلال ندواته الشهيرة التى يستمع خلالها إلى إبداعات الموهوبين فيشجعهم ويشيد بهم، وكم تذكر فضله الكثيرون الذين تلقوا منه كلمة تشجيع أعطتهم الثقة فى أنفسهم والقدرة على الاستمرار، وقد احتمل نجيب محفوظ ما احتمله يحيى حقى من اتهام بالمجاملة، ولكنهما كانا مقتنعين بأن المسألة ليست حنواً عاطفيا، بل هى رسالة يؤديانها لتواصل أجيال المبدعين حفاظا على وجود الفن واستمراره. ولذلك كان كلاهما قدوه.

ولكن يحيى حقى يرى أن نجيب محفوظ هو القدوة التى يجب أن يقتدى بها الأدباء الشبان، مبررا ذلك بالمعرفة الشخصية والأدبية لصديقه فى العمل والإبداع، فضلا عن التزامه بمبادئ لا يحيد عنها، فأجاب حينما سئل عما يقوله للشباب من الأدباء(*):

أنا سعيد كل السعادة أننى من معاصرى نجيب محفوظ، ومن حسن حظى أننا اجتمعنا فى عمل، وضمنا مكتب واحد لمدة ثلاث سنوات.

وأقول لكل شاب إنه ليس أمامك قدوة تقتدى بها أكثر من نجيب

(*) السابق.

محفوظ.. فنترك جانبه الإنساني وضحكته الحلوة، وإقباله على الشبان ومقابلته لهم في المقاهي، وفتح صدره وقلبه لهم.. ولنترك أيضا أنه لم يخرج من فمه كلمة واحدة فيها إساءة لمن أساءوا إليه.

وقد حمدت الله على أن نجيب محفوظ وجد أخيرا من يقدره وفاز بجائزة نوبل.. وأقول إن اغتباط نجيب محفوظ بأنه أنتج هذا الإنتاج وعبر عن مجتمعه هذا التعبير، وأصبح قدوة لغيره يفوق بكثير فرحته بالجائزة.. نجيب محفوظ ليس فيه أي جانب مادي، بمعنى أننا لا نشعر بفخفخة فيه، ولا نتصور نجيب ، وقد تمنى أن يكون لديه سيارة فارهة أو فيلا مطلة على النيل. أعلم أنه ليس لديه هذه المطامع.

نجيب محفوظ التصق بالفن والتصق بمجتمعه جيدا، فمنذ أن بدأ يكتب وهو يعبر عن الليبرالية ، حرية الرأي، حرية التعبير، الديمقراطية. لم يتحول عن هذا الخط في أي وقت من الأوقات، فهو ثابت ثبات الشمس.. وهو أيضا من هذه الناحية قدوة، واختار أحسن المبادئ ، فهل يجد الشباب أمامهم أكثر من ذلك قدوة؟".

وكاني بيحيى حقي يتحدث عن نفسه وهو يصف نجيب محفوظ بأنه ليست لديه مطامع مادية في الحياة ، ولكن طموحه كان فنيا مما جعله يلتصق بالفن، ويلتصق بالمجتمع من أجل ذلك الفن الذي وهبه حياته وعمره لا من أجل نتائج الفن وثمرته بل من أجل الفن نفسه[*] "فنتائج الأدب هي المجد والفلوس، والله إن جاءا فأهلا وسهلا، وإن لم يأتوا فكنت سأستمر، لأن الأدب حياة أساسية بالنسبة لي، ودخلت الحياة الأدبية لأنني أحبها ولم أكن أتطلع إلى فلوس أو مجد".

"دخلت الأدب وأنا في نيتي أن أعمل لآخر نفس.

نجحت سأستمر، فشلت سأستمر. كنت مصرا ألا يعوقني شئ .. الفن حياتي، لم أكن أضع غاية إن لم أصل إليها سيصيبني اليأس وسأتوقف (...) كنت قد قدرت أن أسير في طريقي ولا شيء يوقفني" "حماسي لشغلي كان شيئا ثابتا".

ولا ينفصل حماس نجيب محفوظ لشغله. أي لفنه وأدبه، عن حماسه لمجتمعه أي وطنه، وهو ما أسماه يحيي حقي التصاقا بالفن والمجتمع، وما يرتبط بهما من عناصر الحب والإيمان والانتماء، وهو

---

[*] من حديث نجيب محفوظ إلى محمد شعير بأخبار الأدب ٢٠٠٠/١٢/٣.

يوضح ذلك حينما سألته فى إحدى حواراتى الصحفية معه(*) "عن الدعائم التى بنى عليها مسيرة حياته؟

أحب الموت وأنتظره

فأجاب نجيب محفوظ، صاحب رحلة العطاء العظيم: أقول بمنتهى الصراحة والأمانة، إننى اعتمدت فى مسيرة حياتى على عناصر اعتقد أنها ضرورية لكل إنسان. أولها الانتماء، وهى كلمة بسيطة لكنها تعنى الكثير. تعنى الانتماء للأسرة والوطن. وتتسع للإنسانية . وهذا يجعل الإنسان ينظر للحياة نظرة جديدة، وأنه مطالب بأعمال كالتى تطلب من رب الأسرة نحو أسرته وأولاده.
العنصر الأخر هو: الإيمان بالعمل

عنصر ثالث: هو حب العمل بدرجة أكبر من حب ثمرته، لأن الإنسان لو بحث عن الثمرة، فهناك أكثر من وسيلة وأسلوب يؤدى إليها، وقد يضيع قيمتها.

أما حب العمل أكثر من الثمرة ، والإصرار عليه، يجعل منطلقه للأشياء أساسه الحب، فهذا على الأقل ينقى نفسه من انفعالات كثيرة تجعله ثائرا فى عمله وحكمه وحكمته. لكن الحب يفتح الأبواب لتقدير ظروف الناس أصدقاء وأعداء، ويصبر للحقيقة ويسلم بها.

إن وفق الإنسان ، أى إنسان فى ذلك درجات، ووصل لهذه المرحلة التى وصلت إليها من العمر، يجد نفسه أيضا كما أجدنى، يحب الموت وينتظره".

فهل هناك قدوة أجمل من نجيب محفوظ الذى(**) يعترف "أنا أخذت من المتصوفين أخلاقهم لأعيش بها فى الدنيا، ولذلك أقنع بما حصلت عليه حتى لوضاع كل شيء، لو انتهى الأدب، يكفينى ما حصلت عليه من الأدب".

سلوك الأثرياء أثار قرفى!

ونزعة التصوف التى صبغت أخلاق نجيب محفوظ هى نفس النزعة التى اتسمت بها أخلاق يحيى حقى الذى رفض مبلغا كبيرا

(*) "الشرق" السابقة.
(**) "محاورات قبل نوبل" لأحمد هاشم الشريف.

لتحويل "صح النوم" إلى فيلم لقناعته أن كتابه لا يصلح لتحويله إلى فيلم "لاحتوائه على صراع الأفكار"مما دعا مدير إنتاج التليفزيون إلى أن يقول ليحيى حقى مندهشا : أول مرة أجد شخصا يرفض فلوساً تأتى إليه من السماء.

نفس الموقف اتخذه نجيب محفوظ مع اختلاف فى التفاصيل، فقد اعتذر لمصطفى أمين عن العرض المغرى الذى قدمه إليه لكتابة القصة القصيرة فى "أخبار اليوم" مقابل خمسة وعشرون جنيها، وهو ما يوازى مرتب نجيب محفوظ فى ثلاثة شهور، فى ذلك الوقت، ولكنه وجد أن رغبته فى كتابة القصة القصيرة قدانتهت، ولذلك لم يستطع أن يكتب لمجرد الحصول على المال، خاصة أنه لم يكن محتاجا إليه، فضلا عن أنه اعتبر هذه الأموال أشبه بأموال الطفيليين، ولم يلتفت نجيب محفوظ لعتاب أسرته الذى وصل إلى حد الغضب من رب الأسرة الذى يعتذر عن رزق ساقه الله إليه ليوسع على نفسه وأسرته.

إنها القناعة، إنه الرضى، إنها السعادة الحقيقية فى قهر سحر المال، متاع الدنيا، متاع الغرور، يقول نجيب محفوظ(*) "هو شيء ساحر ولكنه امتحان فى نفس الوقت، لأن العلاقة به تكشف عن أحسن ما فى الإنسان، وقد تكشف عن أسوأ ما فيه أيضا، وسياسة الإنسان مع المال هى التى تحدد موقفه فى الدنيا والآخرة".

ويشعر يحيى حقى بالسخط على مواقف الكثيرين من طبقة الأثرياء الجدد لما يتصفون به من سفه فاق كل حدود التصور، لذلك يرى أن(**) "سلوك الأثرياء الجدد يفترض أن يثير الدهشة ، ولكنه أبدا لم يثر دهشتى ، لقد أثار "قرفى"... يقيمون حفلات أعياد ميلاد أطفالهم ، ببطاقات فاخرة، وفى أحد النوادى الليلية ، وراقصة وبهلوان وأراجوز، وبتكلفة تكفى لإنشاء نصف مصنع، فى هذا الزمن الذى يحتاج فيه المجتمع لكل قرش.

ويحمد يحيى حقى ربه الكريم أنه لم يكن غنيا ليس خشية أن يكون كهؤلاء الأثرياء الجدد، ولكن لأن الله حباه كنز القناعة الذى لا يفنى، ولذلك فإنه ذات ليلة راح يحلم بالثراء ليس من أجل الترف أو

(*) الشباب – مايو ١٩٨٩.

(**) الإذاعة والتليفزيون ١٩٨٩/١/٢٨.

الرغبة فى الانتماء لنادى الأغنياء ، ولكن ياللعجب لكى يستطيع أن يتقشف .

تلك هي فلسفة الثراء عند يحيى حقى، ثم لا يلبث أن يندم حتى على مجرد الحلم.

يقول فى إحدى رسائله إلى صديقه الشاعر عبدالله السيد شرف "أعترف لك بأن المولى سبحانه أكرمنى كل الإكرام بقطع كل شهوة للترف، أمر على منات الفاترينات فأحمد ربى لأنى فى غنى عنها. وككل الموظفين كنت أعيش شهرا بشهر وفى أول الشهر إسعاف، فإذا لم أقتن العمارات لم تخل محفظتى من نقود، ولكن بلغت بى حماقتى ذات ليلة أن دعوت المولى أن أكون مليونيرا لكى أستطيع أن أتقشف ، فقد كان التقشف عندى هو قمة الترف أو هو والترف توأمان لا يمكن أن يلحقهما الدمامة" (١٩٨٢/٨/٢٤).

ولعل مرجع هذه الروح العالية من التصوف التى يتمتع بها يحيى حقى تعود جذورها إلى طبيعة تكوينه وشخصيته التى ترجع إلى التربية فضلا عن الأجواء الروحية فى حى السيدة زينب التى نشأ فيها، وصولا إلى فترة عمله كمعاون نيابة بصعيد مصر حيث رأى البؤس فى أقسى صوره فهانت عليه كل صور البؤس بعد ذلك.

يقول فى خطابه الأخير إلى صديقه الشاعر عبدالله السيد شرف والذى أملاه علىّ فى ١٩٩١/١١/٥ بادئا إياه بعتاب رقيق لا يُحمل صديقه فيه وحده تبعة غيابه عنه بل يقسم العتاب بينه وبين صديقه فى لغة سامية صافية هى أشبه بلغة المتصوفين بالفعل:

يا أخى أنا زعلان جدا جدا لأنك أنت أو أنا كفص ملح ذاب. فص ملح رشيدى رأيته فى يوم من الأيام هو الغذاء الوحيد لشبان مسيحيين فى أقاصى الصعيد كانت الكنيسة قد فتحت لهم مصنعا للسيراميك، وسمعتُ بذلك من القسيس الذى كان يشرف على هذا المصنع، وكنت أتمنى أن أنتفع بهذا الفص مع غد آخر بأن أضعه على جرح قلبى الذى أصيب به منذ أن سمعت هذا الوصف المؤلم. لقد شاهدت فقرا وبؤسا فى قرى منفلوط ولكن ليس إلى هذا الحد، فالبصل وحده مأكولا يعد مأدبة فاخرة لمن لا يأكل إلا الخبز والملح، وعلى فكرة أنا هذه الأيام لا أدرى لماذا أحب أن أضع ملحا على كسرة الخبز المحناة بالزبدة التى أتناولها فى الفطور".

هذه المشاعر الروحية العالية التى يشارك بها يحيى حقى الآخرين فى سرائهم وضرائهم هى التى جعلته يعترف لصديقه عادل النادى فى حديثه الأخير "للبرنامج الثقافى" ، قائلا(*) "فى وقت من الأوقات كنت سأصبح من دراويش التصوف.. "هذه هى طبيعة التكوين والخلقة" .

الأوغاد

إن روح التصوف هذه التى طبعت أخلاق الرجلين لها مفهوم خاص عندهما، غير هذا المفهوم الذى يدعو إلى التضحية بالحياة، أو كما يقول نجيب محفوظ(**) أنا لست صوفيا - بالمعنى المطلق لكلمة صوفية ، كما أننى لست رافضا للدنيا أو مهونا من شأنها ، لقد أحببت التصوف وأنا فى عز قوتى.. "إنه الجانب الحياتى الإيجابى للتصوف وليس الجانب الغامض السلبى".. وقد ظل الرجلان رغم تقدمهما فى السن يختلطان بالناس ويشجعان المواهب الجديدة، ولهما فى الحياة رأى، ولهما منها موقف يلخصه نجيب محفوظ فى(***) "فلسفة تتطلع لشىء فوق الحياة وتهمل الدنيا".

نعم تهمل الدنيا بدناءتها وأنانيتها وصغائرها إلى مثلها وقيمها العليا، أو كما يقول محفوظ موضحا "عشان الإنسان يشتغل بالدنيا مش عشان يهملها" وانظر إلى نجيب محفوظ وهو فى زهوة نوبل لا ينسى أساتذته: طه حسين والحكيم والعقاد، ويتذكر أستاذه يحيى حقى رغم أنهما لم يلتقيا منذ فترة طويلة، ويخصه باستحقاقه لجائزة نوبل، فيقول(****) "وأنا أنظر لمصر وجدت واحدا من الجيل السابق لى ومن الذين أثروا فىّ وتعلمت فى مدرستهم، واحدا من منشئى القصة القصيرة فى مصر ومن أحسن من كتبوا فيها، وله تميز واضح فى الأسلوب ، ومدرسة فيه، وكاتب على مستوى رفيع... "هناك قنديل أم هاشم ، والبوسطجى وهى رواية جميلة جدا.. "إنهما تتميزان بأسلوب فى غاية الجمال، وكذلك موضوعا القصتين، والرؤية السياسية فيهما إنسانية تستحق الاعتبار".

(*) نشر بمجلة الإذاعة والتليفزيون ٢٠٠١/٢/٣.

(**) نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/٤.

(***) محاورات قبل نوبل.. السابق.

(****) المصور ٢١ أكتوبر ١٩٨٨.

وانظر أيضا إلى يحيى حقى وهو ينفى عن نفسه هذا الاستحقاق، مؤكدا أن نجيب وحده هو المستحق، معلنا ذلك على رؤوس الأشهاد بين جمهور معرض القاهرة الدولى للكتاب، فيقول :

"لم يدر بخلدى قط أننى أستحق جائزة نوبل، وذلك لأننى أكتب فى مجالات متفرقة ، كما أن أعمالى من الصعب ترجمتها، وأؤكد أن نجيب محفوظ قمة من القمم التى جاءت فى عصر فتح فيه سجل الرواية التى اتسمت بالنضج، كما أن نجيب دارس للرواية وليس كاتبا لها فقط، ويستحق أكثر من جائزة نوبل".

ورغم تذكير أحد النقاد الأدباء لنجيب محفوظ أن يحيى حقى كان ناقدا له، إلا أن ذلك لم يؤثر فى رأيه فى صديقه واستحقاقه لنوبل، وكان يحيى حقى قد أثبت نقده لأعمال نجيب محفوظ فى كتابه "عطر الأحباب"، مقدما نجيب محفوظا بقوله "إن أعماله معروفة للقراء، وهو فوق ذلك صديق عزيز منا وعلينا ، فما أسهل الكلام حين يمتزج التقدير والاحترام بالإعزاز والحب المنبعث من صميم القلب".

ثم يبدأ يحيى حقى بنقد الثلاثية فيصفها بالازدواجية الخاصة بتكرار أفعال بعض الشخصيات "والسؤال هو: هل تمت صورة عبد الجواد بمجرد تقديم المغامرة الأولى؟ وهل هذا التمام يكفى القارئ أن يتوقع أو يتصور - دون أن يحكى له "نجيب" - أن هذا الرجل لا يستغرب من طبعه أن ينتقل من عالمة - إلى أخرى"؟

يتكرر نفس الأمر بالنسبة "لياسين" فى الثلاثية"، يقول حقى "ولابد للنظرة السطحية أن توجه "عين الأسئلة التى وجهتها إزاء ازدواجية الأب: عن شبع القارئ وتمام الوصف وتوقع حدث فيما بعد دون أن يروى لنا".

ويستدرك يحيى حقى على هذا النقد مؤكدا وكاشفا عن عمق واتساع ثقافة نجيب محفوظ كما عرفه من قريب كصديق كان مدير مكتبه كأول وآخر رئيس لمصلحة الفنون، فيعترف "ليس بيننا أديب يعرف أصول فنه مثل نجيب، من أجل هذا الفن وحده دخل كلية الآداب ودرس الفلسفة وعلم الجمال، واطلع إطلاع الفاهم الفاحص الواعى على درر الأدب العالمى، بل دخل معهد الموسيقى الشرقية وأجلس القانون على ركبتيه ولبس "الكستبان" فى سبابتيه ، وأشهد أنى لم أحدثه فى

مشكلة فنية إلا هدانى إلى الصواب وإلى المراجع، وتتبع لى المسألة من جذور أم أمها، وأجل صفة فيه أن عمله أكثر بكثير جدا من كلامه ، ولو كتب كما يتكلم لكان أيضا إماما لا يبارى فى الأدب الفكاهى ، ولو شاء أن يضع على الورق ما يقوله شفاها لأصدقائه وجلسائه فى ندواته لكان إمام هذا الجيل فى النقد أيضا - ولعلك قرأت تحليله البارع وتفسيره الذكى لمسرحية "لعبة النهاية".

لهذا يرى يحيى حقى أن عين المؤلف - فى الثلاثية - عين جاسوس يتتبع أبطاله خطوة خطوة، تلاحقهم أينما ذهبوا.. "يرسم لوحة عريضة جدا، لا يعرف الأدب العربى كله عملا يماثلها فى الاتساع.

خمس وخمسون شخصية على الأقل تمر أمامك فى طابور استعراض - ثم تنقسم وتتداخل والأيدى متماسكة حتى خيل إليك أنها يد واحدة. وتشكيلات عديدة لا تنفك تتبدل وهى تنمو، كأنك تطل من خلال ميكروسكوب على تهاويل حركة لكائنات حية دقيقة لا ينقطع اضطرابها.

فإذا أدخلنا الازدواجية ضمن هذا الإطار وأخضعناها لأحكام حبك النسج على منوال التأمل والصبر، والبناء المعمارى، ومسايرة الزمن طولا خطوة خطوة، وجدت أنها تقوم بدور لا غنى عنه لا تزان العمل الفنى ونطق ملامحه الصادقة".

ورغم النقد ثم العودة عنه لأسباب رآها يحيى حقى لها دلالات ومعانى، فإنه يعود حين ينقد "اللص والكلاب" ليقول إنها "أول قصة فى نظرى يكتبها نجيب محفوظ بنبض ديناميكى جعلنا نغفر له إسهابه القديم". ويلاحظ يحيى حقى "فى "المرايا" بشىء من الدهشة أن الذين يتحطمون هم الشرفاء، أما الذين يصعدون من أسفل الأسفل إلى القمة فهم الأوغاد، مما دفع يحيى حقى إلى أن يقول لنجيب محفوظ: قد هالنى عدد الأوغاد فى "المرايا". أصارحك بأننى أحسست بشىء من الانزعاج وكدت أمتحن نفسى لأتبين هل تلوثت أنا أيضا وجرفنى التيار".

ويعلل يحيى حقى "بهذا التعطش للاستقامة السياسية - إلحاح "نجيب" على تقديم صور عديدة من الانهيار الخلقى وفضحها.

ويصل يحيى حقى إلى نتيجة "تستطيع أن تقول أن نجيب أشد كتابنا عشقا للحياة وعذابا بالناس فى وقت واحد".

وقد أكد نجيب لمحفوظ أن مقالات يحيى حقى تشهد بثقافته

الواسعة ونظراته النافذة ، فضلا عن ذلك الأسلوب الفريد فى وضوحه ودقته وجماله".

لهذا حينما سأل الناقد الأدبى سامى خشبه، نجيب محفوظ عقب حصوله على جائزة نوبل (أهرام ١٥/١٠/١٩٨٨):

* ومن ترشح من كتابنا لجائزة نوبل؟

- أجاب: أرشح يحيى حقى.

* وما رأيك فى نقده لك؟

- إنه صديق عزيز، إنه من الصداقات الجميلة التى أعتز بها.

* ونقده لك ما رأيك فيه؟

- أنا أعتز بيحيى حقى سواء كان معى أو ضدى.

لقد تعارف الرجلان معرفة إنسانية فوق معرفة الأدب التى جمعت بينهما، كما جمعتها وظيفة واحدة، كان يحيى حقى فيها الرئيس وكان نجيب محفوظ المرءوس، فكيف رأى الرئيس مرءوسه؟

"ليس فى نجيب ذرة واحدة من طبائع الموظفين ، ليس فى حياته كلها سعى وراء درجة أو علاوة أو افتتان ببريق السلطة أو أبهة المنصب، ولا تستغرب إذا قلت لك إنه - مع ذلك - موظف مثالى، لم يحدث له أن تأخر عن الوصول إلى مكتبه دقيقة واحدة بعد دقة الساعة معلنة الثامنة صباحا، كان هذا دأبه حتى وهو يشغل المنصب الرفيع كمدير عام لمؤسسة دعم السينما. إنه يفعل ذلك لأنه حريص على أداء واجبه وأن يكون قدوة لغيره - بل - وهذه هى الحقيقة - إنه يبعد عن نفسه وجع الدماغ ليفرغ إلى فنه.

وكنت أغتاظ منه أشد الغيظ وأنا فى مصلحة الفنون، حين كان يقف إذا وقفت ولا يجلس إلا إذا جلست فأقول له معاتبا: متى تفض هذه السيرة وهذا التزمت وتعاملنى معاملة الأصدقاء؟ لم أفلح فى زحزحته عن مسلكه ولو قيد أنملة . وظل هذا دأبه معى حتى فى ندواته الخاصة فى سطح مقهى الأوبرا - ما أكاد أصل حتى يقف ويترك لى مقعده ويتخلى لى عن الحديث. ولم أدفع مرة ثمن المشروب من جيبى. كنت أتمنى أن يهفو هفوة واحدة لأحس أن الكلفة بيننا قد سقطت وبخاصة وهو يرانى أفضى إليه بكل أسرارى، وإذا جلست معه هششت له وتركت

نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم".

الويل للمجتهد

ولم يكن الوفاء والسلوك المتحضر وأخلاقيات المتصوفين هى فقط ما جمع بين الصديقين الأديبين، ولكن حبهما للعلم والعلماء هو قاسم مشترك بينهما، جعلهما يتمنيان لمصر الفوز فى مجال العلم ، فهذا يحيى حقى يردد مع شاعر النيل حافظ إبراهيم ، هذا البيت الحسابى العجيب من الشعر:

أرونى نصف مكتشف

أرونى ربع مخترع

مما جعل المازنى يقول للشاعر ساخرا "يا رجل" لو سايرناك فى فتح باب الشعر وبطن القصيدة لعلم الحساب والأعداد والكسور العشرية والاعتيادية لما وقع علينا لوم أن كتبنا بيتك هكذا:

أرونى ١/٢ مكتشف

أرونى ١/٤ مخترع

وكان نجيب محفوظ أيضا شديد الثقة بأن[*] "العلم هو قائد العصر وهو أملنا الأول فى التطور والتقدم نحو الحضارة والمعاصرة، وليس من شك أنه يرم أن نفوز بجائزة نوبل فى العلوم سيكون ذلك يوما تاريخيا ، وإذا كان الأدب قد أدخلنا إلى العالمية من باب ذهبى فإن العلم يدخلنا إليها من باب ماسى، وأنت تعرف أن الجائزة الأدبية تتضارب فيها الأقوال، إنما العلم حاسم لا تضارب فيه، فلان اكتشف كذا، مفيش كلام، فلان اخترع كذا، لاشك فيه، فهذا من أمنيات الحياة".

وقد تحققت أمنية نجيب محفوظ بحصول العالم المصرى د. أحمد زويل على جائزة نوبل العلمية، وإن لم يدرك ذلك يحيى حقى فى حياته.

[*] من حديث أجريته بين نجيب محفوظ و٣٧ شخصية فى عيد ميلاده الـ ٧٧ ، ولم ينشر بعد.

ويأسف نجيب محفوظ لأن التفوق العلمى لأبناء مصر لا يبرز إلا فى الخارج وهو ما حدث مع د. زويل ، فيقول[*] "ألاحظ أن من يفتح فمه بأى فكرة علمية تنهال عليه العصى من كل اتجاه.. فما الحكاية؟

يؤسفنى أن أقول إننى أشعر أحيانا كأن هناك عداوة كامنة نحو التفوق فينا، فنحن نريد أن نكون متساويين فى البلادة، أما أن ينبغ منا واحد أو يتفوق فهذا غير مقبول لأنه سيكشف عيوبنا.

لذلك أصبح كل إنسان يشعر بموهبة - وخصوصا فى العلم - يفر هاربا إلى الخارج حيث يتألق".

"لا يمكن أن نجد شعبا يحطم بعضه البعض مثلنا . وفى الماضى كان غليوم" يقول "الويل للمغلوب"، ونحن نقول "الويل للمجتهد" .

"لقد كنت أنادى دائما بأننا يجب عند وضع الميزانية العامة للدولة أن نعطى أولا للبحث العلمي ما يكفيه ثم نوزع المتبقى على باقى الجهات فى الدولة إذا كنا جادين حقيقة فى أن نتقدم ونرتقى".

ليلة كوبرى قصر النيل

ولا تخلو المقارنة بين التلميذ وأستاذه من مفارقات طريفة فى التشابه بينهما من خلال موقفيهما من العرافين والمنجمين ، فقد ذهب نجيب محفوظ إليهم يائسا ، وذهب يحيى حقى إليهم متسليا. يقول نجيب محفوظ[**] "الشباب أحيانا تمر به لحظات غريبة فقد كنت ساخطا على حياتى بشدة، ولا أعرف لماذا، وكان لى صديق يشاركنى هذا الشعور وهو الذى كان يفكر فى الانتحار بطريقة جدية، فلما وجدنى متفقا معه فى الموقف قال لى : ماتيجى ننتحر!

فقلت له : ماشى بس إزاى؟

قال لى : تعالى نروح على كوبرى قصر النيل ونرمى روحنا ونخلص من الحياة (وحاجة زى كده).

الغريبة رحنا كوبرى قصر النيل، وهو الذى عدل عن رأيه لما شاف الميه، وكان الجو برد ، وشعر إن الميه هاتكون سقعة، وقال لى : بلاش النهاردة، بكرة نيجى هنا وننتحر. وأجلنا الفكرة... "فى الحقيقة كنت

(*) الشباب - السابق.

(**) الشرق الأوسط ١٧/١٠/١٩٩٤.

متضايقا جدا ولا أعرف كيف أعبر لك عن مشاعرى فى تلك اللحظات.. الشباب أحيانا تمر عليهم لحظات تمرد وعدم رضى".

وقبل أن نذهب مع نجيب محفوظ إلى المنجم علـه يصلـه بـالأمل ويبعده عن اليأس، علينا أن نحاول أولا التعرف على أسباب هـذا السـخط الذى أوصله للتفكير فى الانتحار. وهـو كمـا لاحظنـا ليس سـخطا فرديـا يخص نجيب محفوظ وحده بل يخص جيله الذى ظهر منه صديقـه قريبـا منه فى هذه الصورة القاتمة، والدليل على أن الأزمة كانت أزمة جيل هى ما أكده نجيب محفوظ نفسه فى حوارات الأديب محمد سلماوى معه حين حدد هذه المرحلة بفترة الأربعينيات حيث كان يجتمع وأصدقاءه الحرافيش. علـى شـاطئ النيـل بـالجيزة فـى المنطقـة الواقعـة أمـام منـزل الرئيس السادات(*) "وكانت تلك منطقة مهجـورة آنـذاك، وكنـا نجلـس فـى حلقة على الأعشاب الخضراء وأمامنا النيل لكننا سمينا هذا المكان الدائرة المشئومة لأننا لم نتحدث فيها إلا عن احباطاتنا فى الحياة فى ذلك الوقت، فقد كان الوضع السياسى مؤلما فى أجواء ما قبل الثورة ، حيث الفسـاد والرشـوة والتخبط جاثمـا علـى صدورنـا، وكنـا نحـن مجموعـة شـباب يحاولون شق طريقهم فى دنيا الأدب والثقافة لكن أحدا لم يكن يشعر بنـا، وكان ذلك يصيبنا بالإحباط على المستوى الشخصى".

وقد أدى هذا الإحباط إلى التفكير فـى الانتحـار ومحاولـة الإقدام عليه كما كاد أن يفعل نجيب محفوظ وصديقه، فماذا حدث بعد ذلك؟

يقول نجيب محفوظ(**) "فى تلـك الليلـة وأقـدر أقـول عليهـا "ليلـة كوبـرى قصـر النيـل" ، رآنـا الأسـتاذ أنيـس منصـور بالصدفـة وعـرف بالحكاية وكان أصغر سنا منا فقال : ليه الانتحار سيبكم منـه، ايـه رأيكـم أخدكم عند واحد اسمه "فردى" ، وفردى ده بيقـرأ طـالع الإنسـان، ويقـدر يقولكم ايه اللى هايحصل لكم فى المستقبل.

وبالفعل رحنا عنـد رجـل مشـهور اسـمه فـردى. وكـان يقيـم فـى شـارع "فؤاد باشا" فى القاهرة، ويؤكد نجيب محفوظ قبل أن يخبرنا بكـلام فردى له "أنا عقلانى جدا... "هو على كل حال قال لى : أنا شايف حيـاتك

(*) اهرام ٢٠٠١/٢/١.

(**) الشرق السابق.

ورق وأقلام وأنه سيكون لك مستقبل كبير قوى وإن كان من ناحية الرزق ستكون مستورة ماتطمعش فى أكثر من كده" ويعلق نجيب محفوظ على تفسير قدرة الرجل على التنبؤ بأن(*) "عنده فراسة شديدة" وأن الكلام الذى أخبره به "كلام وإن كان ينطبق على أى موظف مصرى، فهو ينطبق أيضا علىّ، فحياتى كلها ورق ، ومن ذوى الدخل المحدود.

وكانت طريقة "فردى" فى التنبؤ تقوم على النظر إلى كرة كبيرة من الزجاج يضعها بينه وبين من أتاه، ثم يقول له متحدثا على لسانه بما سوف يحدث له فى المستقبل نظير عشرين قرشا، ولكن المنجم - حسب رواية أنيس منصور الشاهد الثالث لهذه الواقعة ، لم يلتفت إلا إلى ذلك الشاب الذى سوف يكون أديبا عظيما، وقال له "أنت يا ساذج تريد أن ترتكب جريمة وتقتل نفسك .. أنت ستكون أعظم كاتب فى هذا البلد... خذ فلوسك واخرج من هنا".

المنجمون فى وزارة الخارجية

أما يحيى حقى فليست له حكاية واحدة مع المنجمين لذلك روى هو بنفسه "تجاربى مع التنجيم والمنجمين" فى كتابه "من باب العشم"، وكانت الزيارة بخمسين قرشا هذه المرة لا عشرين كما حدث مع نجيب محفوظ، يقول يحيى حقى "حثنى أكثر من صديق متعلم مثقف أن أقصد الشيخ ع.. لأنه يقرأ المستقبل كأنه مكتوب أمامه بخط ثلث ورووا لى عنه قصصا تشبه المعجزات .. لم تكن فى حياتى مشكلة ، وكنت واثقا أن المستقبل سر علمه عند الله سبحانه وحده، ولكن كان بى شوق لأن أرى الشيخ ع.. نفسه ، ولو كلفتنى رؤيته خمسين قرشا"! "جلس مكورا، فى يد ورقة وفى يد قلم ، وسألنى وهو محنى الرأس عن اسمى واسم أمى وتاريخ ميلادى، ثم رفع لى عينين متعبتين. يندلق عليهما الملل والضيق، كأنه يقول لى : حتى أنت أيضا..!" "الظاهر أن هناك رجلا يحمل اسمى ، ولد يوم مولدى، وإن تشارك أمه أمى فى الاسم ، لأن شيخ ع.. - وهو لابد صادق - قال لى كلاما لا علاقة له من قريب أو بعيد بشخصى.. ومع ذلك خرجت وأنا سعيد، رغم أننى كععت خمسين قرشا لأننى رأيت فى النهاية الشيخ ع..".

(*) من حوار د. عادل ناشد مع نجيب محفوظ فى صباح الخير ١٩٨٦/١٢/١١.

وبلغ الأمر بهؤلاء المنجمين أن وصلوا إلى وزارة الخارجية "ذات يوم ضج الديوان كله بخبر معجزة مدهشة ، رجل له قدرة خارقة كأنما سخر الجن الأحمر لخدمته، ما عليك إلا أن تكتب سؤالك فى ورقة صغيرة وتطويها أربعة أرباع، وتضعها فى يده، فتظل قابضة عليها وهو "يتمتم "لا ينفتح فيها ولو أصبع" ، وبعد قليل يعيدها إليك ، فإذا بك نجد تحت السؤال جوابه مكتوبا بخط واضح، والغريب أنه وجد بين موظفى هذا الديوان الشيك من صدقه، وتكفل بالدعاية له، والإلحاح على بقية الموظفين بأن ينتهزوا الفرصة النادرة التى هبطت عليهم من السماء ليعرفوا ما يريدون معرفته.

وقد رفضت أن أقابل هذا الرجل، واستخسرت أن أدفع له فيزيتته" وهى خمسون قرشا، ولكن مدير الدعاية جاءنى به ذات صباح وأدخله إلى مكتبى بلا استئذان، إنه رجل يتعمد الشياكة، عمته نونو مقلوظة ، ، شالها مزهر ومشرشر، وطيلسان جوخ مهفهف ، وحذاء اجلاسيه لم يتآكل طرف كعبه ككعب حذائى ، إنه يركب السيارات وأنا أطخ المشاوير سيرا على الأقدام " "وكتبت على ورقة صغيرة سؤالا عن هم كان يشغلى حقا" "وبعد قليل مد إلىّ الورقة ، مطبقة كما هى ، فلما فتحتها وجدت تحت السؤال جوابا لا طلع ولا نزل، مكتوبا بالقلم الرصاص، بخط يضغط بكلمة ولا يضغط بأخرى، لماذا قلم الرصاص؟ لأن الجن الأحمر لا يأمنون للباركر فهو رجس من عمل إنسان كافر ، وهم بطبيعة الحال مسلمون وإلا لما جعلوا أنفسهم خدما وحشما لشيخ مسلم معمم، لاشك لو أننى فتشته لوجدت فى جيبه عقب قلم رصاص يستطيع أن يتناوله بالإبهام والسبابة ويخفيه بينهما.. تصور! مستقبل كرامة إنسان يتوقف، على برى قلم!

لا تعجب إن دان له موظفو وزارة الخارجية الذين يزعمون أنهم زبدة المجتمع والثقافة، فإنهم أشد انجذابا إلى المنجم إذا كان جاهلا، فالعلم عندهم يفسد الرؤية الباطنية ، حتى ولو كان هذا المنجم امرأة قروية ساذجة" "وقفتُ عند ظاهرة اشتداد ثقة المثقف بالمنجم إذا كان أميا جاهلا، وعللتها بأنها انعكاس لاعتقاد عامة الشعب بأن الأبله "أبوريالة" أو المجذوب روح صافية بريئة قد انكشف عنها الغطاء. لم يلوثها شيء من دنس الأرض..

وخير مثل لهذه الظاهرة جاءنى على يد زميل كان يعمل معى فى وزارة الخارجية "جاءنى ذات صباح وهو يكاد يطير من الفرح . إنه عثر على معجزة، ولأنه يحبنى كل الحب لم يرض أن يستأثر بها وحده، لابد أن يشركنى فى الانتفاع ببركاتها، إنها امرأة قروية انكشف عنها الغطاء ، فهى تعرف سرك وتجيب على الأسئلة التى تشغل ضميرك دون أن تحدثها أنت بكلمة واحدة "فإذا كان بعض المنجمين الشيك يدخلون وزارة الخارجية فليس من المعقول أن نرضى بدخول هذه القروية ، المنجمون كبقية الناس - مقامات، لو لم أذهب معه لأحزنته ، إرضاء له وتماديا فى هذا الهوس الذى يجعلنى أدور على المنجمين لأتطلع إلى وجوههم وأرى نصبهم "وجاءت اللحظة المرتقبة، قدم لى امرأة قروية نصف فلاحة ونصف غجرية ، تسحب وراءها أينما مضت، بنتا يافعة لها "تحمل فى خرقة قذرة طفلا مبربرا لا ينقطع صياحه..

سلمت على القروية فلم ترد علىّ، سارع الصديق يقول إنها صماء لو ضرب مدفع بجوارها لما اهتزت ، وقد زاد صممها من دهشته لمعجزتها "وتطوع صديقى بإرشادى، لا وصول إلى هذه القروية المعجزة إلا عن طريق ابنتها، ينبغى أن أنتحى بالبنت ناحية فأحدثها عما فى ضميرى ثم أتركها فى ركن قصى وأعود إلى أمها حيث هى فإذا بها تخبرنى بجواب كل أسئلتى "لست أدرى كيف تأتى لى أن أنشغل عن الأم برهة خاطفة، فإذا أذنى تلتقط من بين شتائم البنت لطفلها كلمة "تقل" وكلمة "درجة".. ووضحت لى اللعبة التى أدهشت صديقى ، إن القروية كاذبة فى إدعاء الصمم، إنها تسمع دبيب النمل، والطفل جزء هام فى المسرحية ، لابد أن تضربه ، وأن تشتمه أمه، فيتسنى لها أن تدس بين ألفاظها كلمات تكشف الطريق لأمها النصابة".

ما القصد من هذا الاقتباس المطول لتجربة يحيى حقى مع التنجيم والمنجمين ، أقول كما يقول هو بنفسه: لتعميم الفائدة على عموم القراء "وقصدى نفعهم لا تسليتهم وحدها، فرجائى من كل واحد منهم أن يشطب بالقلم الأحمر على كل فكرة تراوده باللجوء إلى منجم، وأن لا يصدق أى خبر عنهم.. أريد أن أصونه من التعرى أمامهم لينصرف إلى تدبير شئون دنياه بعلم دنياه وإرادته، لا بعلم أو إرادة الجن من أحمر وأزرق.. ينبغى أن يؤمن بأن الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه" وإذا حدث

وطابقت نبوءة أحدهم واقعا فليس ذلك إلا من قبيل المصادفات كما يقولون "كذب المنجمون ولو صدفوا" - بالفاء لا بالقاف كما هو شائع.

ولعل التلميذ نجيب وأستاذه حقى خير مثل على تدبير شئون دنياهم بعلم دنياهم وإرادتهم، فقد كان نجيب محفوظ موظفا صباحا لتدبير لقمة العيش له ولأسرته، وبعد الظهر يتفرغ للإبداع ، يتذكر يحيى حقى أيامه معه فى "عطر الأحباب":

منذ اليوم الذى قصد فيه أن يكون مؤلفا روائيا أخلص وجهه للفن، تاركا كل مطلب آخر دُبر أذنه ووراء ظهره، إنما جعل همه الأوحد أن يجمع فى يده كل الوسائل التى تعينه على الإجادة . من أجل فنه دخل كلية الآداب ودرس الموسيقى. من أجل فنه ألزم نفسه أن يلم إلماما كاملا مستنداً إلى دراسة شاملة مستفيضة للإنتاج الأوروبى سواء فى الفلسفة أو الأدب والنقد، واشتغل موظفا فى الحكومة ، فقنع بكل منصب - ولو ضئيلا - شغله".

الموهوب الكسول

وما دمنا قد تحدثنا عن النبوءات ، فإن أصدقها تلك النبوءات المستمدة من واقع العمل نفسه، لا من تخمينات المجهول وادعاء الغيب، فقد كانت بواكير اتجاه نجيب محفوظ ويحيى حقى، إلى الأدب مبشرة بأديبين عظيمين ، وقد التفت إلى عظيم موهبتهما ، سيد قطب الناقد الأدبى، قبل أن يتحول إلى مفكر دينى، وكتب مشيدا بهما فى مجلة "الرسالة".

فى عدد الرسالة ٥٨٧ أكتوبر ١٩٤٤ قدم سيد قطب نجيب محفوظ "المؤلف الشاب" إلى الحياة الأدبية بفرح شديد وهو يحتفى بقصة "كفاح طيبة" .

"أحاول أن أتحفظ فى الثناء على هذه القصة فتغلبنى حماسة قاهرة لها وفرح جارف بها" .

"اليوم أتلفت فأجد بين يدى القصة والملحمة ، كلتاهما فى عمل فنى واحد فى "كفاح طيبة" ، فهى قصة بنسقها وحوادثها، وهى ملحمة - وإن لم تكن شعرا ولا أسطورة - بما تفيضه من وجدانات ومشاعر لا يفيضها فى الشعر إلا الملحمة".

"إن العمل الفنى هو الذى لا يمكن تلخيصه ، وقيمته فى هذه القصة لا تقل عن قيمتها القومية وهذا هو المهم" "قصة كفاح طيبة" هى قصة الوطنية المصرية ، وقصة النفس المصرية تنبع من صميم قلب مصرى يدرك بالفطرة حقيقة عواطف المصريين".

"لو كان لى من الأمر شيء لجعلت هذه القصة فى يد كل فتى وفتاه ولطبعتها ووزعتها على كل بيت بالمجان ، ولأقمت لصاحبها - الذى لا أعرفه - حفلة من حفلات التكريم التى لا عداد لها فى مصر للمستحقين وغير المستحقين".

ولا يكتفى سيد قطب برغبته في إقامة احتفال لنجيب محفوظ - الذى لا يعرفه -بل "المرجو فى اعتقادى أن يكون قصاص مصر فى القصة الطويلة".

وحين تظهر "خان الخليلى" يعقد سيد قطب مقارنة بينها وبين "عودة الروح" لتوفيق الحكيم، ويجعل التميز لنجيب محفوظ رغم أن الحكيم كان سباقاً بقصته إلى تصوير(*) "حياة أسرة وتجعل حياة المجتمع فى فترة الحرب إطار لمصورة".

"ولكن - يضيف سيد قطب - من الحق أيضا أن أقرر أن الملامح المصرية الخالصة فى "خان الخليلى" أوضح وأقوى . ففى عودة الروح ظلال فرنسية شتى. وألمع ما فى عودة الروح هو الالتماعات الواقعية ، أما "خان الخليلى" فأفضل ما فيها هو الحياة، وواقعية العرض، ودقة التحليل. وقد نجت "خان الخليلى" من الاستطرادات الطويلة فى "عودة الروح" فكل نقط الدائرة فيها مشدودة برباط وثيق إلى محورها. وكل رجائى ألا تكون هذه الكلمات مثيرة لغرور المؤلف الشاب".

ويؤكد سيد قطب خصوصية أدب نجيب محفوظ وسماته العالمية قائلا إن رواياته "تسجل خطوة حاسمة فى طريقنا إلى أدب قومى واضح السمات نستطيع أن نقدمه مع قوميته الخاصة على المائدة العالمية، فلا يفقد طابعه فى الوقت الذى يؤدى فيه رسالته الإنسانية" (**) "وعند ظهور كتاب يحيى حقى الأول، وهو "قنديل أم هاشم" الذى صدر فى عدد أبريل ١٩٤٤ من سلسلة اقرأ" كتب عنه سيد قطب مقالا متحمسا فى مجلة

(*) الرسالة العدد ٦٥٠ لسنة ١٩٤٥.

(**) فؤاد دوارة - المصور ١٨ ديسمبر ١٩٩٢.

"الرسالة" أعاد نشره بعد ذلك فى كتابه "كتب وشخصيات" (١٩٤٦) لعله أول نقد كتب عن تلك الرواية القصيرة وتنبه إلى تصوير الكاتب لميدان السيدة ثلاث مرات.. إحداها قبل سفره إلى أوروبا وهو مؤمن بالسيدة الطاهرة ، والثانية بعد عودته مؤمنا بالروح الأوروبية الحديثة، والثالثة بعد انتهاء الصراع الأخير فى نفسه ، وعودته إلى الاستقرار النفسى والهدوء.

هذه الصور الثلاث للمنظر الواحد فى نفس واحدة تشهد ببراعة فى التصوير النفسى "لا ينالها إلا موهوب".

وبعد أن يستعرض الناقد هذه الصور الثلاث بالتفصيل ويعلق عليها ينتهى إلى القول "هذا هو الفن الإنسانى فى طابع قومى، فى أرقى الآفاق!".

غير أن حماسته للكتاب دفعته إلى هذه السقطة فى التعبير "أهذه الموهبة كلها يطمرها الكسل والإهمال.. ليتنى أملك سوط "الجلاد أيها الموهوب الكسول!!!" وعلامات التعجب من عنده".

وقد شهد محفوظ وحقى بداية النهاية لسيد قطب فى الطريق الذى اختتم به حياته فكانت نهايته المأساوية.

يحيى حقى شهد بدايات يأسه وحيرته واضطرابه، ونجيب محفوظ شهد نهاياته فيما استقرت عليه حياته الأخيرة.

حقى ومحفوظ شاهدان على نهاية سيد قطب

لقد مر سيد قطب بما يمر به الشباب أحيانا من لحظات غريبة من السخط على الحياة والتمرد وعدم الرضى، مما عبر به نجيب محفوظ عن حيرته وحيرة جيله، مما يصل بالبعض إلى حالة اليأس والإحباط وربما الانتحار، ، ولا فرق هنا بين الانتحار المادى الذى يودى بحياة صاحبه، أو الانتحار المعنوى الذى يودى بصاحبه أيضا، تتعدد الأسباب والمصير واحد، وقد شهد يحيى حقى هذه المرحلة الخطيرة فى حياة سيد قطب من خلال رسالة أرسلها إليه عبر له فيها عن حيرته، وقد أشار يحيى حقى إلى هذه الرسالة فى خطابه إلى "طاهر بك العمرى" الفنان والسفير بالسلك الدبلوماسى، حيث كتب إليه عن اثنين أحدهما زميل له يعمل محاميا، إنما "روح المقاومة انهارت عنده" ، أما الثانى فكان[*]

[*] السابق.

"اسمه سيد قطب، تخرج فى دار العلوم وجاهد حتى علا نجمه وذاع صيته ، مر عليَّ فى طريق عودته من أمريكا إلى مصر ، وخالطته قليلا ووجدت فيه إرادة طيبة وعقلا ناضجا. ولم تجر بينى وبينه أحاديث عن أحوالنا النفسية، ولم يفض لى بشىء ولم أكلمه أنا أيضا عن نفسى، فلما وصل لمصر أرسل لى بكتاب ذعرت منه ذعرا شديدا لأنه أفاض لى (وأنا مجهول عنده) بالشكوى من ضياع نفسه وروحه فى مصر وتشتت ذهنه وأحواله . وأقسم لك أننى لو توقعت هذه الشكوى من أى إنسان لما توقعتها منه".

ويتفق يحيى حقى فى تحليله لأزمة الجيل مع تحليل نجيب محفوظ ، حيث يلتقيان عند مناخ اليأس الذى ساد مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

يضيف يحيى حقى متسائلا ومجيبا فى نفس الوقت فى رسالته المشار إليها "فما هذه الغمرة التى تمر بها مصر؟ إن الجيل الحاضر كله جيل حائر أشد الحيرة. ومع الحيرة انعدام فى إرادته وقوة أعصابه ، فكيف يطلب منه أن يواجه الأحداث بما تتطلبه من جهاد وصبر وتحمل المسئولية، وليس النصر إلا بقوة الروح أولا. أعتقد أنه لاخلاص عن طريق السياسة (إشارة إلى فساد الأوضاع السياسية قبل الثورة) والإصلاح الدينى لازم بلاشك ، ولكن يلزم أن يقوم بجانبه كاتب صادق الوطنية أو شاعر عظيم كإقبال الهندى ينفخ فى هذا الشعب من روحه وعزمه وقوته، ولن يتسنى ظهور هذا الكاتب أو الشاعر إلا فى جو من حرية الرأى. ولذلك ترى أن المطلب الأول لنا الآن هو القضاء على قيود الفكر" . ويعلق الناقد الأدبى الراحل فؤاد دوارة صاحب الكشف عن هذه الرسالة، أنه "تبقى تلك الصورة الغريبة التى رسمها يحيى حقى للمفكر الدينى سيد قطب، وحالة الضياع واليأس التى عبرت عنها رسالته قبل أن ينشغل بالدعوة الدينية، مما قد يلقى بعضالضوء على أسباب تطرف أفكاره ودعوته ، لأن التطرف هو دائما الوجه الآخر لليأس والضياع".

أما نجيب محفوظ فقد شهد المرحلة التى وصل فيها سيد قطب إلى ما ينذر بمصيره بعد ذلك .

يتذكر فضله عليه، وقيمته الأدبية ، ونهايته المأساوية .

يقول محفوظ[*] "أتذكر أول مقال كتبه عنى سيد قطب وكان عن

[*] أخبار الأدب ١٩٩٦/١٢/٨.

رواية "كفاح طيبة" هذا مقال ممتاز تلاه سنوات صمت، حتى كتب أنور المعداوى مقالا آخر، وأعقب ذلك سنوات من الصمت أيضا، كان سيد قطب ناقدا موهوبا، ولولا اتجاهه المتطرف لأصبح أهم ناقد فى مصر... "بعد خروج سيد قطب من السجن أول مرة ، كان ذلك سنة أربع وخمسين، مضيت إلى بيته فى حلوان لزيارته، دخلت إلى غرفة الاستقبال، وجدته جالسا بين عدد من الذين لا أعرفهم ، لحاهم طويلة، متجهمين ، جاءنى إحساس أننى فى مأتم، أردت أن أخفف من الجو فأطلقت نكتة هادئة مهذبة، تطلعوا إلىّ متجهمين ، عندئذ أدركت أن سيد قطب الذى كنت أعرفه زمان، ليس هو الماثل أمامى، خرجت وغابت عنى أخباره، حتى أعلن عن اعتقاله ومحاكمته وإعدامه".

تبقى من هذه الصورة الأخيرة التى رسمها نجيب محفوظ لسيد قطب، شجاعة نجيب محفوظ نفسه الذى يغامر بزيارة رجل خرج من السجن دون أن يبالى بالعواقب التى يمكن أن تسوءه وهو يتودد إلى من غضبت منه الثورة وأدخلته سجنها، فماذا يبقى بعد ذلك إلا الحذر والخوف من الاقتراب، من رجل لا شك أنهم يراقبونه ويرصدون حركته ويكتبون أسماء زائريه، ألم يخش نجيب محفوظ كل هذا وهو يخطو إلى بيت سيد قطب رغم ما قد يكون له من فضل فى التنبيه إليه والاحتفاء به وتقديمه إلى المجتمع الأدبى لأول مرة ؟

إن قيمة الوفاء عند نجيب محفوظ تعلو على كل المخاوف، لأن الوفاء قيمة من القيم الأخلاقية التى حرص نجيب محفوظ على الالتزام بها طوال حياته حتى مع المتوفين الذين يبحث عنهم فى صفحات الوفيات للقيام بواجب العزاء تلغرافيا إن لم تسعفه صحته القيام به بنفسه ، وقد وجد نجيب نفسه تجاه واجب أخلاقى نحو سيد قطب والأسباب كما ذكرها(*) "لقد كتب عنى قبل أن يعرفنى معرفة شخصية، كتب عنى لمجرد أنه وجد فيما أكتب ما يستحق أن يتوقف عنده حتى ولو كان صاحبه غير معروف له أو حتى غير معروف للقراء، لقد كان ذلك عصر آخر له تقاليد أخرى وأخلاقيات أخرى، وكان سيد قطب صاحب تقاليد وأخلاقيات... "أذكر مثلا أنه حتى قبل أن يكتب تحدث عنى إلى توفيق الحكيم وقال له : إن نجيب هذا سيحقق شيئا فى مجال الرواية،

(*) حوارات نجيب محفوظ – لمحمد سلماوى.

وقد روى لى الحكيم هذا بنفسه... "لم يكن قد اتجه إلى زعامة الإخوان المسلمين بعد، فقد كان ناقدا عظيما، بل من أحسن النقاد فى ذلك الوقت وكان مثقفا ثقافة واسعة، فقد كان ينتمى إلى مدرسة العقاد... "أذكر أننى حين عرفته بعد ذلك وجدته إنسانا يحترم الدين احتراما كبيرا لكن شاغله الأساسى كان الأدب والثقافة وقد أحببته جدا، لكنه لم يكن قد اتجه بعد إلى تسييس الدين وتكريس حياته للدين وحده... "لست أعرف بالضبط أين حدثت نقطة التحول؟ هل كانت رحلته إلى أمريكا؟ لا أظن لأننى قابلته بعد عودته وكان يتحدث إلينا بما رآه هناك ويقول لنا ما كان يبهرنا فى ذلك الوقت... "لكنى أتذكر أنه غاب فترة عن عالم الأدب والثقافة ولم نعد نراه، ثم فجأة عدنا نسمع عنه مرة أخرى كعضو نشيط فى حركة الإخوان ، ثم كأحد أكبر زعماء الحركة الى أن فقدناه كما فقدناه قبل ذلك كواحد من أهم نقادنا الأدبيين".

القرآن فى أدب نجيب

وقد وصل حب نجيب محفوظ لسيد قطب إلى أن يتناول أحد كتبه بالنقد وهى من المرات القليلة فى حياة نجيب محفوظ التى يتحرك فيها قلمه للكتابة عن عمل من الأعمال ، وذلك عندما كتب عن "كتاب التصوير الفنى فى القرآن" لسيد قطب فى مجلة "الرسالة" فى ١٩٤٥/٤/٢٣، وكان فى نقده كمن يبث سيد قطب رسالة خاصة لا نقدا عاما يخاطب به عموم القراء، فيقول له :

قرأت كتابك "التصوير الفنى فى القرآن" بعناية وشغف، فوجدت فيه فائدتين كبيرتين:

أولاهما للقارئ خصوصاً القارئ الذى لم يسعده الحظ بالتفقه فى علوم القرآن، والغوص إلى أسرار بلاغته. بل حتى هذا القارئ الممتاز لاشك واجد فى كتابك نوراً جديداً ولذة طريفة ، ذلك أن كتاباً خالداً كالقرآن لا يعطى كل أسراره الجمالية لجيل من الأجيال مهما كان حظه من الذوق وقدره فى البيان، فللجيل الحاضر عمله فى هذا الشأن، كما سيكون للأجيال القادمة عملها.

والمهم أنك وفقت لأن تكون لسان جيلنا الحاضر فى أداء هذا الواجب الجليل الجميل معاً مستعيناً بهذه المقاييس الفنية التى يألفها

المعاصرون ويحبونها ويسيرون فى وادى الفن على هداها ونورها. إن عصرنا - من الناحية الجمالية - عصر الموسيقى والتصوير والقصة، وها أنت ذا تبين لنا بقوة وإلهام أن كتابنا المحبوب هو الموسيقى والتصوير والقصة فى أسمى ما ترقى إليه من الوحى والإبداع. ألم نقرأ القرآن؟ بلى وحفظنا - فى زمن سعيد مضى - ما تيسر من سوره وآياته، وكان - وما يزال - له فى قلوبنا عقيدة وفى وجداننا سحر، بيد أنه كان ذاك السحر الغامض المغلق، تحسه الحواس، ويهتز له الضمير، دون أن يدركه العقل أو يبلغه التذوق، كان كالنغمة المطربة التى لا يدرى السامع لماذا ولا كيف أطربته ، فجاء كتابك كالمرشد للقارئ، والمستمع العربى من أبناء جيلنا، يدله على مواطن الحسن ومطاوى الجمال، ويجلى له أسرار السحر ومفاتن الإبداع. كان القرآن فى القلب فصار ملء القلب والعين والأذن والعقل جميعاً.

ولقد قلت بعد نظر طويل وتدبر "التصور هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد. إذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، ومضيت تستشهد لكل حالة بالأمثال مفسراً شارحاً موضحاً، ولم تقتنع بذلك فتوثبت للبحث عن القواعد التى يقوم عليها هذا التصوير المعجز من التخييل الحسى والتجسيم فى فيض من الأمثال والشواهد، ثم لم تقنع بما فتح الله عليك من سحر هذا الفيض الإلهى فقلت "حينما نقول إن التصوير هو القاعدة الأساسية فى تعبير القرآن وإن التخييل والتجسيم هما الظاهرتان البارزتان فى هذا التصوير لا نكون قد بلغنا المدى فى بيان الخصائص القرآنية عامة ولا خصائص التصوير القرآنى خاصة .. هنالك التناسق الذى يبلغ الذروة فى تصوير القرآن، فكان هذا الفصل الذى بلغت به أنت أيضا الذروة فى النقد والذوق والفهم، كنت أود لو استشهد ببعض ما جاء فى كتابك من النقد التطبيقى للآيات الكريمة، ولكن تضيق عن ذلك كلمتى الموجزة ويأباه ذوقى الذى يأبى المفاضلة بين أى الذكر على اى وجه من الوجوه، ومهما يكن من أمر فينبغى أن

أقرر هنا أنه فى فصلى "التناسق الفنى" و"القصة فى القرآن" قد بارك القرآن مجهودك فرفعك إلى مرتقى يتعذر أن يبلغه ناقد بغير بركة القرآن..!

أما أخرى الفاندتين . فهى لك أنت! لأن الكتاب فى جملته إعلان عن مواهبك كناقد. إنك تستطيع أن تعبر أجمل التعبير عن أثر النص فى نفسك، ولا تقف عند هذا فتتجاوزه إلى بيان مواضع الجمال فى النص وما يحفل به من موسيقى وتصوير وحياة ، ثم تستنطق الموسيقى أنغامها وضروبها ، وتستخبر الصورة عن ألوانها وظلالها، وتستأدى الحياة حرارتها وحركتها، ولا تقنع بهذا كله! فيقرن ذهنك بين النص والنص، حتى تظفر وراء الظواهر بوحدة، وخلف الآيات بطريقة عامة، تجعل من الكتاب شخصاً حيا ذا غاية واضحة، وسياسة بارعة، وخطة موضوعة، تهدف جميعاً إلى الإعجاز الفنى فتناله عن جدارة، فهذا ذوق جميل ، وتذوق عسير وفكر ذو نفحة فلسفية.

والآن اسمح لى أن أوجه إليك سؤالا، وأن أسوق ملاحظة: أما السؤال: فإنك تحدثت عن التصوير والتخييل والتجسيم والتنسيق الفنى، وكل أولئك روح الشعر ولبابه قبل أى شيء آخر، أفلم يخطر لك أن تحدد نوع كلام القرآن على ضوء بحثك هذا؟

وأما الملاحظة فعن الفصل الذى خصصته للنماذج الإنسانية ، فقد وجدت فيما استشهدت به من آيات ما يعبر عن طبائع بشرية وسجايا نفسية لانماذج إنسانية، فالنموذج الإنسانى بمعناه العلمى شيء أشمل من هذا، وهو قد يحوى الكثير من هذه الطبائع كما قد يحوى غيرها، والمهم أنه يعرضها على نحو خاص يتفق ومزاجه الأساسى، والنماذج الإنسانية محدودة معروفة على اختلاف تقسيم علماء النفس لها - أما الطبائع فلا حصر لها، فلعلك قصدت الطبائع لا النماذج".

لقد حرصت على إثبات هذه الوثيقة بقلم نجيب محفوظ، لأنها تدل على قدرة نقدية ، وارتباط بجمال القرآن، وإيمانه بمعجزته، فقد "كان - وما يزال - له فى قلوبنا عقيدة وفى وجداننا سحر"، بل كان القرآن مصدرا أساسيا لثقافته واستلهامه ،[*] "وفى كتابه "القرآن الكريم فى أدب نجيب محفوظ" يرصد مؤلفه كيف كان للقرآن الكريم دور هام فى عكس

---

[*] أشرف عبد الشافى - الجيل ١٠ يناير ١٩٩٩.

الواقع اليومى لهذا الشعب، مشيرا إلى مدى استفادة كاتب فى حجم نجيب محفوظ من هذا الكتاب العظيم مما يؤكد اتساع حياتنا لاستيعاب الدين والدنيا دون تناقض، فهو كاتب يعرف جيدا أن هذا الشعب يستعين على عذاباته وآلامه بكتاب الله الكريم.

ويؤكد المؤلف أن الدراسة لا تستهدف الدفاع عن نجيب محفوظ وإظهار ايمانه، فهو فى غنى عن هذا الدفاع، لأنه ليس متهما فى دينه إلا لدى طائفة المتعصبين المرضى بداء التفكير والذين لم يقرأوا أعماله.

يخصص مصطفى بيومى الفصل الأول من كتابه لدراسة "مكانة القرآن فى أدب نجيب محفوظ" راصدا هذه المكانة عبر شخصيات الروايات، وكيف استوعبت هذا الكتاب باعتباره كتابا مقدسا يحترمه البشر حتى وإن كانوا من هؤلاء الذين لا يحافظون على الصلاة أو باقى الفروض... "وفى القسم الثانى يخصص المؤلف دراسته المعجمية للآيات التى وردت فى الروايات بداية من "بسم الله الرحمن الرحيم" ومرورا بمعظم آيات القرآن الكريم".

اعتذار يحيى حقى للشعب المصرى

أيا كان الأمر فمن المؤكد أن نجيب محفوظ ابن الحارة المصرية هو ككل أبناء الحارة المؤمنين الموحدين، فهو القائل :[*] "الله هو الذى يعطى للقيم معناها.. الله هو الذى يعطى للوجود معناه "بدونه لا معنى للوجود.. لا معنى للقيم.. وبديله هو العبث.. اللا معنى"، ولا مزيد، ومحاسبته على رواية أسيء تفسيرها، إلى حد الفتوى بإهدار دمه، يدل على سوء نية وسوء قصد "ومن الحرام أن نقرن هؤلاء القتلة بالإسلام من قريب أو بعيد" وذلك كما قال نجيب محفوظ نفسه بعد المحاولة الفاشلة لاغتياله فى أكتوبر ١٩٩٤، ولم ينس فى يوم محنته عندما قال له تلميذه الأديب جمال الغيطانى: لن أذهب إلى الجمالية إلا بعد شفائه.

قال: لا.. يجب أن تذهب لتدعو لى فى الحسين". فأى نفس هذه وأى روح هذه، إن لم تكن نفس مؤمن وروح مؤمن خاصة حينما رفض أن يدعو على أعدائه الذين أرادوا قتله، وطلب لهم الهداية.

يشاركه فى هذه الصفات أستاذه يحيى حقى الذى لم يكن شىء

[*] أهرام ١٩٩٤/١٢/٢٩.

يشغله فى مرضه الأخير حين يفيق، إلا أن يكون قد أساء إلى أحد أثناء غيبوبة المرض، كان يسأل ابنته نهى إن كان قد تلفظ بكلمة خارجه فى حق إنسان، وحينما تطمئنه يستريح ويهدأ باله ، وذلك فى وقت يكون هو فيه أحوج ما يكون للانشغال بنفسه ومصيره، إنه كنجيب محفوظ أبناء الحارة الذين انتصروا للضعفاء والمظلومين وعبروا عنهم فى أدبهم.. يحيى حقى يكتب عن : "ناس فى الظل" .. نجيب محفوظ "وأنا دائما أكتب عن المنسيين والمضطهدين".

يحيى حقى يعلى من شأن العقيدة، ويشعر بالفخر لأنه لم ينسحق أمام حضارة الغرب لأن "عندى حضارة إن لم تفق.. فهى تماثل حضارتها ، وعندى دين هو نظام متكامل فيه الغناء.

وليس أدل على عقيدة يحيى حقى من عناوين بعض كتبه "خليها على الله" ، "أم العواجز"، "قنديل أم هاشم"، ويأبى يحيى حقى أن يفارقنا قبل أن يكشف ويعتذر لأبناء شعبه الذين أحبهم عما قد يمكن أن يكون قد أساء به إليهم فى "قنديل أم هاشم" فيعترف لتلميذه عادل النادى المذيع بالبرنامج الثقافى(*) "إننى الآن بعد أن أقرأ مقاطع مما كتبته أقول إننى كنت "قليل الأدب" أو "بذئ" .. "قبيح" لأنى شتمت الشعب.. شتائم فظيعة جدا. أقول لك يا أستاذ عادل وأنا خجل.. لم يسب أحد الشعب المصرى كما سببته أنا فى "قنديل أم هاشم". فعندما أقول شعب بوله دم وبرازه ديدان.. أى بلهارسيا وانكلستوما وخلافه.. ويسيرون كالقطيع فقط. دون أن يسأل أحد أو يثور.. كتبت بذاءة شديدة. الآن انتهى ذلك.. وأقول كلامى عتاب".. ذلك رغم أن يحيى حقى نفسه يعترف "أن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفا ويقول له : "اصح.. تحرك، فقد تحرك الجماد". وليس أدعى للإيقاظ إلا التنبيه للسلبيات التى كانت موجودة فعلا ومنتشرة بفعل ثلاثية الجهل والفقر والمرض، وهو ما عبر عنه يحيى حقى، فلم يكن فيما كتب مفتعلا بل هو تقرير لواقع ، ولكنه يحيى حقى بالغ الإحساس رفيع الذوق، بل يذهب يحيى حقى فى صدقه مع نفسه إلى حد الاعتراف بتزوير "قنديل أم هاشم" حينما كتب فى إحدى رسائله إلى ابنته نهى يقول لها وهو يتحدث عن السيدة نفيسة

(*) مجلة الإذاعة.. السابق.

التى(*) يعتقد أن زيت قنديلها يشفى أمراض العيون فجاء يحيى حقى ونسب هذه الكرامة إلى قنديل أم هاشم ، وهذا تزوير فى التاريخ".

وإذا كان يحيى حقى قد جعل بطل "قنديل أم هاشم" طبيب عيون، فإن ذلك كان يعكس رغبة فى داخله لأن يصير طبيبا "كنت فى صباى أتمنى أن أصبح طبيبا لأنى أعشق اكتناه ذلك المجهول الكامن داخل جسم الإنسان" أو "أن أصبح حكيما فى الأمراض العقلية ، فالطب هو أقرب مهنة للوصول إلى أسرار العقل".

أما نجيب محفوظ فقد تمرد على رغبة والده لدخول كلية الطب والتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة. وقد تزوج كلاهما فى سن كبيرة، يحيى حقى (٣٩ سنة) ونجيب محفوظ (٤٥ سنة).

كم علمنى الأديب الأدب

وكلاهما لم ينجب ذكرا، يحيى حقى أنجب بنتا اسمها نهى، ونجيب محفوظ أنجب بنتين فاطمة وأم كلثوم تيمنا بأم كلثوم التى يحبها وينتشى بسماعها ويغضب ممن يهاجمها.

يتذكر الأديب سعيد الكفراوى تلميذ يحيى ونجيب(**) "على مقهى ريش... "هذا اليوم لم أنتبه لوجوده، لأننا كنا مشتبكين فى قضية "الغناء فى ظل الدولة الناصرية". كنت أشتبك أنا والشاعر "محمد عفيفى مطر" مع آخرين. كانت وجهة نظرنا المنفعلة تتلخص فى أن أم كلثوم بدورها فى الغناء، تشكل الوجدان العربى. والروح العربية، ومادامت مغرقة فى الماضوية، ومستخدمة لفنون الغناء المعتمدة على التخت، وإلهاب العواطف بغنائها للسلطة، فإن هذه السلطة تستخدمها فى تغييب الوعى العام. وكنت أقف وأقعد صارخا.

- تلك السيدة أحد أسباب الهزيمة.

وكان مطر يصرخ :

- لولا أم كلثوم ، و"عبد الوهاب" ما غاب الدور الحقيقى كل هذه السنين لرائد عظيم مثل "سيد درويش".

كان "نجيب محفوظ" يتأملنا صامتا، وقد زم شفتيه ممتنعا عن

(*) رسائل يحيى حقى – السابق.

(**) أهرام ١٩٩٤/١٢/١٦.

المشاركة فى الحديث ينظرنا وقد أوغلنا فى العيب، والخروج عن الموضوعية والأدب... "الثامنة بالضبط دقت الساعة الداخلية "لنجيب محفوظ" فنهض واقفا:

- السلام عليكم.

وخطا ناحية شارع طلعت حرب. عبر الشارع وعلى الرصيف الأخر. أمام محل الموبيليا سمعناه ينادى:

- يا كفراوى.

انتفضت واقفا:

- أفندم

عدوت مسرعا وأنا أرتجف عابرا من رصيف لرصيف. وقفت قبالته لحظة. كان وجهه متألما يشيع به قدر من الحزن، وعيناه تحت نظارته ترفان بحركة سريعة .

وضع يده على كتفيَ وهمس بصوت يشيع فيه انفعال ظاهر:

- يا كفراوى أنت ومطر معنتوش تشتموا أم كلثوم قدامى.

بلعت ريقى ، وأصابنى الخرس، ومأمأت، وشعرت لحظتها بالضآلة وكأننى قطعة من ورق ملقاة بجانب الرصيف.

اندفع بداخلى شلال من الغضب على نفسى.

"يا فلاح يا مدب، يا دغف: ألا تعرف كم يحب الرجل أم كلثوم.

لقد سمى كريمته على اسمها، وكم يتضوع صوتها عبر صفحات رواياته فى ساعات التجلى والوصول، خطا خطوات ، ولما رأى خجلى ابتسم ، وهش فى وجهى بترحاب جليل:

- تصبح على خير

ومضى.

وأنا أقاوم أنهار العرق على بدنى، وأدركت لحظتها، والأرض تميد بى:

كم علمنى الأديب الأدب"

أعتذر لطول الاقتباس ولكن لاشك أنك تتفق معى على ضرورته لدلالته على شخصية نجيب محفوظ، وكيف ينفعل، ويكظم غيظه، ولا يحرج من يغضب منهم أمام الناس، بل يسر إليهم بما يريده بينه وبينهم، فى شكل عتاب رفيق بكلمات لا تؤذى ولا تجرح، ومع ذلك تعلم الآخرين الأدب.

ولا تبعد أخلاق يحيى حقى عن هذه الروح التى يحرص فيها على عدم جرح الآخرين حتى ولو غضب منهم.

ويتفق يحيى حقى مع نجيب محفوظ على تقدير مكانة أم كلثوم ، فهو يقبل منها ما لا يقبله من غيرها، فيقول(*) "يضيق صدرى أشد الضيق عندما أسمع الأنغام تتردد بنفس المادة وبنفس الوتيرة ونفس النمط، أكاد أرمى نفسى من البلكونة لأن النغم يكاد أن يكون واحدا، والتطويل زيادة عن اللزوم، شىء مؤلم، إلا عند السيدة أم كلثوم فهى تستطيع أن تتناول الكلمة والنغمة بأشكال مختلفة لا تبعث على الملل ، لذلك أحب أن أسمع الشعر منها وطريقة مخارج ألفاظها، فهى قديرة فى نقله بهذه الصورة البديعة، أصعب الشعر أسهله عند أم كلثوم بالإضافة إلى الصوت القوى الذى يأخذ بالألباب والقلوب والآذان".

زرمباحة

ومن عالم الطرب والتحليق فى آفاق الخيال إلى عالم الطفولة والتحليق فى آفاق المجهول.

يتذكر يحيى حقى "آمنت بالجن، والعفاريت، والست المزيرة، وبغلة العشرى - تقابلك فى ليلة مقمرة (هذا هو الشرط) وتغريك بركوبها فإذا فعلت علت بك حتى تبلغ السماء ثم تلقيك عنها وتلقى مصرعك، وآمنت أيضا أن لى أختا تسكن الأرض (كم تمنيت أن أراها رأى العين.. هذه الأخت العزيزة) وأن بعض الرجال متزوجون من نساء من الجن، وبعضهم من حوريات البحر، الزوجة نصفها الأسفل سمكة ونصفها الأعلى امرأة، فلها ثديان كنساء البشر، وكنت قبل أن أنام أحلم فى بعض الليالى - وفى لذة كبيرة - بأن امرأة من الجن خطفتنى وأنزلتنى قصرا وردى اللون فى كهف سحيق، قصر مسحور، ففيه سكينة متخلفة من ألف صرخة موءودة ... "آمنت بهذا كله لا تقليدا فحسب، بل بلذة وطرب شديدين، إننى لا أنقى عليهم حشو دماغى بهذه السخافات كلها، بل أشكرهم كل الشكر عليها، كم كانت طفولتى بدونها تبدو لى تافهة مملة سقيمة ... "ولما كبرت وقرأت أن بعض علماء الفلك يقولون إن عالمنا هذا هو صورة معكوسة (كأنما فى مرآة) لعالم آخر، بدت على فمى

(*) رسائل - السابق.

ابتسامة رضا وعاد لى جو طفولتى بكل براءته وحيرته وتعجبه".

أما نجيب محفوظ فيتذكر من طفولته(*) ارتباط العفاريت بأغنية "زرمباحة" وكان لها مدلول فى ذلك الوقت يرتبط بوجود العفاريت مثل كلمة "شمهورش.. وكان الأستاذ يتغنى بأغنية "زرمباحة" وهو صغير ، واشتكاه الجيران لوالدته خوفا من ظهور العفاريت لهم جميعا، وظلت هذه الكلمات فى ذاكرته، واستخدم كلمة زرمباح فى رواية "ألف ليلة وليلة".

آلام المدرسة

أما بداية الطفلين نجيب ويحيى نحو المدرسة فلم تخلو من آلام، يتذكر نجيب محفوظ(**) "فى الحضانة كنت "بليدا" ودائما ما كنت أتعرض للضرب لهذا السبب ، ولكن لما التحقت بالمدرسة الابتدائية بدأت أشعر بالمسئولية فارتفع مستواى فى التعليم وكان الجميع يشجعونى على المذاكرة ، فأحببت التشجيع والتفوق فى المدرسة.

أما يحيى حقى فلا ينسى كيف "قضيت فى المدرسة الابتدائية خمس سنوات غاية فى التعاسة. كانت ضربات عصى المدرسين تجعل الدنيا تظلم فى عينى، كما كنت أتعذب عذابا هائلاً وأنا أحشر دماغى بمعلومات لا أكاد أفهم منها شيئا ولا لماذا يعلمونها لنا... "كان طبيعيا أن أرسب فى السنة الأولى الابتدائية، ولكن لم أرسب بعد ذلك قط.. كنت أنجح كى أفر من هذا الجحيم، ولكى لا أغضب أمى أو أجرعها خيبة الأمل .. كانت هى عماد الأسرة.. ربتنا بيديها، تخيط ثيابنا ونحن ستة، تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك أشد العناء، متحايلة للوصول بنا مستورين آخر الشهر".

مدين لأمى

وقد كان للأم دور كبير فى حياة الأديبين الكبيرين، نجيب محفوظ كان له ستة إخوة كيحيى حقى، ولكنه نشأ كطفل وحيد لفارق السن بينه وبين أصغر إخوته والذى بلغ عشر سنوات "لذلك - يقول

(*) نصف الدنيا.

(**) الأهرام.

نجيب محفوظ - عندما بدأت الوعى في سن السادسة كان هناك فارق كبير بينى وبين إخوتى وكانوا قد ذهبوا إلى بيوتهم، وطبعا كنت أزورهم كثيرا ولكن مثل الضيوف، وكانت علاقتى بهم علاقة الصغير بالكبار، أساسها الأدب والاحترام، ولم أعرفهم كإخوة أعيش معهم حياتهم اليومية، ألعب معهم وأضحك معهم".

وقد حاولت أم نجيب محفوظ أن تعوض أخوته المفقودة، وتكون مصدرا من مصادر ثقافته، يقول عنها "ساعدتنى أمى كثيرا من خلال حكاياتها وعشقها للآثار فأنا مدين لها بجانب من التكوين الفنى.. كانت أمى تحب الآثار وكانت تصحبنى وأنا طفل لزيارة المتاحف والآثار"، ونفس الدور في التثقيف ليحيى حقى لعبته والدته التى كانت "شديدة التدين، مغرمة بقراءة القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة النبوية، وكانت تختار أسماء أبنائها من صفحات القرآن، فإذا اقترب موعد الوضع فتحت المصحف على أى صفحة واختارت أول اسم يقابلها.. وكثيرا ما كانت تقرأ علينا صفحات من البخارى والغزالى ومقامات الحريرى".

والحديث يطول إذا تتبعنا أوجه المقارنة والمقابلة والتشابه بين أديبينا الكبيرين، فكأنهما من نبع واحد هو نبع البساطة والتواضع والإنسانية والفن الجميل.

سماحة حتى مع الأعداء إن وجدوا.
وفاء للأصدقاء والأساتذة.
لا سبيل للبغضاء إلى روحيهما.
لا طريق للحقد إلى نفسيهما.
لا مكان للإساءة على لسانهما.

فأى أديبين هما إن لم يكونا أديبين إنسانيين ، وأى أدب هو سلوكهما إن لم يكن أدبا إسلاميا.

نجيب

سأترك الوفاء يتحدث عن الوفاء والصداقة تتحدث عن الصداقة. فيرسم لنا يحيى حقى صورة لنجيب محفوظ من قريب، أديبا وإنسانا فى مقال جميل بعنوان جميل هو "نجيب" وكفى به من اسم وصفة لتلخيص

الشخصية والدلالة عليها، أما مناسبة المقال فهو تحية من يحيى حقى إلى نجيب محفوظ لحصوله على جائزة نوبل.

كتب يحيى حقى يقول(*) "نجيب محفوظ موهبة ورسمت له أصلح طريق يسلكه .. ها هو ذا يدخل كلية الفلسفة لا الآداب ولا التربية فلا ينبغ كاتب قصصى إلا إذا كانت له ذخيرة متكاملة من الفكر الفلسفى فى جميع العصور.. وقيل له وهو فى مهده أنت مخلوق للفن الروائى فالزمه. فالتزمه ولم يحد عنه رغم أى إغراء. وقيل له إنك ابن القاهرة وحى الجمالية فالزم مسرحك . فالتزمه رغم أى إغراء بأن يستجيب إلى مطلب من اهتمامه إلى القرية .. صدقت موهبته وصدق هو معها..

ورفض نجيب أيضا الخضوع لمطلب أن يكون الحوار دالا على صاحبه فيتكلم الجزار والنجار بالعامية لأنه بصدق إحساسه الفنى ودراساته فهم أن كل عمل فى جميع الفنون مسبوق بكلمة كان ، فالعمل الفنى هو حقيقة متوهمة أو هو وهم محقق فى الواقع الخارجى فالتزم كتابة الحوار بالفصحى.

ينبغى للغتنا الشريفة أن تجله وتحمد له إخلاصه لها. وها هو ذا انضم إلى النادى الذى يجمع جميع من نبغ بالفصحى من شعر ونثر منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا.

إذا مسّك غم أو هم وأردت أن تغسل قلبك فاذهب إلى ندوة نجيب محفوظ، ستدلك عليها وأنت بعيد جلجلة ضحكة منطلقة بانشراح من صميم القلب.. لأجل هذه الضحكات كنت أقصدها فيما مضى.. روح الفكاهة متفجرة ليست وليدة تلاعب لفظى أو من قبيل الدخول فى قافية فى قهوة بلدية . بل هى وليدة فهم لمتناقضات الحياة والطبائع وخداع المظاهر مبرأة من وصمة السخرية ، لا ينبغ كاتب إلا إذا رأيته أحيانا يضحك ضحك نجيب محفوظ..

وهذه الأيام التى تزدحم الدنيا حول نجيب لم ينس أن يذكر صداقتنا الحميمة أين منها أخوة الدم.. أسأل نفسى كيف وصلت ذكراى إليه وسط هذا الزحام.. من أكبر نعم الله علىّ هذه الصداقة التى ربطت بيننا لا تعادلها نعمة أخرى..

(*) الهلال – نوفمبر ١٩٨٨.

ومسك الختام أقول يا نجيب أنت تحس معنا جميعا بفضل التحامك بامتك مذ كنت. إن هذه الجائزة هى كاشفة غير منشئة لقرار إجماعى من شعبك بأنك تستحق هذه الجائزة، ولذلك فلعله لأول مرة فى تاريخنا أن تعم الفرحة كل قلب وفى كل بيت لأن أديبا من أبنائنا قد نال الاعتراف به على الساحة الدولية.

"كان من حسن حظى أننى جاورت نجيب محفوظ ثلاث سنوات فى مصلحة الفنون.. مكتبه بجانب مكتبى ، قمت ذات يوم لأطل عليه.. لم ألحظ أن الباب مقفول على غير العادة.. أتوقع أن أراه جالسا إلى مكتبه، إنه يصل إليه كل يوم فى الساعة الثامنة بالضبط.. وينصرف فى الساعة الثانية بالضبط كأنما الفيلسوف "كانت" عاد عندنا للحياة من جديد.. نجيب يلتزم الواجب وينأى بنفسه عن كل مساس بخط سيره..

فوجئت أننى رأيته وسط الحجرة قد رفع رأسه إلى السقف.. علقت نظرتى بجبهته، أحب أن أتأمل جباه رجال الفكر، وضاءة كأنها إشعاع نور باطنى.. يداه مشتبكتان وراء ظهره.. جسده مشدود كقوس المنجد لو لمسته بأصبعك لنفضك..

لم يحس بدخولى ، ولا بوجودى بل أخذ وهو فى هذا التوتر الشديد يزرع الحجرة ذهابا وإيابا.. عرفت فيما بعد أنه مقبل على تأليف رواية "اللص والكلاب".

حضرت لحظة هامة فى فكر المبدع، كان نجيب قد جمع مواده الرئيسية فى ذهنه.. ووضعها مبعثرة فى كيس.. حضرت لحظة هندسة العمل.. وضع الأشياء فى أماكنها متناسقة مسلسلة بعضها يأخذ برقاب بعض..

نجيب أستاذ فذ فى فن هندسة الرواية ، النسب والتناسب والمكان الصحيح، توقعت له أن يمر بمرحلة أخرى وتمثل فى ذهنى فلاحة جلست إلى ماجور، وتأملت ما لديها من دقيق، وحسبت بسابق خبرتها ما يلزمه من ملح وماء ثم أخذت يداها تفركان هذا الخليط وتصطاد ما تناثر منه ثم تعمل يداها فى العجن واللت لا تنقطع لحظة حتى يصبح فى الماجور كتلة من العجين متماسكة لها عرق ينجيها من الفسولة.. غاب الكل فى الجزء وغاب الجزء فى الكل حتى الهندسة غابت فى هذه الكتلة، حينئذ ينشأ القوام الأصيل للعمل، وتتحقق الروابط بين المعطيات وبين

الألفاظ مهما تباعدت.. هى لحظة من أسعد لحظات حياتى أننى حضـرت مخاض "اللص والكلاب"، وحينما قرأتها أثنيت عليها ثناء جما، ولعلى لـم أقل حينئذ أن من أسباب انبهارى بها أننـى وجدت نفسـى أعيش داخـل محفل صوفـى، تتردد علـى سمعى جميع ألفاظ ومصطلحات القـاموس الصوفى..

لا تضحك إذا قلت لك أيضا أن العمل العظيم كـالنهر العظيـم لـه روافد جانبيه تثريه وتطغي عليه.

يجب البحث فى كل ما كتب نجيب عن تلك الروافد. انظـر إليـه فى الثلاثية، كيف كان من روافدهـا التـأريخ للأغنيـة المصريـة فـى عهـد الرواية...

إننى أبحث فى كل نثر عن لمسة من الشعر، وقد خضـع النثر فى الرواية لإرهـاب استمر زمنـا طويـلا.. يقول بعض النقـاد إن الأسـلوب الأدبى فى الرواية عائق يقف بين القارئ واستمتاعه بالرواية كفن مسـتقل قائم بذاتـه، يطلبـون أولا مـن المؤلـف الـتزام الحيـاد التـام إزاء شـخوصه فترتب علـى ذلـك أيضـا حيـاده التـام إزاء الأسلوب فـى الروايـة فيصبـح مستقلا عن الانفعالات التى يعبر عنها..

فتشت عن هذه اللمسات الشـعرية عنـد نجيـب محفـوظ.. وجـدت أروع مثال لها فى مناجاة كمال لنفسه فى الثلاثية وهو يسير خلـف نعـش لا يعلم أنه يضم حبيبته .. لا أخجل إذا اعترفت لـك أن عينـى أغرورقتـا بالدموع وأنا اقرأ هذا الشعر الجميل المنثـور، كمـا أغزورقتـا وأنـا أشـهد السـت أمينـة مطـرودة مـن بيتها لأنهـا خرجـت بـدون إذن زوجهـا ولـو لزيارة مسجد قريب.

وضعت يد رحيمة كريمة فى مهد.

توفيق الحكيم

الأستاذ الصديق

(*)"أنا تتلمذت على يد توفيق الحكيم.. لكن قد يكون الأستاذ الذى يتتلمـذ عليه الإنسان غير الصديق. الحكيـم أصبـح صديقـا لـى، قريـن روحـى.. الإنسان الذى تجد نفسك فيه"

نجيب محفوظ

(*) أهرام ١٩٧١/٩/٢٦.

أساتذتى[*]

عندما عرفت الأستاذ توفيق الحكيم فى قهوة "ريتز" التى كان يفضل الجلوس فيها أمام البنك الأهلى ، لم يفصلنى عنه إلا الموت. وعلاقتى بتوفيق الحكيم تمثل فى كتاب العمر إلى جانب الصداقة الأدبية، الصداقة الشخصية ، وهو يعرف أننى كنت دائما أنوه بأستاذيته الحقيقية، وكان هو يقدرنى كأديب ويشجعنى، ولن أتحدث عن توفيق الحكيم الأديب لأن الدنيا تكلمت عنه فى الشرق والغرب، ولكننى سأتكلم عنه من الناحية الإنسانية والمواقف الجديرة بالاحترام، كتشجيعه للشباب واستماعه لهم، أو زيارته لمعارضهم، وتشجيعه للفنانين، فضلا عن مواقفه فى اللجان والجوائز، أو وقوفه مع المظلومين، وأذكر أنه كان سيستقيل من المجلس الأعلى للفنون والآداب بسبب الجو العدائى لترشيح "كمال الملاخ" لجائزة الدولة.

وكذلك وقف إلى جانب حصول "ألفريد فرج" عليها ولم أكن عضوا فى اللجنة الخاصة بذلك، فطلب منى أن أكون سنداً له للتغلب على الجو السيئ المعادى لألفريد فرج، وقمنا بما يشبه مذبحة القلعة لكى ينال الجائزة التى يستحقها بكل جدارة. وعندما تبنيت فكرة عودة د. غالى شكرى إلى الأهرام، وافقنى توفيق الحكيم وكتبنا بذلك مشروع خطاب وقعناه واستجاب إبراهيم نافع استجابة جميلة ، وبذلك كسب الأهرام، غالى شكرى.

فتوفيق الحكيم شخص عامر بالعواطف الرقيقة المهذبة ، روح خفيفة جدا، وصافية جدا، والجلوس معه متعة من متع الحياة الدنيا التى

---

[*] هى حصيلة حوار أجراء المؤلف مع الأستاذ نجيب محفوظ كمقدمة لكتاب "الملف الشخصى لتوفيق الحكيم" - دار المعارف.

لا يشبع منها، فهو محدث لبق وغني بالذكريات سواء ذكريات الصبا والطفولة مع والده أو والدته، أو ذكرياته مع أسرته، أو ذكرياته في القاهرة مع خطوات الفن الأولى، وذكريات أوروبا عن دراسته الرسمية للقانون، والدراسة الحقيقية للفن، ويتخلل ذلك دائما النكت اللطيفة والملاحظات الجميلة.

والغريب الذى يدلك على شخصية توفيق الحكيم ، هو الركن الخاص به في قهوة "بترو"، لأنه يجمع أناسا لا يمكن لإنسان أن يتعايش معهم دفعة واحدة، لأنهم مختلفون جدا، ما بين باشوات من أعماق العهد الماضي، وشباب عهد حديث لا يزال يبزغ، وناس في سني، وآخرين من عمره، وهؤلاء على قدر ما يختلفون مع بعضهم يلتقون في توفيق الحكيم على أحسن ونام، فهو يعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة، كأنه طبيب بشرى!

ثم إن هناك أشياء اشتهر بها توفيق الحكيم مثل بخله وعدائه للمرأة، وهذه أمور تستطيع أن تسميها شعارات وجد فيها الحكيم نوعا من الفن، وهو يتمسك بها على هذا الأساس، أما في الواقع، فهو لم يكن عدوا للمرأة بل كان من أكبر أنصارها ومحبيها، ثم وهو يظهر البخل في أشياء صغيرة، فإنها كانت دائما تثير فكاهة عميقة، وعندما تأتي لواقع الحياة تجد أنه أبعد ما يكون عن البخل، وأنا أذكر أنه قام بتزويج ابنتي زوجته (ناجا، ونورا) تماما مثل ابنته، وهذا شيء يندر أن يقوم به إنسان، ولو كان بخيلا لم يكن سيزوج حتى ابنته، وأذكر أنه في شارعنا كان يوجد رجل "بك" موظف كبير، وكان بخيلا إلى درجة أنه لم يكن يوافق على زواج ابنته، حتى هربت وتزوجت، وبذلك أعفى نفسه من أى التزامات بتجهيزها، أما توفيق الحكيم فقد كان كريما وأنا أعرف ظروفا فقد فيها ما يعتبر ثروة ضخمة عندما تضربها في أرقام اليوم، ولو كان في مكانه إنسان عادى لهده فقده لأموال ليس مسئولا عن ضياعها، ولكن توفيق الحكيم تقبل الأمر ببساطة وبفلسفة، ولذلك يندر أن أكون رأيت شخصية بكرم توفيق الحكيم، لأنه كرم يخفيه بعكس بعض الناس الذين يتظاهرون بالكرم، ويحبون أن يعرف الناس أنهم كرماء، يمكن لظروف الانتخابات والسياسة ، فينفقون أموالا كثيرة، وينجحون في إخفاء بخلهم وتقتيرهم، لكن الذى طبع على الكرم ويخفيه، هو كريم أصيل لأنه يعمل الكرم

للكرم، لا لكى تقول عليه أنه كريم، بل يتركك لتقول عليه أنه بخيل.
وهكذا كان توفيق الحكيم كريما، وكان أكرم ما يكون مع أسرته، مشغولا بأبنائه كأب، فخورا بالمرحوم - إسماعيل، ويريد أن يطمئن دائما على زينب ومستقبلها بل حتى على ابنتى زوجته، ولكنه كان كأديب مشغولا كثيراً بأدبه فيهيأ له أنه ظلم أسرته، وأن هذا الوقت الذى انشغل فيه بالأدب كان يجب أن يكون من حقهم، وهذا غير صحيح، لأن الحكيم رب الأسرة قد أعطاهم حقهم وأكثر. وكان عليه أن يعطى أدبه حقه أيضا، ولكنه كان يرى أن كل الوقت كان من المفروض أن يكون لأسرته، ولم يقل بهذا أحد، لأن أسرته لم تكن ستطيق تفرغه لهم.
وأرى أن أبناءنا نحن الأدباء يجب أن نتركهم لحريتهم إلى حد ما لكى تتكون شخصياتهم ويكبرون، لأن الحنان الزائد عن حده ينقلب إلى ضده، وشعور توفيق الحكيم بالتقصير تجاه أسرته كان شعورا مبالغا فيه كثيرا، والدليل على ذلك أن أفراد أسرته نجحوا فى حياتهم، وكان نجاحهم أساسه الحرية وعدم تدخله فى شئونهم بما يعيقهم عن نمو شخصياتهم واعتمادهم على ذواتهم، لكن الظروف التى - للأسف الشديد - أنهت حياة إسماعيل، هى ظروف خاصة يمكن أن يقع فيها أى شاب، وليس لها علاقة إطلاقاً بأن توفيق الحكيم لو تفرغ له وجلس معه أكثر لكان ذلك مؤجلا لنهايته المحتومة.
ولا ينبغى أن يكون السؤال ماذا يبقى من توفيق الحكيم؟ لأننى عندما أنظر إلى مؤلفاته العديدة يكون السؤال:
وما الذى لا يبقى منها؟ هذا هو السؤال المعقول، لأنها كلها مرشحة للبقاء، ولذلك فالفراغ الذى تركه توفيق الحكيم لم يسد، ولم يتعز عنه.
ولا يبقى إلا أن أشكر المؤلف إبراهيم عبدالعزيز الذى جدد ذكرى توفيق الحكيم، وجعلنى أعيش فى رحابه.

نجيب محفوظ
١٠/١١/١٩٩٠

الأستاذ الصديق

[*]"لولا نجيب محفوظ ما قامت للرواية العربية قائمة"

توفيق الحكيم

---

[*] روز اليوسف ١٩٨٤/٩/٢.

علاقة نجيب محفوظ بتوفيق الحكيم يمكن أن نعتبرها نوعاً من العلاقات الخاصة جداً فى حياة نجيب محفوظ فيما يتعلق بعلاقته بأدباء عصره، فقد أحب العقاد وطه حسين من بعيد وتأثر بهما من خلال كتبهما ولكن لم يحدث مثل هذا التلاقى الأدبى والروحى لنجيب محفوظ إلا مع توفيق الحكيم، لقد التقيا فى الأدب وفى الحياة، إلى الدرجة التى قال فيها نجيب محفوظ "ولم يفصلنى عنه بعد ذلك إلا الموت".

إذن فنحن أمام علاقة خاصة بين نجيب محفوظ الذى يعتبر نفسه تلميذاً مباشراً لتوفيق الحكيم فضلاً عن اتصالهما الذي لم ينقطع إلا برحيل الأول، لذلك فإن العلاقة هنا ليست من طرف واحد كعلاقة نجيب بطه حسين، أو بالعقاد، أو بيحيى حقى الذى يختلف عنه أن نجيب قد عرفه رئيساً له فى مصلحة الفنون لبضع سنوات، لذلك كانت علاقة نجيب بالحكيم علاقة متميزة يجدر بنا التعرف عليها كاملة من خلال الطرفين اللذين عرفتهما عن قرب، فضلاً عن الإلمام بحياتهما الشخصية عبر رحلة الصداقة التى استمرت لأكثر من أربعين سنة.

مقالتان مهمتان

عرف نجيب محفوظ، توفيق الحكيم عن طريق مقالتين:

واحدة لطه حسين والأخرى للعقاد، والاثنتان كانتا عن شيء جديد اسمه "أهل الكهف"، وكان نجيب محفوظ وقتها طالباً بكلية الآداب قسم الفلسفة جامعة القاهرة، وقرأ "أهل الكهف" فوجدها شيئاً جديداً ورائعاً بحيث اعتبرها بداية جديدة للفن الأدبى العربى، وكان تأثيرها عليه كبيراً خاصة فى نتيجتها الأساسية "الزمن" لذلك كانت "أهل الكهف" هى أحسن ما قرأ نجيب محفوظ للحكيم وإن كان يعتبر نفسه كأديب قد خرج من "عودة الروح" التى كونته أدبيا وكانت هى منطلقه فى حياته إلى عالم الأدب والرواية ، حيث كانت "عودة الروح" هى الرحم الذى ولد منه نجيب محفوظ ليعيش فى الحارة المصرية بجوها الشعبى الذى كان الحكيم أول من صورها، معبراً عن هذه الثورة أيضاً فى ثلاثيته الشهيرة، ولكن الفرق أن الحكيم جعل من الثورة ذروة "عودة الروح" أما نجيب محفوظ فقد اهتم بالنتائج، مثل الإلحاح على مشاكل الفقر فى الجماهير، وتصوير التيارات الفكرية الجديدة التى انتهت بالصراع بين الإخوان

المسلمين والشيوعيين، وبينما توفيق الحكيم ينهى التنازع بين الأفراد بالتوافق فى أحضان الثورة نجد أن نجيب محفوظ فى ثلاثيته يجعل التماسك يعقبه الخلاف، والإنحلال، وتدهور العمل السياسى نحو التفكك والفساد الذى ينتهى بالتبشير بمبادئ جديدة، ولا غرابة فى هذا فكل من توفيق الحكيم ونجيب محفوظ يمثلان جيلين مختلفين، أحدهما عاش انتفاضة ثورة ١٩ والآخر عاش انتكاساتها.

وبعد أن تعرف نجيب محفوظ على توفيق الحكيم من خلال مؤلفاته، كان من الطبيعى أن يحدث اللقاء المباشر بعد أن أخذ نجيب محفوظ يعرف طريقه إلى عالم الأدب.

فبعد أن صدرت "زقاق المدق" لنجيب محفوظ، وجه نظر الحكيم لقراءتها صديق قال له : اقرأ هذا الكتاب وستطمئن بعد قراءته على مستقبل الرواية فى مصر.

وقرأ الحكيم "زقاق المدق" وأعجب بها وتنبأ لصاحبها بشأن ممتاز، وهذا ما أثبتته الأيام، فقد أعجب الحكيم بنجيب محفوظ قبل أن يراه، ولذلك سعى للقائه والتعرف عليه، ولما عرف صديق لهما مشترك "هو محمد متولى" الذى كان مديراً للأوبرا برغبة الحكيم فى لقاء نجيب، ذهب إليه وقال له إن توفيق الحكيم يريد رؤيتك.

وكانت سعادة نجيب بالغة فقد اعتبر ذلك جائزة كبرى، وجاء اللقاء الأول فى قهوة "ريتز".. تقدم نجيب من الحكيم على خجل واستحياء وقدم نفسه: أنا نجيب محفوظ.

فقال الحكيم: هو انت نجيب؟ تعال داحنا غلبنا ندور عليك.. أهلا بك.. اتفضل أقعد.

وراح الحكيم يتأمل نجيب فى ملامحه وحديثه، فكان انطباعه عنه الذى لم يتغير بعد ذلك أبداً، أن نجيب كريم النفس، نقى، وقد كان من المعتاد أن الأديب يشعر بشيء لا أقول من الغرور ولكن بثقة فى النفس، ولكن نجيباً كان فى نظر الحكيم شيئا نادراً من البساطة والتواضع على الدوام، مما جعل الحكيم يقول عنه: أنه هو لا يوجد أحد غيره ليكون هو نجيب محفوظ، إنه شيء واحد "شخصيته وإبداعه" ، ولولا نجيب محفوظ ما قامت للرواية العربية قائمة.

ذلك هو رأى الحكيم فى نجيب محفوظ، ومنذ ذلك الحين اتصلت

علاقة الأديبين على المستوى الشخصى والإنسانى، وتواعدا على اللقاء بعد لقائهما الأول.

طرائف بيترو

كانت أهم اللقاءات تتم فى قهوة "بيترو" فى الإسكندرية حيث كان مجلس توفيق الحكيم، وأول يوم ذهب فيه نجيب إلى هناك استقبله الحكيم بلطفه المعهود ورأى بثاقب نظره أن يضيء له السبيل، فقال له : ممكن أطلب لك فنجان قهوة على حسابى وستضطر أن تطلب لى غداً فنجاناً على حسابك لذلك بدلاً من التعب فليدفع كل منا حسابه بنفسه.

فقال نجيب: إذا كان ما يمنعك هو خوفك من أن اضطر أن أطلب فنجان قهوة غداً فإنى أعدك ألا أطلبه ، وممكن تطلب لى الفنجان وأنت مرتاح.

ولكن الحكيم ضحك وقال لنجيب : وهل يعقل هذا وانت باين عليك طيب وابن حلال.. أطلب القهوة على حسابك أطلب.

وقد حدث ، ومن يومها ونجيب يدفع ثمن قهوته وطلبات ضيوفه، بل كذلك طلبات ضيوف الحكيم، وارتاح الحكيم لذلك وقرب نجيب إليه وغمره بعطفه، ولكن الحكيم فى نظر نجيب، كريم بخلاف المعروف والمشهور عنه.

حيل الحكيم

وقد شهدت جلسة "بيترو" الكثير من الطرائف والشخصيات الغريبة مثل نموذج لشخص ذى مركز مرموق.. ولكنه يهجم على كل من يخالفه فى الرأى بعنف حتى يقلبه رأساً على عقب، فكان الحكيم إذا زاره ضيف متكبر ومتعال، أثار موضوعاً للنقاش ليصطاد الشخص الثقيل الظل، حتى إذا أخذ يبدى رأيه "بالعنطزة" المتوقعة وثب عليه الشخص ذو المركز المرموق ووجه له النقد القاسى، وسرعان ما يترك الجلسة وينصرف.

وهناك شخص آخر كان "علامة" ولكنه يتصف بأمرين: أولهما أنه ساخط على الدنيا ومن فيها، فإذا أراد الحكيم أن ينال من شخص مدحه أمامه، فسرعان ما ينهال عليه قدحاً وذماً.. وثانيهما: أنه غاوى "سمك" ودائماً ما يفحص المعروض من الأسماك بيديه، ثم يقبل على

الجالسين برائحته ويصافحهم، ولذلك يزعم الحكيم أن يديه متعبتان بسبب "الروماتيزم" ويترك الجالسين وحدهم لمنحه السلام عليه.

وفى المقهى كان يجلس أستاذ ذو صوت رنان.. إذا تكلم أسمع محل "بيترو" كله، وخجل الحكيم من لفت نظره، فادعى أن خطاباً وصله من "مجهول" من جلساء المقهى يشكو من الصوت المرتفع، وعرض الحكيم الخطاب على هذا الأستاذ صاحب الصوت الرنان فثار وراح يتهم أغلبية الجالسين بأن أصواتهم لا تحتمل، فقد شك فى الجميع إلا نفسه، وهو المقصود، وكلما جاء جليس قرأ له الخطاب بصوت يرن فى المقهى من أوله لآخره.

وكانت ندوة الحكيم فى "بيترو" هى ملتقى كل من يريد أن يلتقى بالحكيم أو نجيب وغيرهما من الأدباء المترددين على هذه الندوة، وعادة ما تكون الصحافة هناك لتنقل صوراً مختلفة مما يحدث فى هذه الندوة الصيفية، وغالبا ما يكون نجيب مستمعاً أكثر منه متكلماً، وفى المرات القليلة التى كان يتكلم فيها كان يُطلب منه أن يتكلم وكان كلامه غالباً ما يتفق فيه ورأى الحكيم إلا رأيه فى المرأة وعلاقته بها، ففى خلال مناقشة بين بعض الفتيات وبين الحكيم ردد فيها رأيه عن عدم ارتياحه لدور المرأة، وعداوته لتصرفاتها التى تقلد بها الرجل محاولة أن تتسلخ من جنسها، مؤكدا رأيه القديم فى وظيفة المرأة كربة بيت، ومنظمة لميزانيته، ومنشئة للأجيال الجديدة، ولأنه توفيق الحكيم فلم يكن يخلو حديثه مما يثير التعليقات وردود الأفعال، فقد قال: إن ارتباط الرجل بالمرأة شر لابد منه، لقد أصاب وجود المرأة حياة الرجل بالتعب، إن المرأة مخلوق تافه خلق من ضلع تافه للرجل ورغم ذلك فقد سيطرت على الرجل.

وفى الوقت الذى انطلق فيه توفيق الحكيم مقهقها وقد استند على عصاه الشهيرة لاحظ بعض المراقبين لانفعالات نجيب محفوظ علامات الدهشة على وجهه دون أن يخرج عن صمته إلا بابتسامة استفزت إحدى الفتيات لتسأله أن يبدى رأيه، فقال: أنا موافق على كل اللى قاله أستاذنا الحكيم موافق عليه كله لكن مسألة إن المرأة مخلوق تافه لى فيها رأى أنا مختلف فيه معاك يا أستاذنا اسمح لى أصلها لو كانت مخلوقا تافها كان يبقى الرجل مخلوقا تافها أيضا.

ولا يصدق نجيب محفوظ حكاية عداوة الحكيم للمرأة ولا يأخذها إلا على أنها دعابة من دعابات الأستاذ الكبير.

ولأن قهوة "بيترو" كانت الملتقى الصيفى للحكيم، ونجيب مكتشفها، وصاحب اقتراح الالتقاء فيها، فقد كان يوم إغلاقها يوما محزنا رغم أن إغلاقها كان متوقعا لارتباط ذلك بمصير صاحبها "بيترو" الذى كان قد جاوز المائة من عمره حين رحل ومات، فأغلق المحل ثم هدم لإقامة عمارة ضخمة فى موقعه، ولكن ذلك لم يمنع من استئناف ندوة الحكيم فى قهوة أخرى هى "الشانزليزيه" فى الإسكندرية أيضا، وإن كانت "الأهرام" - الصحيفة - قد جعلت الحكيم ونجيب أكثر قربا من بعضهما حيث تتجاور حجرتيهما ، فكانت ندوة "الخميس" التى يتحلق حولها الأدباء والصحفيون، وكثيرا ما رأيت نجيب وقد جلس إلى الحكيم دون أن يكون أحد معهما قبل أن تبدأ الندوة ، يتحادثان همسا فيما لا يعلمه ثالث غير الله.

ولم يعد الصديقان يفترقان سواء فى القاهرة أو الإسكندرية، وطوال هذه المدة كما يقول نجيب محفوظ : عرفت الحكيم إنساناً متواضعاً دمث الخلق بارع الحديث.

هذا السر

وكما لم يصدق نجيب إشاعة عداوة الحكيم للمرأة سوى أنها مجرد دعابة وبراعة حديث، فإنه لم يصدق كذلك مسألة بخله الشهير لأنه عرفه كريماً معه، رغم أن الحكيم كثيرا ما يورط نجيب فى دفع الحساب لبوفيه الأهرام، فهو يتناسى حساب ندوة الخميس ويصعب على نجيب منظر ساعى البوفيه وهو يسأله: حساب توفيق بيه يا نجيب بيه، مما يضطر نجيب أن يغطى الحكيم فيدفع عنه الحساب، فأين إذن كرم الحكيم الذى لمسه نجيب؟

إننا هنا نذيع سرا لأول مرة ، لقد عزم توفيق الحكيم صديقه نجيب محفوظ على طعام الغداء على مائدة منزله "بجاردن سيتى" على نيل القاهرة، وإذا كان هذا الكرم الحكيمى مع نجيب محفوظ قد ظل سرا حتى ننشره الآن، فهناك نوع أخر من الكرم المعلن على رؤوس الإشهاد حينما احتفلت "الأهرام" بالعيد الخمسين لميلاد نجيب محفوظ، ونشرت مانشيتاً بعنوان "معجزة توفيق الحكيم مع نجيب محفوظ".. والتفاصيل:

كان المدعوون ٢٠٠ شخص، وفجأة حملقت ٤٠٠ عين منها ٣٩٨ عيناً إلى توفيق الحكيم، إلى ذراعه، وهى تمتد ليدسها فى جيب سترته الداخلى، وعينا توفيق الحكيم تحملقان وراءها فى اللفة الصغيرة جداً التى أخرجتها أنامله من جيبه، ويحلها وينفض ورقتها، فإذا بصينية ميكروسكوبية من الفضة يناولها إلى نجيب وكلماته تختلط بابتسامة ليقول للجميع ملوحاً بالصينية فى الهواء حتى يتمكنوا من رؤيتها : هذا من حر مالى.. والله.. مش كده ولا إيه؟ أى والله من حر مالى صحيح. ويحتفظ نجيب محفوظ بالهدية الحكيمية وهو لا يكاد يصدق عينيه، ثم تابع الحكيم قوله: بأن أدب نجيب محفوظ معجزة لا تتكرر لأنه استطاع أن ينتزع منه هذه الهدية.

ولم ينس نجيب محفوظ أن يشكر الحكيم على المعجزة التى وقعت فعلا وأكد ثقته من أن هذه المعجزة لن تتكرر لأن توفيق الحكيم الفنان العظيم لا يكرر نفسه أبداً.

وإلى جانب الركن الخاص الذى تحتله كتب توفيق الحكيم فى مكتبة بيت نجيب محفوظ في الحجرة الثالثة، حجرة الطعام التى تشغل مكتبة نجيب حيزاً منها وأمامها مكتب بسيط، وضع نجيب الصينية الفضية هدية الحكيم إليه، فى الدولاب الزجاجى الكائن فى مدخل شقته، وبه الأوسمة والنياشين التى حصل عليها نجيب، تتصدره الصينية التى نقشت عليها عبارة "إلى عملاق الرواية العربية نجيب محفوظ مع الحب والإعجاب - والتوقيع - توفيق الحكيم".

وإلى جوار الهدية الأولى وضع نجيب الهدية الجديدة التى أهداها له الحكيم بمناسبة احتفال أدباء مصر بالعيد السبعينى لنجيب محفوظ، والهدية عبارة عن "قلمين" ، ولم يكن كرم الحكيم مع نجيب مجرد تعبير عن حب صديق لصديقه بل كان اعتراف أستاذ يقدر الرجال ومواهبهم ، فقد كان يعتبر نجيب محفوظ هو "كولومبس" الرواية العربية الذى قادها إلى بر الأمان.

دفاع عن أفكار الحكيم

وبقدر فهم الأستاذ لموهبة تلميذه وتقديره لها، كان فهم التلميذ لمواقف أستاذه وتقديره لها ودفاعه عنها، وتحمله فى بعض الأحيان لنتائجها.

فعندما كتب توفيق الحكيم بيان الأدباء الشهير تعبيرا عن حالة التململ من وضع اللاسلم واللاحرب قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣، كان نجيب محفوظ ثانى الموقعين بعد الحكيم على ذلك البيان، وما كان لذلك من نتائج غضب السلطة التى أصدرت أوامرها بالتعتيم الإعلامى عليهما، وعلى غيرهما ممن وقعوا البيان، فلا ينشر لهما أو عنهما شيء. ثم جاءت ظروف وملابسات جعلت الحكيم يدعو إلى "حياد مصر" مما جعل بعض الكتاب يهاجمه ويطالبه بأن يبقى فى إطاره وملعبه كفنان ولا شان له بالسياسة، وكان من أبرز المنتقدين للحكيم، أحمد بهاء الدين، ولكن نجيب محفوظ تصدى يدافع عن الحكيم بنبرة عالية على غير عادة الهدوء الذى تعودناه منه فقال:

أنا أخالف الأستاذ أحمد بهاء الدين الرأى وأتساءل بأى حق يحجر على أحد ويحدد له العمل الذى يؤديه.

وعندما يطرح توفيق الحكيم فكرته فى مسرحية "الطعام لكل فم" بأنه لا قيمة لتحطيم الذرة عند الناس إذا لم تؤد إلى تحطيم الجوع. ويشرح دعوته قائلا : أن الفن يقول فكرة والسياسة تطرحه، فالعلم أساس كل شيء فى هذا العصر.. ويا حبذا لو اتجهنا إلى تطوير التكنولوجيا المصرية حتى لا تصبح فى موقف من يعتمد على دولة معينة، وهنا أذكر تجربة شخصية، فأنا أعانى من مرض جلدى مزمن وقد جربت أدوية أجنبية كثيرة ولكن الدواء الذى أفادنى حقيقة هو "الودرم" الذى استخلصه الدكتور "الظواهرى" من نبات الصبار الذى يملأ صحراءنا، فهذا مثل صغير لما يجب أن تكون عليه القضية.

وعندما يخوض الحكيم تجربة فنية جديدة بمسرحية "ياطالع الشجرة" أسماها مسرح اللا واقعية الشعبية الفكرية، أو ما اشتهر بعد ذلك على لسان النقاد بأنه "مسرح العبث" يوضح نجيب محفوظ موقفه فيقول:

بعض النقاد حاولوا تفسير مسرحية "يا طالع الشجرة" على أساس أنها عبثية، ولكن هذه المسرحية لا يمكن أن تنتمى إلى مسرح العبث، إنها بما فيها من أفكار جديدة وبحث فلسفى تنتمى إلى مسرح الطليعة.

ولأن الحكيم كان دائماً صاحب الأشكال والتجارب الجديدة فقد أراد أن يطبق منهج الحوار فى سلسلة مقالات اسماها "حديث مع الله" وفى الوقت الذى هاجت فيه الأقلام وماجت تهاجم الحكيم، كان نجيب

محفوظ أكثر الناس وعياً وفهماً وتقديراً لما كتبه الحكيم، وكان رأيه أن الذين هاجموه نظروا إلى الشكل فقط دون أن ينظروا إلى المضمون.

ويرى نجيب محفوظ أن توفيق الحكيم هو عبد الوهاب الأدب فالاثنان يتأثران بالتجارب العالمية، والاثنان يتميزان باللمعان والذكاء، فضلا عن الأصالة المصرية لكل منهما، فى ألحان عبد الوهاب مصر هى التى تغنى، وفى كتب الحكيم مصر تتحدث عن نفسها.

وعندما طالب البعض توفيق الحكيم أن يصمت ولا يتكلم إلا عندما يكون لديه ما يقوله، كان موقف نجيب محفوظ أن الحكيم لا يزال قادراً على التدفق والعطاء.

وكما كان الحكيم ونجيب متفاهمين فكرياً كانا يتعاونان دائماً من أجل حرية الفكر، فقد اشترك الأديبان الكبيران فى كتابة رسالة وقعاها بإمضائهما يطالبان فيها إبراهيم نافع نقيب الصحفيين فى ذلك الوقت بعودة الناقد د. غالى شكرى والذى هاجر إلى باريس بعد إبعاده ضمن من أبعدوا من الكتاب خلال صراعهم مع السلطة فى السبعينيات، وقد نجحت بالفعل مساعى الحكيم ونجيب فى إعادة غالى شكرى إلى الوطن الأم، لقد كان الصديقان يتعاونان دائماً فيما يعتقدان أنه خير انطلاقاً من مواقف يؤمنان بها ومبادئ يصدران عنها تجاه الآخرين أو تجاه كل منهما نحو الآخر، ففى خلال فترة مرض الحكيم كان نجيب محفوظ هو أكثر الزائرين له اطمئناناً عليه ووفاء له بعد أن انفض عنه المتسلقون حين غابت شمسه أو أوشكت على المغيب، وكذلك كان الحكيم يقول عن نجيب: أنه من أحسن الناس الذين أحبهم أخلاقاً.

وكان لقاؤهما الأخير فى مرض الحكيم الأخير، حين دخل عليه نجيب وسلم عليه ، فقال له توفيق الحكيم: انت مين؟

وعند ذلك شعر نجيب بحزن عظيم وخرج مكتئباً مردداً بينه وبين نفسه: اللهم أحسن الختام.

ثم دمعت عيناى

وكان نجيب محفوظ من أشد المحزونين على فراق الحكيم، وكتب يومها يقول: ليست كلمة رثاء فالرثاء للموتى، والحكيم قد يختفى من حياتنا الظامئة لحضوره ولكنه يبقى حيا فى أرواحنا وعقولنا وقلوبنا إلى ما شاء الله.

وقبل أن يرحل الحكيم كـان قد سلم رايـة الأدب الروائـى ، منذ وقت طويل لنجيب محفوظ الـذى اعتبره خليفتـه فـى هذا المجـال، وأهم وأول الروائيين بلا نقاش.

وكذلك كـان نجيـب محفوظ هـو أهمهـم حينمـا فـاز كـأول أديـب عربى بجائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٨.

ويقسم نجيب محفوظ: حين جاءونى بالخبر تذكرت والله العظيـم توفيق الحكيم ثم دمعت عيناى.

لقد كان نجيب يرى أن الحكيـم هـو أحـق بالجـائزة، ولكـن القـدر كان أسبق برحيل الحكيم وأسبق بحصـول نجيب على جائزة نوبل.

ولكن ماذا كان يمكن أن يكـون عليـه الموقـف لـو حصـل نجيـب على الجائزة فى وجود توفيق الحكيم؟

يقول نجيب: ماذا كنت أتصور موقفى أنا وليس موقفـه هـو، هـو يعلم به الله، أما أنا فكانت حـالتى ستكون زفتـا وقطرانـا علـىّ.. للعلاقـة الشـخصية والعلاقـة العامـة ولرأيـي وتقديـرى، هـل آخـذ الجـائزة وكـأنى سرقتها؟ كان الوضع سيكون سيئاً جداً.. لو حدث ذلـك لهربـت مـن البلـد بالفعل.

وقد تـأثرت السـيدة.. زينـب ابنـة توفيـق الحكيـم بمشـاعر نجيـب محفوظ تجاه والدها وحملتنى رسالة شفوية إليه عندما علمت أننـى ذاهـب لإجراء حوار معه.

تقول زينب فى رسالتها إلى نجيب محفوظ: لقد شعرت يـا أسـتاذ نجيب عندما أخذت جائزة نوبل كأن أبى توفيق الحكيم هـو الـذى أخذهـا، وشعورك الكريم نحوه حينمـا تذكرتـه ضمـن مـن تذكرتهـم، طـه حسـين، والعقاد، يدل على وفاء قل أن يوجد ولذلك كـان شـعورى بـالفرح العظيـم أنك أنت الذى حصلت على الجائزة وليس أى أحد آخر.

وكان رد نجيـب علـى هذه التحيـة: الواقـع الـذى لاشـك فيـه أنـه مادامت الظروف قد أتت بهذه الجائزة لتلميذ فهذا اعتـراف ضمنـى بـأن أستاذه قد أخذها عن طريق الاستحقاق إن لم يكن عن طريق الفعل.

زارعنا جميعاً

ولمـا كـانت حجـرة مكتـب نجيـب محفـوظ تضيـق عـن اسـتقبال الإعلاميين الذين لم يستطع منهم فـراراً بعد نوبـل فقد فتحـت لـه حجـرة

مكتب توفيق الحكيم ليستقبل فيها ضيوفه، وقد اعتذر نجيب محفوظ عن الجلوس على مكتب الحكيم واختار مقعدا يجلس عليه لإجراء المقابلات الصحفية، لقد تهيب الرجل صاحب الوفاء العظيم من أن يجلس على مكتب أستاذه وصديقه توفيق الحكيم والذى يتذكر له حكاية كان قد رواها له، فقد رأى الحكيم الأخوين مصطفى عبد الرازق، وعلى عبد الرازق صاحب كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، يتقدمهما أخوهما الفلاح المزارع على مالهما من علم وفضل، وشعر الحكيم باحترام عظيم لهذه الأسرة، وعندما يتذكر نجيب هذه الحكاية يرى أنه يجب عليه ألا يتقدم أستاذه توفيق الحكيم أو أن يجلس حتى على مقعده، فقد احترم نجيب مع الحكيم أسرة آل عبد الرازق التى قدم اثنان من علمائها شقيقهما المزارع على نفسيهما تقديراً لجهده وتضحيته، ويعلق نجيب وقد رفض الجلوس على مكتب توفيق الحكيم: فما بالك والحكيم هو زارعنا جميعاً.

العقاد هو الحرية

"أحببت العقاد حبا يفوق كل وصف"

نجيب محفوظ

أساتذتى[*]

لا أعرف على وجه التحديد متى وأين وكيف عرفت العقاد، ولكنى أظن أننى عرفته ككاتب "الوفد" السياسى الأول منذ أن بدأت أتابع الجرائد منذ ١٩٢٦، وأتذكر أننى قرأت إعلانا عن طبع "الديوان" للعقاد، فسألت - أظن - والدى وكانت له معرفة بالأمور العامة ومتابعا للصحف: هل العقاد صاحب "الديوان" هو العقاد الذى نقرأ له مقالات سياسية؟

فأجابنى أنه هو نفسه العقاد.

فاشتريت "الديوان" وأعجبنى شعر العقاد وجذبنى، فقد كنت متابعا للحركة الشعرية من باب الثقافة لأننى من قراء الشعر العربى، وقد قرأت لكبار الشعراء فى المختارات التى كانت تصدر، وتضم مجموعات منهم، لم أقرأ دواوين كاملة لهم، وإنما عرفت من هذه المختارات: المتنبى، وأبو العلاء، وأبو نِواس، والبحترى ، كما عرفت من خلال قراءاتى لـ "الأغانى للأصفهانى"، و"الكامل" للمبرد، كثيرا من شعراء الأمويين والجاهليين، وهذه الأسماء التى ذكرتها من الصعب المفاضلة بينها، ولكن المتنبى وأبو نواس لهما شاعرية خاصة، وقليلا ما كنت أحفظ ما أقرأ من الشعر، ولكن ما يعجبنى كنت أسجله. وقد جربت كتابة الشعر العاطفى، شعر المراهقين. وقد جعلنى اهتمامى بالشعر أتابع العقاد بعد أن جذبنى إليه فى "الديوان" فقرأت كل أشعاره التى كانت تأخذ اتجاها عقليا مما اعتبرته من خط "المعرى" ، وبدأت أتعرف دور العقاد فى حركة الشعر كواحد من "مدرسة الديوان" التى تضم شكرى والمازنى والعقاد ، وتابعت الخصومة الشعرية بين العقاد وأحمد شوقى. وكنت

---

[*] هذه المقدمة أملاها نجيب محفوظ للمؤلف ووقعها فى ٢٠٠٠/٣/١١.

"عقاديا" فى هذه المتابعة فقد جاء العقاد ثورة علـى الكلاسيكية التى كـان أحمد شوقى أمير الشعراء ممثلها ورمزها الأول، لأنك عندمـا تحـاول أن تهدم الهرم الأكبر فإنك تكون حينذاك قد استغنيت عن هدم الأهرامـات الأصغر، ومن يريد أن يأتى بمدرسة جديدة فى الشعر كالعقاد لابد لـه أن يهاجم هذه القمة المتمثلة فى أمير الشعراء، وإلا ستكون دعوته بلا معنى، فإن استطاع أن يستخرج المآخذ والعيوب من شوقى فيكون بذلك قد استغنى عن هدم بقية أصحاب المدرسة القديمة، ومع ذلك فإن العقـاد فـى كتاب له عن الشعراء - لا أتذكر اسمه بالضبط - كان منصفا وموضوعيا لدرجة كبيرة لشوقى وأعطاه حقه فى مجاله، لقد كان العقاد أكبر مؤسس لتطور حركة الشعر، وخرجت منه مدرسة "أبوللو" وغيرها، ولكن عندمـا جاءت المدرسة التى خرجت على القافية ورضيت بالتفعيلة ، اعتبر هذا ليس شعرا واتخذ منه موقفا معاديا كمسئول عن لجنة الشعر فى المجلس الأعلى للفنون والثقافة، حين كـان يحـول مـا يأتيـه مـن نصـوص الشـعر الحديث إلى لجنـة النـثر، لعدم إيمانـه بهذا الشـعر وشعرانه، وكـان مـن الغريب أن يبدأ العقاد حياته الأدبية مجددا فى الشعر ثم ينتهى وهو ضد التجديد.

ولكننى عن نفسى قبلت الشـعر الجديـد لأننـى أصغـر مـن العقـاد وأكثر مرونة، لأن العقاد صاحب مدرسـة فـى الشـعر، فمـن الطبيعـى أن يكون من الصعب عليه أن يتحول إلى مدرسة أخرى.

والعقاد شاعر كبير لا شك فى ذلك ، ولسـت وحـدى الـذى يـرى العقاد شاعرا كبيرا، بل إن طه حسين بايع العقاد أمـيرا للشـعراء، وكنـت شاهدا على هذه المبايعة فى "حديقة الأزبكية"، وسـمعت طـه حسـين وهو يتحدث عن العقاد بكلام جميل جدا. جـدا، ثـم قـال: إن النـاس يقولـون إن إمارة الشعر خالية بوفاة شوقى ، ولكن العقاد يملؤها بكل جدارة. غير أن طه حسين قد عاد بعد ذلك فتراجع عما قاله(*).

(*) أعلن طه حسـين عـام ١٩٣٤ - أى بعد وفـاة شـوقى بعـامين - مبايعتـه إمـارة الشعر للعقاد.

وكان قبل هذا قد قال:

إن إمارة الشعر معقود لواؤها لشعراء العراق.

وبلغت هذه الآراء لشكرى أحد مؤسسـى "مدرسـة الديـوان" الشـعرية، فعجب أن يشارك طه حسين فى هذه المعارك التى تدور حول إمـارة الشعر، وأن

وليست هذه هى الواقعة الوحيدة، فقد قال عن العبقريات ، إنه لـم يفهمها ، وكان ذلك بعد وفاة العقاد. ويبدو أن كثيرين كانوا يسالمونه فـى حياته خوفا منه، لذلك كانوا يكتبون شيئا غير ما يضمرونه ولا يعلنونه.

أما بالنسبة للعقاد فقد وقف مؤيدا لطـه حسـين فـى أزمـة "الشـعر الجاهلى" وأزمة طرده من الجامعة وكتب عن "دعاء الكروان" لطه حسين نقداً من أجمل ما يكون، وقليلا ما كان يكتب بهذا الحماس وهذا الجمال.

جانب آخر من إبداعات العقاد هو الكتابة السياسـية ، فقد اشـتغل بالسياسة وكتب فيها، وكان اشتغال الأدباء بالسياسة واجبـا لابـد منـه فـى الحركة السياسية، ولو لم يقوموا به لكان ذلك عيبا كبيرا جـدا، لأنـه ليـس من المعقول أن ينشغلوا بأدبهم عن القضية الوطنية ، وينسون بلدهم وهى تجاهد ضد الاحتلال، والشباب يموت وينفى .. إلخ.

ولم يكن لانشغال الأدباء بالسياسة أثر سلبى على أدبهم. لأنه كان من الضرورى أن يقوموا بعمل آخر، فلو لم يكن العقاد مثلا كاتبا سياسـيا لكان صحفيا من أجل لقمة العيش، إذن لابـد مـن عمـل، فـلا يوجـد أديـب متفرغ للأدب لأنهم جميعـا كـانوا محتـاجين للوظيفـة ، فطـه حسـين كـان أستاذا بالجامعة ، والمازنـى صحفيـا، وشـكرى مدرسـا، والعقـاد صحفيـا، وهكذا فلم يوجد أديب غير محتاج للوظيفـة سـوى محمـود تيمـور، ولكـن يجب أن نفرق بين الاشتغال بالسياسة والعمل من أجل الوظيفة، فالوظيفـة وراءها الحاجـة الماديـة، والسياسـة وراءهـا دافـع وطنـى، حتـى لـو كـان هؤلاء الأدباء ينتمون لأحزاب مختلفة ينضوون تحت لوائها ويكتبون مـن خلال صحفها ، فهذا ليس عيبا طالما أنهم مقتنعـون بانتمـاءاتهم ، فالعقـاد مع حزب الشعب - حزب الوفد - وكل الشعب كان مع سعد زغلول، أمـا

تصـدر هـذه الآراء عـن أديـب عربـى مثـل طـه حسين، بالإضافـة إلـى أنـه ليـس بالشاعر، وليس له مواقف شعرية مشهورة ، فكتب طه حسين إلى شكرى يقول:=

=قل لشكرى وقد غلا وتمادى

بعد هذا فقد بلغت المراد

إن تكن مكثرا فرب مقـــل

حـاول الشعر مرة فأجاد

وما لبث طه حسين أن عاد فأعلن بعد ذلك فقال:

أحب أن أؤكد أننى لم أبايع العقاد إمارة الشـعر، ومـا كـان لـى أن أبايعـه لأننى لم أكن شاعرا!! .

طه حسين فكان مع حزب الأحرار الدستوريين لفضلهم عليه في البعثة، بعكس ما كان منتظرا من طه حسين حيث أن طبقته وسلوكه وأفكاره كلها كانت ترشحه لأن يكون وفديا، وقد حدث ذلك متأخرا بعد أن جاءه الغدر من الباشوات الذين خدمهم، فهم الذين أقالوه من الجامعة أيام إسماعيل باشا صدقى، مما عرض طه حسين لأزمة شديدة لقلة المعاش بسبب قلة مدة الخدمة. وكان طه حسين مضطرا لمستوى معيشة معين بسبب زواجه من سيدة فرنسية ، وأظن أن النقراشى استأذن النحاس وذهب لمقابلة طه حسين وعرضوا عليه أن يكتب فى صحفهم لكى يستطيع أن يتجاوز الأزمة، ولكن طه حسين كان كريما فاشترط عليهم أنه لن يكتب لمهاجمة "الأحرار الدستوريين".

وفى الوقت الذى انضم فيه طه حسين كاتبا فى "الوفد" خرج العقاد غاضبا من "الوفد" بعد أن اختلف معه وهو كاتبه الأول، وكانت المشكلة التى أقام عليها العقاد نظريته هى : صحيح أنه كاتب وفدى، ولكن رأيه فى هذه المسألة(*) غير رأى "الوفد"، وهو يرى أنه فى ذلك حر فى رأيه، لكن النحاس رئيس "الوفد" رأى أن الكاتب الحزبى قد يختلف مع الحزب وله أن يعبر عن اختلافه فى الجلسات المغلقة كيفما شاء ولكن إذا كتب فى جريدة الحزب وهو حزبى، فإنه يجب أن يلتزم برأى الحزب أو يترك الموضوع الذى له رأى يختلف فيه مع رأى الحزب، ولكن أن يكتب فى جريدة حزبه متحديا حزبه، إذن فلا يوجد التزام حزبى، من أجل هذا دفع العقاد كبرياؤه وغضبه لأن يخرج على الحزب الذى وهبه حياته كلها وقلمه، ووجد نفسه مضطرا لكتابة قصائد فى مدح الملك وما شابه ذلك.

ولكن تحدى العقاد وكبرياؤه أخفيا عنا الكثير من شخصيته الحقيقية.

(*) رفض العقاد أن يتخذ موقف الوفد تأييداً لوزارة نسيم باشا التى أتت لإعادة دستور ٢٣ ولكن العقاد رأى أنها تحيد عن هدفها فعاتبه النحاس باشا عتابا قاسيا قائلا له: أنا زعيم الأمة أؤيد الوزارة فما عساك تصنع يا عباس يا عقاد ؟ فرد العقاد ردا أقسى حين قال له : أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك (مشيرا إلى بضعة أشخاص من أعضاء الوفد) ولكنى كاتب الشرق بالحق الإلهى.

النحاس: إن الوزارة باقية مادام الوفد يؤيدها ويضع ثقته فيها.

العقاد: لن تنته برية هذا القلم إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة (وأخرج قلما صغيرا من جيبه) . وحدث الفراق بين العقاد والوفد.

إن من عاشروه معاشرة شخصية يقولون إنه أظرف من المعروف عنه ، وفيما يبدو أنه كان يمسك العصا كدفاع عن النفس، والسياسة كانت تقتضى مثل هذا العنف، وأيامها كانت توجد جمعية "الكف السوداء" التى تقوم بحركة اغتيالات ، وكان هناك ناس "يقتلون وآخرون ينفون، فكان العقاد عنيفا، ومن يخالفه فى الرأى كان يرد عليه بعنف، ويبدو أن هذا كان طابع العصر، فلم يكن هناك مجال للكتابة الهادئة الموضوعية فى بلد ثائر دموى، وهذه السمات قد انتقلت للأقلام ، فطبيعة العصر قد طبعت القلم نفسه ، وكان العقاد ذا قلم قوى، ويا ويل من يتعرض له.

ومع ذلك فقد حدث أن تعرضت للعقاد ذات مرة - رغم حبى له، فقد وجدته قد ظلم الرواية حين قال : إن الرواية ليست فنا كالشعر، أى أنها ليست فى منزلة الشعر، فرددت عليه بأدب: إن الرواية الجيدة مثل الشعر الجيد، وكما توجد الرواية الرديئة يوجد الشعر الردئ أيضا، والحقيقة أن العقاد لم يرد لأننى تكلمت بموضوعية شديدة ، وبأدب شديد، دون استفزاز أو هجوم ، وهذا ما كان يدعوه للرد بعنف.

والحقيقة أيضا أن العقاد أنصفنى حين تقدمت لمسابقة مجمع اللغة العربية ضمن من تقدموا بقصصهم ، ولكنهم اختلفوا فيها، وكان المازنى فى لجنة التحكيم وكان يريد إنصافي، وبالمصادفة كان العقاد يمر على المازنى لكى يرجعا سويا، فوجد خناقة، فقالوا له تعال لتكون أنت الحكم مادمت قد حضرت ، فنحن مختلفون بين نجيب محفوظ، وسعيد العريان، وهذه رواياتهما، وكانت جماعة التقليديين والأزهريين يريدون إعطاء الجائزة لمحمد سعيد العريان ، والمازنى يريد إعطاء الجائزة لى، فلما قرأ العقاد لكل منا قال: إنه لا يوجد وجه للمقارنة بيننا، وانتهى الخلاف إلى إعطائنا الجائزة مناصفة، وكان سعيد العريان يقول دائما - مفتخرا - إنه أضاع عليَّ الجائزة.

وكانت الأعمال التى تقدمت بها لنيل جائزة المجمع هى: "القاهرة الجديدة"، و"خان الخليلى"، و"زقاق المدق"، فالعمل الأول أزعج العمائم لوجود ثائر على المجتمع فى "القاهرة الجديدة"، وقالوا: ما هذا لقد خرب الدنيا، وهكذا قالوا عن "زقاق المدق" التى كانت تعرية للمجتمع، وهم طبعا من الجماعة التقليديين الأخلاقيين الذين يراعون مثل هذه الأمور،

فقال المازنى: إن "زقاق المدق" هى التى تستحق، فلنعط الجائزة لـ "خان الخليلى" كأننا نعطيها للشخص، ومن هنا اختلفوا حتى دخل العقاد واتخذ موقفه الذى أنصفنى فيه.

وكان المازنى هو أول من نبهنى للابتعاد عن هذا الاتجاه، فقد بصرنى بمخاطر الواقعية ، ومع ذلك كان منصفا لى ومتحيزا لرواياتى.

خلاصة القول أن العقاد كان شخصية فريدة وكانت لديه من الشجاعة لأن يعلن رأيه مهما كلفه ذلك من مخاطر، وقد عرفنا كيف تصدى لتحطيم أكبر رأس فى البلد(*) متعرضا بذلك للملك فؤاد ودفع ثمن ذلك تسعة أشهر فى السجن، وليس صحيحا أن العقاد التزم الصمت بعد الثورة ، بل يقال إن العقاد فى بيته كان "يطول لسانه" وكان ذلك يصلهم ، لكنهم طبعا كانوا يعرفون للعقاد مكانته فيتغاضون عن آرائه المضادة، أما لماذا لم يكتب العقاد هذه الآراء؟ فلأنه لم تكن هناك جريدة يمكن أن تنشر له رأيا مخالفا للثورة، فهذه لا تؤخذ عليه لأن هذا هو واقع الحال القائم آنذاك، فضلا عن عوامل الشيخوخة، وكل واحد فى أواخر أيامه يريد أن يرتاح لا أن يقضى أيامه الباقية فى السجون والمعتقلات.

لقد أحببت فى العقاد فكره وموقفه عموما وموسوعيته وكبرياءه ، وكرهت فيه استسلامه للغضب أكثر من اللازم.

إننى أترحم على العقاد وأتذكر الأيام الجميلة التى كنت أنتظر فيها كتابا للعقاد الذى يبقى منه اليوم: شعره وتراجمه وروايته "سارة"، وأتمنى لو كنت أقرأ كما كنت أفعل قبل ضعف بصرى لراجعت قراءة شعر العقاد، وقراءة كتابه عن "سعد زغلول".

لقد كنت أفضل أن أقرأ العقاد لا أن أسمعه، فصوته ليس جميلا، ثم إنه رجل عقلانى تتعب من متابعته، بعكس طه حسين الذى كان رجلا

(*) فى البرلمان أعلن العقاد "أن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدى عليه، وكان الملك فؤاد بالطبع هو المقصود باعتباره أكبر رأس فى البلاد، وتربصت حاشيته بالعقاد وجمعت مقالاته =وتصيدته منها ودبرت له تهمة العيب فى الذات الملكية التى سجن بسببها تسعة أشهر أثرت على صحته وجعلته يرتدى الكوفية الشهيرة ولكنها أبدا لم تؤثر على صلابته وعناده فخرج منشدا:

لبثت جنين السجن تسعة أشهر

وها أنذا فى ساحة الخلد أولد.

موسيقيا سهلا. لقد تربيت على كتب العقاد، كشاعر وكناقد فهو صاحب نقد قوى وليس تأثريا أو وجدانيا ولكنه يقدم لك الدليل العقلى على ما يقوله نقدا لكاتب أو شاعر أو أديب، كما أعجبنى ككاتب سياسى، وككاتب للتراجم والإسلاميات، وقد قرأته فى كل هذه الألوان ، وكنت معجبا بالمنطق والعقل والدقة التى اتبعها العقاد فى كتاباته، وأعتبر كتابه عن "سعد زغلول سيرة وتحية" تحفة من التحف.

وإذا كان بعض النقاد يأخذ على العقاد أنه كان يأخذ موقف المدافع عن الشخصية التى يكتب عنها ويحشد لها كل الأدلة التى تجعلها شخصية مثالية، إلا أننى أرى أن أى شخصية يدافع عنها العقاد لا يدافع عنها إلا بعد أن يدرس حياتها وتاريخها دراسة دقيقة ، فالفكرة لم يأت بها العقاد من بيته، أقصد أن العقاد لم يأت مثلا بفكرة مسبقة عن "عبقرية عمر" دون أن يعرف عمر، هذا غير معقول ، ولكنه قرأ تاريخه قراءة مدقق محقق ، فجاءت فكرة "عبقرية عمر" وبالتالى يأتى بالشواهد الدالة عليها.

وإذا كانت د. بنت الشاطئ قد اعترضت على منهج العقاد فى عدم الإشارة إلى المراجع التى يستعين بها العقاد فى كتبه واعتبرت ذلك خطأ علميا إلا أننى أرى أن منهج العقاد كان سمة من سمات العصر. إنما طبعا تثبيت المراجع جاء بعد انتشار الجامعات والأكاديمية والتفكير الأكاديمى.

ورغم إعجابى الكبير بالعقاد إلا أننى لم أسعد بلقائه ، ولم أعرفه معرفة شخصية ، ولكن صديقا هو الدكتور توفيق الطويل كان يحضر ندوته فى بيته صباح كل جمعة، قال لى : ما دمت معجبا بالعقاد ومغرما به إلى هذه الدرجة فلماذا لا تحضر معى ندوته؟ ولكننى لست من النوع الذى يحب الزيارات ، ولذلك كنت من تلامذة العقاد وأتباعه من منازلهم، وإن كنت حضرت له فقط محاضرة واحدة فى كلية الآداب، فطبيعتى كرجل منزو تجعلنى أحب من بعيد رغم أننى أحببت العقاد حبا يفوق كل وصف ، وكنت أذهب إلى مكتبة "الأنجلو" لشراء الكتب وكنت أجد العقاد جالسا يقلب الكتب، ولكننى لم أجرؤ أبدا على الاقتراب منه والتسليم عليه، مقدرا إنهماكه فيما هو فيه، فلم أضع يدى فى يده طوال عمره رغم إكبارى العظيم له واعتبارى واحدا من تلامذته.

لقد سعدت كثيرا بتتبع الأستاذ إبراهيم عبد العزيز للوجه

الإنسانى، وهو الوجه الآخر من حياة الأدباء: توفيق الحكيم ويحيى حقى وطه حسين وكانت سعادتى أكثر بتتبعه للوجه الآخر للعقاد الذى شاعت عنه صورة الرجل الجاد الذى لا يبتسم أبدا، والعنيف الذى لا يهدأ أبدا، وصاحب الخصومة التى لا تنتهى، والمشاعر الجامدة التى لا تهتز، وقد ظلمته هذه الصفات التى اشتهرت عنه، كما ظلمه عداؤه للشيوعية والصهيونية فحدث نوع من اتفاق أشياع هذه المذاهب للتعتيم عليه ومحاولة نسيانه، وإذا حدث وتذكره أحد فإن ذلك يحدث مقرونا بتلك الصفات التى تبعدنا عنه وتجعلنا ننفر منه، ولكن الأستاذ إبراهيم عبدالعزيز يقدم لنا العقاد فى صورة لم نألفها من قبل، إنها صورة العقاد الإنسان، العقاد الضحوك، العقاد الذى يبكى ويتألم، وترق مشاعره ويهتز قلبه ويسعد ويشقى، ويحب ويشكو.

لقد كان العقاد عملاقا فى أدبه وكذلك نحن نراه فى صفحات هذا الكتاب عملاقا فى إنسانيته، وهو كشخصية عامة لا ضرر ولا ضرار إذا كشفنا عن جوانب خاصة من حياته ما دامت صحيحة لأنها ملك للتاريخ، خاصة إذا كانت هذه الأمور تتعلق بشخصية كبيرة متميزة كالعقاد الذى وقف فى تعليمه عند الابتدائية، وهو ما يحسب له لا عليه، لأنه لو كان الطريق مفتوحا له لاستكمل دراسته ودخل الجامعة وذهب فى بعثة، ولكننى أعتقد أن وقوفه عند الابتدائية جاء لفائدته فى النهاية لأنه اعتمد على نفسه وكون شخصيته الفكرية والثقافية كرجل موسوعى وصل إلى ذروة المعرفة فى جميع أشكالها رغم أنه لم يحصل سوى على الشهادة الابتدائية.

هو الحرية

"العقاد كما أراه - بالاختصار هو شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن الشخص الذى يراه الكثيرون، من الأصدقاء أو من الأعداء.. هو شخص أستغربه كل الاستغراب حين أسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه، حتى ليخطر لى فى أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن إنسان لم أعرفه قط ولم ألتق به مرة فى أى مكان".

العقاد

يرى نجيب محفوظ أن العقاد يمثل "روح النهضة الأدبية"، حيث اختار فى فترة مبكرة من حياته ثلاثة أدباء رأى أنهم يمثلون عصرا جديدا لنهضتنا الأدبية على رأسهم وفى مقدمتهم العقاد، فقد كتب نجيب محفوظ في "المجلة الجديدة" عدد فبراير ١٩٣٤، يقول:

الذروة من الكمال

العقاد هو رجل البداهة، ونقصد بالبداهة الفطرة البصيرة أو الإحساس الصادق أو الطبع السليم، ونقصد بذلك تلك الموهبة الطبيعية التى تنفذ إلى الحقائق فتعرف ماهيتها، وهى درجة من الكمال يبلغها الصوفى بالاجتهاد ويحوزها الفنان بفطرته وطبعه، وإذا أردت أن تتحقق مما نقول فاقرأ شعر العقاد - والعقاد فى نظرنا شاعر فنان قبل كل شىء - فمن أهم مميزاته أنه ليس قشورا سطحية، وليس نغما لفظيا، وإنما هو معنى عميق تذوقه وتحسه، وتعرف فيه روحا حيا يكاد يتحرك ويتغير كلما راجعته ، وهذه خواص النفس التى يعجز العقل والذكاء عن أن يلجا بابها والتى تنفذ إليها البصيرة الحساسة المرهفة فتلتقطها بما فيها من حياة وغموض.

وأثر الفطرة السليمة يظهر فيما يدعو إليه العقاد من تجديد فى الشعر والأدب، والتجديد عند العقاد ليس هو التجديد عند غيره، فنحن نفهم من التجديد عادة أنه الدعوة لمذهب جديد على حساب مذهب قديم كالدعوة إلى الرياليزم أو الايدياليزم وهكذا، ولكن العقاد لا يدعو إلى مذهب خاص وإنما يثور على التقليد والفناء في الغير ويدعو إلى تحرير العقل والشعور، اعقل بعقلك واشعر بشعورك، ومثل هذا المبدأ يتناقض مع الدعوة إلى مذهب معين، لأن الدعوة إلى مذهب معين هى نوع من التقليد، وإنك إذا قلدت العقاد فلست من أتباع العقاد! وهذا الرأى يجعل من الفن حياة كهذه الحياة المتجددة المتغيرة المطردة السير إلىالأمام . والعقاد يسمو بالأدب إلى الذروة من الكمال والتبجيل وهذا طبيعى، لأن ملكته التصوف وكيف تطلب من المتصوف ألا يبجل معبوده الذى يوحى إليه بأسرار الغيب"؟

ويؤكد نجيب محفوظ أن هذه ليست كلها مزايا العقاد وإنما التى تبرز فيه ، ويضيف "وهل ينكر إنسان أن للعقاد أبحاثا هى مثال التفكير المستقيم والعبقرية الفكرية"؟

ورغم إعجاب نجيب محفوظ بالعقاد إلا أنه لـم يتصـور يومـا مـا أن يغضب منه بل ويهاجمه وهو الذى يقول عنه فى حديثه عنـه كأستاذ له "أحببت العقاد حبا يفوق كل وصف".

وقصة هذا الخلاف المجهول كشف عنه الصديق حلمى النمنم فى مجلة "المصور" (١١ ديسمبر ١٩٩٢) التى يعمل بها صحفيا مرموقا.

كتب العقـاد فـى مجلـة "الرسـالة" عـدد ٣ سـبتمبر ١٩٤٥، مقـالا يفاضل فيه بين الشعر والقصة ويجعل للشعر أهميـة تعلـو علـى القصـة ، فيقول "ونحن قد فضلنا الشعر على القصة فـى سياق الكـلام عليهمـا مـن كتاب "فى بيتى". فكل ما قلناه إذن هو أن الشعر أنفس مـن القصـة . وأن محصـول خمسـين صفحـة مـن الشـعر الرفيـع أو فـر مـن محصـول هـذه الصفحات من القصة الرفيعة.

فلا يقال لنا جوابا على ذلـك : إن القصـة لازمـة. وإن الشـعر لا يغنـى عـن القصـة . وإن التطويـل، والتمهيد ضرورتـان مـن ضـرورات الشرح الذى لا حيلة فيه للرواة والقصاصين ... "أما أنا فجوابى على ذلـك جزما وتوكيدا: إن صفحات الشعر أوفـر وأغنـى. وأن معـدن الشـعر مـن أجل ذلك أنفس وأغنى من معدن الرواية... "إننى لم أكتـب مـا كتبتـه عـن القصـة" لأبطلها وأحرم الكتابة فيها، أو لأنفى أنها عمل قيم يحسب للأديب إذا أجاد فيه. ولكنى كتبته لأقول "أولا" إننى اسـتزيد مـن دواويـن الشـعر، ولا أستزيد من القصص فى الكتب التى أقتنيها.

وأقـول "ثانيـا" إن القصـة ليسـت بـالعمل الوحيـد الـذى يحسـب للأديب، وإنها ليست بأفضل الثمرات التـى تثمرهـا القريحـة الفنيـة ، وإن اتخاذهـا معرضـا للتحليـل النفسـى أو للإصـلاح الاجتمـاعى لا يفـر منهـا ضربة لازب على كل كاتب، ولا يكون قصارى القول فيـه إلا كقصـارى القول فى الذهب والحديد: الحديـد نـافع فـى المصـانع والبيـوت، ولكنـه لا يشـترى بثمـن الذهـب فـى سـوق مـن الأسـواق.. "أمـا إذا قلـت إن الشـعر أفضل من القصة، لأن الشعر من شأنه أن يجمع المعنى الكثير فـى اللفـظ القليل ، فتلك هى المفاضلة بين طبيعة الشعر وطبيعة القصـة، وإن بلغـت فى بابها غاية الاتفاق... "ومهما يكن من طبقة القـراء الذيـن يقبلـون علـى تلك الدواوين وتلك الروايات ، فلا نزاع فى أن الروايات إنما تـروج لأن

تحصيل لذتها أسهل وأقرب من تحصيل لذة الدواوين ، وليس لارتفاعها عليها فى طبقة الفن وملكة التأليف.

وقد يأكل الفقير اللحوم ويأكل الغنى البقول، ولكننا لا نستطيع أن نقول من أجل ذلك إن البقول طعام الأغنياء، وإن اللحوم طعام الفقراء.

كذلك قد يوجد من العامة من يقرأ القصة حتى الوضيع منها، ولكننا لا نستطيع أن نقول من أجل ذلك إن الشعر هو قراءة الجهلاء، وإن القصة هى قراءة المثقفين.

جاء ليهدم فنى

وانزعج نجيب محفوظ من هجوم العقاد العنيف وسخريته من فن الرواية ، مما أغضبه وأحزنه لأنه كان قد اختط لنفسه أن يكتب الرواية لتكون هدفه ومصيره فى الحياة، فإذا كان العقاد يحط من قدرها، ويهون من شأنها ، فأى كرامة لنجيب ، وأى كرامة للرواية التى يكتبها خاصة إذا كان الذى يحط من كرامتها هو العقاد الذى يعتبره أستاذه الذى "يسمو بالأدب إلى الذروة من الكمال والتبجيل" مما جعل نجيب محفوظ يدافع بجرأة شديدة عن قيمة الرواية ومكانتها، ويفند مزاعم العقاد بدقة وقوة ، خارقا بذلك عادته فى كتابة مقالاته بتحفظ وحذر شديدين، كما يقول حلمى النمنم لنجيب محفوظ وهو يذكره بهذه المعركة المنسية بينه وبين العقاد، فأجابه:

الأمر لم يكن يحتمل غير هذا.. يا سادة أنا رجل وهب حياته لفن القصة والرواية وكنت لا أزال شابا وناشئا وكذلك كنت أحترم آراء العقاد فجاء هو ليهدم الفن الذى نذرت حياتى له، فكنت بين أمرين إما أن أترك ذلك الفن وأتخلى عن طريقى تماما - وهذا مستحيل - وإما أن أرد عليه فقمت بذلك. والحقيقة أننى كنت أدرك خطورة الأمر، فالعقاد إذا غضب من أحد فإنه بلا مبالغة "يمسح به الأرض" ولذا حاولت التزام الدقة والتعبير عن موقف تجاه الرواية وكذلك أن ألتزم بأدب الحوار".

هل يكره العقاد ذلك؟

وجاء رد نجيب محفوظ على العقاد هكذا:

"فالفنون جميعا تتفق فى الغاية وتتساوى فى السيادة كل بحسب مجاله، وهى فى مجموعها تكون دنيا الأفراح والمسرات والحرية، حيث

يعيش أبناؤها على وفاق ومحبة وتعاون، لا يكدر صفوهم مكدر إلا أن يتصدى رجل كبير كالعقاد لدنياهم المطمئنة، فيرمى بحيرتها الساجية بحجر ثقيل يطين رائقها، ويبعث الثورة فى أطرافها، فيقول: إن هذا اللون من الفن راق وذاك منحط، هذا عزيز وذاك مبتذل، يقول هذا وهو أعلم الناس بالفنون، وأحبهم لها، وأحقهم بأن يعرف لكل قدره ومنزلته، ولن يفيد الفن شيئا من تحقيره لبعض أنواعه، إلا أن يغضب قوما أبرياء، يحبون الحق كما يحبه ويولعون بالجمال كما يولع به ، ويبذلون فى سبيل التعبير عنه كل ما فى طاقتهم من قدرة وحب. وعسى أن يقول قائل: إن العقاد ما قصد التحقير، ولكنه مفكر وله الحق كل الحق أن يرتب الفنون عامة أو فنون الأدب خاصة كيفما يرى، وهذا حق فى ذاته، ولكنى فى هذه القضية رأيت العقاد الخصوم يتغلب على العقاد الناقد، أنظر إليه قائلا: ".. لا أقرأ قصة حيث يسعنى أن أقرأ كتابا أو ديوان شعر، ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول". فالرجل الذى لا يقرأ قصة حيث يسعه أن يقرأ كتابا أو ديوان شعر ليس بالحكم النزيه الذى يقضى فى قضية القصة، والرجل الذى يلاحظ على مكتبته صغر نصيبها من القصة ينبغى أن تكون القصة آخر ما يرجع إليه فى حكم يتصل بها. بل إنه يفضل النقد - لا الشعر والنثر الفنى وحسب - على القصة ، والمعروف أن النقد ميزان لتقويم الفنون، فكيف يفضل على أحدها؟! وهل تنزل القصة هذه المنزلة عند شخص إلا إذا كان لها كارها وعليها حاقدا؟! فحكم العقاد على القصة حكم مزاج وهوى لا حكم نقد وفلسفة ، بيد أنى أريد أن أتناسى ذلك، وأريد أن أنظر نقده بعين مجردة، لأن لكلام العقاد قيمة خاصة عندى، ولو كان مصدره المزاج والهوى.

فالقصة لا ترمى لمغزى يمكن تلخيصه فى بيت من الشعر، ولكنها صورة من الحياة.

"... لم يعد الأدب يكتفى بتحضير الأقراص المركزة، وأدرك أن التفاته أو فلته لسانية أو حال إنسان وهو يتناول طعامه، كل أولئك أمور لها دلالتها النفسية وتعبيرها الصادق عن الحياة. ومن عجب حقا أن العقاد يعلم ذلك كله، وأنا أذكر أنه كتب مرة - لا أدرى متى ولا أين - عن توماس مان، فأشار إلى تفاصيله الدقيقة فى رواياته وبراعتها فى الدلالة والتأثير ، فكيف يساوى بيت من الشعر خمسين صفحة من قصة

؟ بل هل نغالى إذا قلنا إن صفحة من قصة تحتاج إلى عشرات البيوت من الشعر لتحيط بدقائقها وجمالها؟!

أجل إن القصة لا تزال أعظم انتشارا من الشعر ولكن أكان ذلك لسيئة فيها أم لحسنة؟ إن الخاصة التى تقرأ الشعر الرفيع وتتذوقه تقرأ القصة الرفيعة وتشغف بها، وإذا كان العقاد لا يقرأ القصة إلا مضطرا فطه والمازنى والحكيم وايزنهاور يقرءونها بغير اضطرار، ولئن انتشرت القصة فى طبقات أخرى فما ذلك لسيئة بها ولكن لحسنتين معروفتين: سهولة العرض والتشويق.

"... وحسب القصة فخرا أنها يسرت الممتنع من عزيز الفن للأفهام جميعا. وأنها جذبت لسماء الجمال قوما لم يستطع الشعر على قدمه ورسوخ قدمه رفعهم إليها، فهل يكره العقاد ذلك أو أنه يحب كأجداده كهنة طيبة أن يبقى فنه سرا مغلقا إلا على أمثاله من العباقرة!!

ولعله توجد أسباب أخرى تفسر لنا انتشار القصة هذا الانتشار الذى جعل لها السيادة المطلقة على جميع الفنون الجميلة، ولعل أهم هذه الأسباب ما يعرف بروح العصر، لقد ساد الشعر فى عصور الفطرة والأساطير، أما هذا العصر، عصر العلم والصناعة والحقائق، فيحتاج حتما لفن جديد، يوفق على قدر الطاقة بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنانه القديم إلى الخيال.

"فالقصة على هذا الرأى هى شعر الدنيا الحديثة، وسبب آخر لا يقل عن هذا فى خطره هو مرونة القصة واتساعها لجميع الأغراض، مما يجعلها أداة صالحة للتعبير عن الحياة الإنسانية فى اشمل معانيها".

نجوت من رده

فكيف كان رد فعل العقاد، هكذا سأل النمنم، وهكذا أجاب نجيب محفوظ:

".. لم يرد علىّ بعد ذلك واعتبرت ذلك نعمة كبيرة لأن عدم الرد يعنى نوعا من التسليم بما قلت . ثم إننى قد أمنت العواقب ونجوت من رده".

فعاد النمنم يسأله مستخدما مكر الصحفيين:

ولكن ألا يمكن أن يكون عدم الرد منه ليس تسليما واقتناعا بل

أنه لفرط اعتداده بنفسه لم ير ما يدعوه لخوض هذه المعركة خاصة أنك كنت لا تزال ناشئا..؟!!

وأجاب نجيب بالنفي ودليله قائلا: لا أتصور ذلك، بل أرى العكس، ففى العام التالى مباشرة حصلت على جائزة القصة وكان هو السبب.. فقد تقدمت بروايتى "خان الخليلى" وتقدم محمد سعيد العريان كذلك بروايته "على باب زويلة" وهى أفضل أعماله وكان مشهورا حينئذ، فرأت اللجنة استحقاق العريان للجائزة، كانوا جميعا من "الدرعميين" وهو ابن دار العلوم ويكتب بطريقة الديباجة المشرقة التى يفضلونها. ولكن كان عبد القادر المازنى، عضوا باللجنة وطالب بإشراكى فى الجائزة وأصر على ذلك واختلف معهم وكادت تقوم معركة فلما علا صوت خلافهم كان العقاد يجلس فى نفس المبنى فذهب إليهم وطلبوا الاحتكام إليه فقرأ الروايتين وقرر أن أفوز أيضا.. ومنحت مناصفة، وظل العريان طوال حياته يقول "لقد أخذ منى العقاد نصف جائزتى ومنحها لنجيب محفوظ "كذلك كان زميلى وصديقى" د. توفيق الطويل - يرحمه الله - يتردد على صالون العقاد وبين حين وآخر ينقل إلىّ ثناء العقاد وإعجابه بأعمالى التى تصدر.

تنبأ لنجيب بنوبل مرتين

ومن العجيب أن العقاد الذى ينتقد الرواية كان قد كتب قبل ذلك رواية "سارة" سنة ١٩٣٨(*) "بل إن صديقه الأثير عبد الرحمن صدقى قال عنه "كان العقاد حين عرفته قبل العشرينيات - لا يخلو جيب سترته من قصة يقرؤها بالإنجليزية لبعض مشاهير الروائيين. وإذا كانت قد أخذت بمجامع قلبه واستغرقت حسه واستولت على عقله فإنه ينكب عليها بعض الوقت فى مكتبه ويخلو بها قبل النوم هنيهة فى فراشه"!

وبرر نجيب محفوظ هذا التناقض بأن القصة كانت على هامش اهتمام العقاد.

ومن العجيب أيضا أن الرواية التى تنكر لها العقاد وفضل عليها الشعر هى نفسها التى رشح نجيب محفوظ بها لنيل جائزة نوبل وتنبأ له بالفوز فيها، وقد جرت التفاصيل على هذا النحو:

(*) حلمى النمنم - المصور ١١ ديسمبر ١٩٩٢.

رشح العقاد، نجيب محفوظ لجائزة نوبل وقال كلمته باستحقاقه لها، مرتين، الأولى منشورة فى الصحف، والثانية مذاعة فى التليفزيون.

كتب العقاد فى جريدة الأخبار عدد ١٩٦٢/١٠/٣١ يقول:

"الآن يحق لنا أن نقول : إذا كانت المسألة مسألة بحث بعد مجهود، فلماذا يقف هذا البحث دون البلاد العربية من أمم العالمين فلاتهتدى اللجنة. ولا نريد أن تهتدى إلى واحد منهم.. وهم على هذه الطبقة غير قليلين.

"إننى أذكر منهم أربعة من كتاب القصص الطوال أو المسرحيات - وهى مجال شتاينبك الفائز بجائزة نوبل فى ذلك العام - يفضلونه فى بعض المزايا ولا يقصرون عنه فى واحدة من مزاياه، وهم : توفيق الحكيم، ومحمود تيمور، ونجيب محفوظ، وميخائيل نعيمة.

ونجيب محفوظ، يضارعه وقد يفوقه (شتاينبك) - فى تصوير شخصياته ، من أولاد البلد والسذج و"البدائيين" "العصريين".

[*] "أما المرة الثانية فيتذكرها نجيب محفوظ نفسه - وكانت بعد ذلك بسنوات، حين قال العقاد فى حديث تليفزيونى أذيع قبل وفاته بقليل: إن عندنا فى مصر من يستحق الفوز بجائزة نوبل وذكر اسمى، فكان أول من تنبأ بذلك، وبعد حوالى ربع القرن تحققت نبوءته".

لماذا تستحق سارة جائزة نوبل؟

ولا تزال أهمية الرواية متشابكة فى ذهن نجيب محفوظ وهو يتذكر العقاد ضمن من تذكر من أساتذته بعد حصوله على نوبل، بل ورشح العقاد ليكون مستحقا للفوز بهذه الجائزة العالمية، وكان من دواعى هذا الاستحقاق روايته الوحيدة "سارة" ، مما جعل الناقد الفنى كمال النجمى يسأل نجيب محفوظ - ضمن حوارات أجريتها بينه وبين معاصريه -: تذكرون دائما إنجازات الأستاذ العقاد مع طه حسين وتوفيق الحكيم.. فهل تعتبرون كتاب "سارة" مساهمة حقيقية للعقاد فى فن الرواية المصرية؟ فأجاب صاحب نوبل : أنا أعتبرها كذلك ، فهى نموذج طيب جدا للقصة التحليلية السيكلوجية ، فيها من نفاذ البصيرة ما لا يوجد فى أى رواية مصرية أخرى، يمكن ينقصها لباقة أو فن الحكى، لأن

[*] الأهرام ٢٦ أغسطس ١٩٩٩.

العقاد تمرن عقله طول الوقت على التحليل والنقد سواء فى الأدب والسياسة، فلم يتمرس كيف يستطيع أن يحكى، إنما المادة فى قصة سارة، فى غاية الروعة.

وسألت نجيب محفوظ بدورى: هل لذلك رشحت العقاد لنوبل كطه والحكيم؟

فأجابنى: ولشعره أيضا، فأنا أستطيع أن أستخرج خلاصة من شعر العقاد تعتبر من أجمل الشعر الحديث، الذى يرشحه لنوبل فعلا".

وقصة "سارة" مع العقاد هى قصته مع الحب والكرامة، ومن لم يعرف الحب والكرامة لم يعرف الإنسانية ، وكانت كرامة العقاد فوق الحب والألم، فعندما اكتشف خيانة سارة - فى رجولته - وخيانة هنومه - فى شيخوخته، لم تتغير نظرته لمفهوم الكرامة فى كلتا الحالتين رغم لوعة الشوق ومكابدة الفراق ودموع الألم، فقد طلب إليه أو اقترح عليه أن يستمتع بحبيبته ولكنه رفض المزاحمة وأبى المشاركة باعتبار أن للحب كرامة تتأبى على المشاركة، أو كما يقول شعرا :

"تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى
وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسما مستباحا وطالما
لقيتك جم الخوف جم التردد".

* * *

والكرامة عند العقاد تنسحب على كل شىء، على أدبه وشخصيته ومعاملاته ، مما بثه تلاميذه الذين عرفوه عن قرب أو الذين عرفوه عن بعد من كتبه ومقالاته ومواقفه، كنجيب محفوظ الذى يعترف بأن العقاد "خلق عندى قيما عزيزة أولاها قيمة الأدب كفن أصيل لا وسيلة تكسب، وكان دائما يرتفع بالفن إلى مستوى الرسائل المقدسة، وثانيتها أهمية الحرية فى الفكر وفى حياة الإنسان عموما، ثم نظرياته النقدية فى الشعر التى جعلتنى أتذوق الشعر".

شروطه للقاء عبد الناصر

واعتداد العقاد بنفسه وبأدبه هو الذى جعله لا يذكر اسم عبد الناصر بكلمة فى حفل استلامه جائزة الدولة التقديرية ، بل إنه اعتبر

نفسه وجمهورية الفكر التى ينتمى إليها ندا للرئيس وجمهوريته التى يحكمها حين قال فى ختام كلمته أمام عبد الناصر "وتلك هى جمهورية الفكر خير قرين لجمهورية الحكم".. وبلغ من اعتداد العقاد بكرامته أنه اشترط شروطاً للقائه بعبد الناصر وهى قصة جديرة بإثباتها على لسان الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف الأسبق وصديق عبد الناصر قبل أن تعصف العواصف بعلاقاتهما. روى أنه فى حوار طويل بينه وبين عبد الناصر "(*).

ذكرت له رأيا يكون خاتمة هذا الحوار الطويل، فقلت له - فيما أذكر - إن هذه الثورة تحتاج إلى ألسنة وأقلام، واقترحت عليه أن يلتقى ببعض الذين زودهم الله بالقدرة على إقناع الشعوب بالقضايا التى تتغياها ثورات الإصلاح فى كل زمان ومكان.

ولعل هذا الرأى كان قد لقى فى نفسه هوى، فسألنى عن المواطنين الذين أرشحهم له ، يلتقى بهم ويتحدث إليهم بما يجعلهم يطمئنون إلى الثورة أو إلى أنفسهم فى ظل التعاون معها والدفاع عنها، وكان فى طليعة أولئك المواطنين الأستاذ عباس العقاد.

وقد آثرت أن أذكر العقاد لأمرين أعرفهما له:

أحدهما : أن الرجل كانت له ندوة فى مصر الجديدة تضم صفوة المواطنين، يتعلمون منه ويأخذون عنه، فلو أنه اطمأن إلى أهداف الثورة، لكان فى لسانه وقلمه لها خير كثير.

وثانيهما: أننى رأيت الرجل فى أول مؤتمر للثورة انعقد بدار "لطف الله" وهو يحمل قصيدة يحرص على إلقائها فى هذا المؤتمر تحية للثائرين، وهو الرجل الذى اضطهده عهد الملكية ، اضطهادا لا يصبر على لأوائه إلا الصابرون.

ولم يكن عبد الناصر ليجهل العقاد ولا الذين يأخذون عنه ويعتزون بالانتساب إلى ندوته أيام الجمعات من كل أسبوع. ولكنه سألنى سؤال من رضى الاقتراح وأحب أن يمضيه إلى غايته المرجوة منه، فقال: وأين المكان الذى نلتقى فيه بهؤلاء الذين تقترحهم؟ فأجبته: إن الأمر فى هذا يسير جد يسير، والذى أوثره وأملك أمره الآن أن تتفضل فتأذن بأن يكون أول اجتماع فى دارى.

(*) المسلمون - ٦ سبتمبر ١٩٨٥.

ولم يزد على أن صمت، صمت من يرضى هذا الاقتراح، وقد رأيت أن أحيط الأستاذ العقاد علما بما انتهى إليه حديثى مع عبد الناصر، ثم دعوته إلى أن يتناول فى دارى طعاما بعد صلاة العشاء، يلتقى فيه معه، ولعل الله - تعالى - أن يجعل هذا اللقاء مطلع يمن وبركة على شعبنا المصرى وأمتنا العربية.

والذين يعرفون الأستاذ العقاد، يعرفون أنه رجل شديد الاعتزاز بنفسه، اعتزاز عالم ذى رأى احتمل فى سبيل الدفاع عنه شدائد الحياة وذاق مرارة السجن مع الغوغاء وأصحاب السوابق والمتشردين.

وقد أجابنى بقبول الدعوة قائلا: إننى حريص على أن أعرف لك حقك، غير أننى أشترط لذلك، أن يكون حضورى إلى منزلك بعد أن يتكامل المدعوون . وإن ما حملنى على هذا الشرط، علمى بأن صاحبك شديد الكبرياء، وقد يصافحنى بغير اكتراث، مضياً على السنة التى آثرها لنفسه. فإذا دخلت، فتراخى فى القيام لمصافحتى، فلا تؤاخذنى إذا ملكنى الغضب، فلعنت فى وجهه اليوم الذى جمعنى به ثم انصرفت غير آسف على شيء.

ولم يسعنى أن أوافقه على رأيه، ولا رأيت أن أقنعه بأن ذلك لن يكون منه شيء، ثم اختصرت الحديث وأزمعت منذ تلك اللحظة أن أصرف تفكيرى عن الاهتمام بهذه الدعوة فى جملتها وتفصيلها ، وإن كنت أعلم عن يقين أن قلم العقاد لو قدر له أن يدافع عن الثورة الحانقين عليها والمتربصين بها، لكان لها فيه غنىً عن كل الوسائل التى يلجأ إليها الدعاة إلى إقناع الشعب بها والثقة فيها، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه. ولله - تعالى - فينا علم غيب هو بالغه.

أخطب الخطباء

وقد حاول المتربصون بالعقاد الإيقاع به فى ندوة الجمعة الأسبوعية التى يعقدها بمنزله بمصر الجديدة فسألوه عن أخطب الخطباء، وهم يتوقعون أن يعقد مقارنة لغير صالح عبد الناصر، فأجاب بشجاعته المعروفة غير هياب ولا واضعا حسابا للسؤال الكمين: إن أخطب الخطباء هو سعد زغلول. فاستدرك السائل: أقصد من الأحياء..! فكرر العقاد نفس الجواب. فقال السائل: ولكن سعد زغلول مات. فقال العقاد :

أنا أقول لك إن سعد زغلول هو أخطب الخطباء حيا وميتا. وأضاف موجها كلامه لسائله: وأنت خير مخلوق يستطيع أن يبلغ عبد الناصر نفسه ما أقول!.. ورغم ذلك فقد كان عبد الناصر معجبا بالعقاد لأن أفكاره وآراءه من رأسه وليس وراءه تنظيم ولا أعوان ، وقد قال عبد القادر حاتم وزير الإعلام الأسبق: إن عبد الناصر فى اجتماعات مجلس الوزراء كان يقول إنه يحترم العقاد جدا.

وجرأة العقاد أيضا هى التى جعلته يبدى عدم إعجابه بلحن عبد الوهاب - رغم حبه له ولفنه - للنشيد القومى الذى كتبه العقاد ١٩٣٤، وجعل عبد الحميد توفيق زكى يعيد تلحينه مرة أخرى.

وعندما أرادت أم كلثوم أن تغنى له إحدى قصائده اعتذر أيضا رغم إعجابه الشديد بها لدرجة أنه نظم فيها شعرا، وقال لتلميذه أنيس منصور "إن انتظار ظهور هذه الرغبة أكبر من احتمالى.. أشكرها يا مولانا". وهو الذى قال اعتزازا بنفسه وبها "فى مصر خمسة لا تتكرر: النيل والهرم وأبو الهول وأم كلثوم والعقاد".

ولسنا بحاجة إلى أن نكرر الحديث المعروف عن الإعجاب الكبير الذى نالته أم كلثوم من نجيب محفوظ أو كما يقول: أذكر أننى حين أكتب لا أستطيع الكتابة إلا بعد أن أستمع إلى صوتها، وأظل أروح وأجئ فى الحجرة ثم أشرع فى الكتابة مباشرة"، ويحتفظ لها بأجمل وأغلى ذكر لها عندما أسمى ابنتيه على اسمها واسم فيلم لها، أم كلثوم، وفاطمة، فقد أدرك نجيب محفوظ كما أدرك العقاد من قبل أن سر أم كلثوم "أنها المطربة الموهوبة التى أثبتت أن الغناء فن رؤوس وقلوب ، وليس بفن حناجر وأفواه فحسب".

وهكذا اشترك عملاق الفكر وعملاق الرواية فى حب عملاق الأغنية "أم كلثوم".

أقسم أن هذا العقاد لا أعرفه

ومازلنا نقترب من العقاد الذى كان يسمع ما يشاع عن شخصيته فأراد تعريف نفسه حينما كتب مقالا له تحت عنوان "أنا"، فأنبت ما يقال عنه ، وأثبت أيضا ما يحب أن يعرفه الناس عنه وهى الحقيقة التى قررها ليعرفها من أراد أن يعرفها.

يقول "فعباس العقاد هو فى رأى بعض الناس مع اختلاف فى التعبير وحسن النية ، هو رجل مفرط الكبرياء.. ورجل مفرط القسوة والجفاء.. ورجل يعيش بين الكتب ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس. ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ، ولا سلطان للقلب ولا العاطفة عليه. ورجل يصبح ويمسى فى الجد الصارم فلا تغتر شفتاه بضحكة واحدة إلا بعد استغفار واغتصاب. هذا هو عباس العقاد فى رأى بعض الناس.

وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا لا أعرفه، ولا رأيته، ولا عشت معه لحظة واحدة ، ولا التقيت به فى طريق، ونقيض ذلك هو الأقرب إلى الصواب.

نقيض ذلك هو رجل مفرط فى التواضع، ورجل مفرط فى الرحمة واللين، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة، رجل لا يفلت لحظة واحدة فى ليله ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ، ورجل وسع شدقاه ما يملأ مسرحا من مسارح الفكاهة فى روايات "شارلى شابلن" جميعا".

يقول للبيك والباشا: كلا وحاشا

وهو يقول عن نفسه فى تعريف ساخر:

أديب مشهور وليس بليسانس ولا دكتور، وعضو فى مجلس الأعيان "الشيوخ" وليس فى حوزته نصف فدان، وليس ببيك ولا باشا ولكنه يقول للبيك والباشا: كلا وحاشا. وصاحب أعوان وأنصار وما هو بزعيم حزب ولا بصاحب عصبية ولا مصطبة ولا دوار، وفقير جد فقير ولكن ليس بهين ولا حقير. وصاحب قلم مسموع الصرير مرهوب النفير، ولكن ليس بصاحب صحيفة ولا بمدير ولا برئيس تحرير ولا سكرتير تحرير".

أطرب لصوت البوم ونقيق الضفادع

وقد لا يعلم كثيرون أن العقاد الذى لم يحصل سوى على الشهادة الابتدائية قد حاول الحصول على بعثة فى الخارج عندما نشأت الجامعة الأهلية لولا الشروط التى حالت دونه لإتمامها، منها الحصول على شهادة عالية أو ثانوية.

ومع ذلك صار الكاتب الذى أسماه سعد زغلول زعيم الأمة "الكاتب الجبار".

وهذا الكاتب الجبار هو نفسه الكاتب الساخر الذى ينصف البومة والضفدعة ويرى فيهما جمالا لا يراه إلا قلب محب رقيق يدرك الجمال الكامن وراء القبح الظاهر.

يقول العقاد[*] "إننى أطرب لنقيق الضفادع عى حواف الجداول حين يبهجها نسيم الليل ولمعة القمر طربا قل أن ألقاه فى المهرجان الصاخب والعرس المثير.

فقد يكون فرح المهرجانات والأعراس صناعة مستكرهة لا سعادة فيها ولا صدق فى أصواتها، ولكن الضفدع التى يرتفع نقيقها فى قمراء الليل أو غاشية الظلام لن تكون إلا شعورا صادقا تمت الألفة بينه وبين أرضه وسمائه ، فلا ريب.ولا مراء فيما وراء دعاتها الساذج من السعادة والرضوان.

بل ويطرب العقاد أيضا لصوت "البوم".. يسمى "البوم" "أستاذ فرقة الظلام" الذى يناجى أليفه نجاء الحب والنعيم. ولا أهمية عند العقاد لما شاع بين الناس من بغض للبوم وتشاؤم منه.. ليس ذنب البوم أن اقترن مرآه عند الناس بمرأى الخراب والوحشة والظلام.. والذنب فى تشويه سمعة هذا الطائر "المطرب" ذنب الشعر والخيال.. (وليس البوم بالأول ولا الأخير من ضحايا الشعر والخيال).

العقاد ضاحكا

ولنقترب أكثر من العقاد الضاحك بوصف معاصريه القارنين له والمتعاملين معه.

الناقد الفنى كمال النجمى اكتشف أن[**] "العقاد عندما يسخر يعمد أحيانا إلى السجع كما ترى فى بعض مقالاته السياسية والأدبية، وقد تجد فى يومياته أسجوعة هنا وأخرى هناك للسخرية أو التفكه، وما أظرف العقاد فى الأساجيع وما أبلغه أيضا.

وهو فى القافية بمعناها الشعبى لا يقل ظرفا عنه فى الأسجوعة

---

[*] عن مقال "العقاد الموسيقى" لسعد دواره – مجلة الشموع.

[**] الهلال ١٩٨٤/٤/١.

على تجهمه الذى كان يوهم أنه بعيد جدا عن أن يكون ابن نكته، أى صاحب نكت وفكاهات ومطايبات.

يروى العقاد فى إحدى يومياته ما كان يتندر به ظرفاء القاهريين فى قافية الصحافة .. "وكانت أسماء الصحف المعروفة حينذاك هى "المقطم" و"كوكب الشرق" وأمثالهما، فيتبادل أصحاب القافية أى النكتة كلامهم كما يرويه العقاد على النحو التالى..

يقول الرجل لصاحبه: فوق رأسك يا معلم. فيرد عليه صاحبه: ايش معنى؟

فيقول الأول: المقطم.

فينبرى الثانى للأول : الرغيف فى بيتكم.

- ايش معنى؟

* كوكب الشرق.

وفى السنة الأخيرة من حياته كان العقاد مشغولا بعض الشغلان بقضية المعمرين الذين بلغ بعضهم مائة وخمسين عاما.

قال: إننا لم نعرف أحداً جاوز المائة يحمد بقاءه ويستطيل أجله.

كان الدكتور فارس نمر باشا إذا سئل: كيف صحتك يا باشا؟

قال وهو متبرم : هذا أبغض سؤال إلى نفسى.

وقد بلغ نمر باشا المائة من عمره تقريبا، ومثله عبد العزيز فهمى باشا السياسى والفقيه والإنسان الغريب الأطوار. يقول العقاد: قال عبد العزيز فهمى باشا للأستاذ أحمد أمين الكاتب والمؤرخ وهو يودعه ذات مساء: أدع لنا يا أستاذ. فلما دعا له قائلا: ربنا يقويك. لم يكن أعجل من الباشا إلى أن يقول متهكما: يا أخى أطلب شيئا معقولا. قل الله يريحك. الله يسهل لك. أما الله يقويك فيفتح الله يا أستاذ.

أما د. عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى فيؤكد اهتمام العقاد "أستاذ الجيل بالفكاهة فى الحياة بصفة عامة وفى الأدب بصفة خاصة، وهى إضافة لا شك فيها. ويكشف لنا الشاعر والناقد الأدبى د. عبد العزيز شرف فى كتابه "عصر العقاد" أن العقاد هو أول من استخدم الأسلوب الساخر فى المقال السياسى(*)، وأول من طالب بتخصيص

(*) على سبيل المثال سخر العقاد من محمد محمود باشا رئيس الوزراء الذى توعد باستعمال اليد الحديدية ، فنشر العقاد مقاله "يد من حديد ولكن فى ذراع من =

ملاحق أدبية فى الصحف اليومية والأسبوعية، وأول من أجرى حديثا صحفيا مع مسئول كبير بالدولة وكان هو سعد زغلول وزير المعارف.
ورغم المناقشات الجادة التى حفل بها صالون العقاد الأسبوعى إلا أن تلميذه الأديب الموسوعى أنيس منصور يطلعنا أنه "فى خلال هذه المناقشات يروى العقاد النكت الطريفة، ولا يكتفى بما يرويه من النكت، فهو يسأل الآخرين : ايه أخبار النكت. فنروى له نكته. فيقول العقاد: لا.. قديمة عندنا أحسن نكتة. ثم يروى هو أحسن النكت وآخرها. ويضحك العقاد ضحكته العالية المجلجلة.

ثم ألا يؤكد لنا كتاب "جحا الضاحك المضحك" شخصية العقاد الضاحك، كما يؤكدها حب العقاد للمراة التى تدرك الفكاهة، ويزيدها تأكيدا اصطحابه لكتب الفن الخفيفة ليقرأها فى الشتاء خلال الشهر الذى يقضيه كل عام فى أسوان مسقط رأسه، فكان يقرأ مثلا كتبا عن مارلين مونرو، وشارلى شابلن.

يا قليل العقل إقلع

ولكن أين العقاد نفسه من النكتة هل هو مجرد راو للنكتة ومتذوق لها فقط أم هى نابعة منه مصطبغة بروحه؟

يروى لنا الموسيقار محمد عبد الوهاب أنه كان واحدا ممن شهدوا إحدى السهرات فى بيت السيدة روز اليوسف رحضرها العقاد والمازنى وفكرى أباظة وآخرين منهم ممثل مشهور بتقليده للمشاهير كالعقاد وطه حسين، ولما علم العقاد بذلك من روز اليوسف طلب مشاهدته فكانت هذه السهرة التى استمتع فيها العقاد بتقليده "وضحك ضحكا خطيرا وانبسط انبساطا كبيرا" حسب الوصف الدقيق لعبد الوهاب الذى شهد الواقعة بنفسه، ثم لما أراد الممثل المقلد أن يغنى أيضا ولم يكن غناءه مستساغا، قال له العقاد: يا أستاذ فلان : فقال له : أفندم . فقال العقاد: يا أخى مادمت مقلدا جيدا هكذا فلماذا لا تبحث لك عن مغنى جيد تقلده!

ويروى توفيق الحكيم واقعة زيارة العقاد له فى مكتبه عندما كان

=جريد، فصارت نكتة تلوكها الألسن مما اضطر رئيس الوزراء إلى التزام الصمت وعدم تكرار وعيده الأجوف.

مديرا لدار الكتب وارتدى الطربوش شأنه شأن الموظفين آنذاك "ووجدني العقاد وعلى رأسي الطربوش، والعرق يسيل على جبيني من قيظ الصيف، فقد كنا وقتذاك في منتصف شهر يوليو، فنظر العقاد إلى عرقي والطربوش على رأسي حتى الأذنين وقال لي : انت خايف تقلع الطربوش يفتكروها استقالة!:

وكتب لنا صديقه الأثير طاهر الجبلاوى(*) عن مقالب العقاد الفكاهية "وكان صديقنا حسني يفاخر بقوته البدنية ويتحدث للعقاد عن ضعفي ونحولي فأراد أن يقنعه ذات مساء بخطئه فيما تصوره عن نفسه وما تخيله من ضعفي وكتب إليه زجلا ألقاه في صندوق بريده وكان يحب امرأة يونانية بدينة تقول لبرميل الزيتون انزل وأنا أقعد مكانك، وفي هذا الزجل يقول متحديا على لساني:

إطلع لي وانزل في الميدان
وأنا أوري لك شغلك
هو انت أدي يا غلبان
يا بتاع خديجة وزنوبة
وبتاع براميل الجيران

"... ويقطع كسرة أو شقة من الخبز في "ظرف" ويلقيه في صندوق بريد لآخر، ونتقابل مع هذا وذاك ونسمع التعليقات المضحكة".

وقد التقيتُ ببعض تلاميذ العقاد، واخترت من أحاديثهم معي ما زادني يقينا وتوكيدا بشخصية العقاد الضاحك، أختار منها على سبيل المثال لا الحصر، ما ذكره المهندس عبدالله طه، عن نوادر العقاد مع عبد الحي أديب حين نظم أحمد إبراهيم الشريف (العقاد ابن عمته) شعرا يهجوه فيه، بعد أن دخل كلية العلوم، وكان قصيرا يرتدي البدلة القصيرة المفتوحة من الجانبين وهي موضة تلك الأيام، وأضاف لها حذاء بكعب "كوباية"، واستمع العقاد إلى ما قيل فيه شعرا:

جاء عبد الحي يضلع
فوق رجلين بأربع
ضاحكا من غير شيء
مضحكا للكون أجمع

(*) العقاد وأنا - إعداد عباس محمد طاهر الجبلاوى - مطابع الأخبار ١٩٨٥.

قـــلت والنعل بكـفى
يـــا قليل العقل أقلـع
فضحكنا وضحك العقاد ثم قال:
كثير على عبد الحى أديب أن يكون مضحكا للكون أجمع، يكفى أن يكون مضحكا للناس أجمع، أيضا كلمة "أقلـع" (بـالهمزة علـى الألـف) كبيرة عليه، ولكنها تأتى "إقلع" ويلزم لذلك وجود بيت آخر قبل البيت الأخير، وأعاد العقاد نظم الأبيات هكذا:

جـــاء عبد الحى يضلع
فـــوق رجـــلين بأربع
ضاحكا من غير شىء
مضحكا للناس أجـمـع
لابسا حــلة قـــــرد
هـــو فـيها يـــتشخلع
قـــلت والنعل بكـفى
يـــا قليل العقل إقـلع.

هدمت بيت سيبويه

ويضيف المهندس عبدالله طـه: وذات مرة سألته عما إذا كان يقرأ للأدباء الشبان، فنفى لى ذلك. فقلت له: مادمت لا تقرأ للأدباء الجدد وقد كنت أريد أن أهديك عددا من مجلة كلية الهندسة كتبت فيه موضوعا عنك.. لكن "بلاش". فقال العقاد: بلاشين. فقلت له : ثلاثة بلاليش. فقال العقاد: أتظن أنك تغرينى واللاانت فاكر نفسك أول واحد يكتب عن العقاد!

وطلب منى أن اختار عشرين ثلاثين سطرا من الموضـوع الذى كتبته لأقرؤها له أثناء الندوة، وحينما جاء دورى للسلام عليه بعد انتهاء الندوة قال لى: هل تركت لى عددا من المجلة؟ فطلبت منه عشرة قروش ثمنا لها: فقال لى : اسمع يا مولانا.. الناس تأتى هنا ليشرب كل واحد منهم كوبا من الليمون وفنجانا من القهوة أما أنت فكلما مـر عليك الشيخ حمزة(*) تشرب ليمونا وقهوة!

(*) طباخ العقاد.

فقد كان يأخذ باله منى ووجدها الآن فرصة لكى ينبهنى. وبعد أن قرأ الموضوع الذى كتبته عنه، بإمعان، انتظر أول فرصة عندما سألته سؤالا فى فقه اللغة فقال لى : أنت تسأل سؤالا فى فقه اللغة وأنت يا باشمهندس قد هدمت بيت سيبويه من أساسه.

فقلت له: هو الموضوع فيه حاجة غلط. فقال : هو فيه حاجة صح!

إيمان أصنامها

أما الدرعمى[*] "أحمد حمدى إمام" فيتذكر أنه وعامر العقاد (ابن أخو العقاد) كانا يعابثان الرسام حسن عنبر الذى يحب العقاد حبا شديدا، فيتعمدان الدفاع عن الذين يهاجمون العقاد أمامه، وبعد أن انتهى وقت الضحك وحانت ساعة الجد خشيا أن يخبر العقاد فيسبب لهما مشكلة، وهددهما همسا أمام العقاد الذى كان شديد الملاحظة فقال : إيه الموضوع. فقال له حسن عنبر: الدرعمى يهجونى.

فقال له العقاد: أنت أيضا تستطيع أن تهجوه بالرسم. فأتى فى الجمعة التالية ومعه صورة رسمنى فيها مثل ولد الكوتشينة، فنظر إليه العقاد وقال له : لقد رسمته بأحسن ما فى الكوتشينة "الجوكر" جئت تهجوه فمدحته.

وفى اليوم التالى وكنت نائما عند عامر العقاد، فاجأنى العقاد بنظمه لأبيات فى هذا الموضوع قال فيها:

أرى الدرعمى هو الضرغمى

ودرعام قوم كضرغامهم

إمام يصلى

أهنئ بلادا نجت من إمام بإسلامها.

وعنبر يرسمه صورة تجلى بها جود رسامها

ولو شاء لصوره صورة تكفر إيمان أصنامها.

وضحك العقاد وضحكنا.

---

[*] تقال لخريج دار العلوم.

أما د. عبد الفتاح الديدى أستاذ الفلسفة الذى أراد تكريم العقاد الذى كرمنا بالعبقريات فكتب عنه "عبقرية العقـاد" ، وتوقف أمام روحه المرحة فقال:

كان رحمه الله يستخفه الطرب ساعات اللهو والمزاح إلى حد كبير، ويضحك بكل جوانحه حين يستعيد الأحداث أو يروى الوقائع المضحكة أو يلقى بالنكات، وحدث مرة أن زاره أثناء ندوته الشهيرة يوم الجمعة الشيخ الأسيوطى، وهو من المتدينين المفرطين فى التدين والمعجبين بالعقاد وكتاباته عن الإسلام، وكان رجلاً نحيفاً قصيراً إلى حد ملحوظ، وأصر أن يُقبل العقاد تبركا بعلمه وتقواه ، فقال للعقاد: لابد أن أقبلك يا أستاذ. فرد العقاد: لا يمكن. فسأله الشيخ: ولكن لماذا يا أستاذ..؟ فرد عليه العقاد قائلا: لأنك لن تستطيع أن ترتفع إلى وجهي وأنا لن أنزل إليك.

وذات مرة فى أثناء زيارته للأراضى الحجازية بصحبة ملك السعودية عام ١٩٤كان يناقش أحد الجالسين فى إدخاله التحسينات اللازمة على الكعبة، وقال لهم : يمكنكم أن تستخدموا مكبرات الصوت فى المسجد الحرام أثناء الحج. فنهض أحد الجالسين قائلا: هذه بدعة. ولاحظ العقاد أنه يحمل نظارة على عينيه . فقال له على الفور: فأنت إذن رجل مارق لأنك تضع على عينيك مكبراً لصور المرئيات.

وسأله بعضهم يوماً عن أحد السياسيين ، فقال له العقاد: إنه رجل مرتاح الضمير..!

وروى لنا العقاد نكتة الفلاحين الذين أحضروهم إلى دار الإذاعة فى الاتحاد السوفييتى - السابق - ليقول كل منهم كلمة واحدة أمام الميكروفون ، فإذا بواحد منهم يقف أمام الميكروفون يقول صارخاً: إلحقونا..!!

وروى العقاد كثيرا من النوادر التى حدثت فى بيته مع طباخه الشيخ أحمد حمزة، فقد نبه عليه العقاد أن يكتب أسماء كل من يتحدثون إليه بالتليفون فى فترة غيابه ، وفى يوم من الأيام كان العقاد فى إحدى دور النشر وأراد أن يستعلم عن شىء بالبيت فتحدث إلى طباخه بالتليفون، وعندما رجع العقاد إلى بيته نظر فى قائمة أسماء من طلبوه بالتليفون فوجد اسمه هو نفسه من بينها.

وذكر العقاد أن الشيخ محمد عبده وقاسم أمين كانت لهما ساعات مخصصة للهو والمرح والسرور ليخففا بها عناء الحياة وهموم الكفاح مع مجموعة من الأصدقاء الخلص الذين يفهمون حاجة المرء إلى اللعب وتخفيف المتاعب، وقاما يوماً بتكوين جمعية اسمها "جمعية الحمير" لأنهما وجدا أن هذا هو خير حل لإشكالات الجمهور الذى لا يريد التقدم ولا يرغب فى أية نهضة، وجاءهما يوماً أحد المتزمتين يسأل الشيخ محمد عبده عن شروط العضوية، فأجابه الإمام محمد عبده أن يكون الشخص راغباً فى تحقيق دعوتها إلى أن تصبح مثلك يا فضيلة الشيخ!

ويضيف الديدى: كان العقاد من أكبر المتذوقين للنكتة والراوين لها، وكان يبنى تقديره للفكاهة على فهم فلسفى حقيقى للضحك، ويرى أن النكتة تضحكنا لأنها تفضح الخلل وتطلعنا على سخافة العقول التى لا يستقيم تفكيرها، ومن ثم تكون النكتة هى المنطق الصحيح والحجة المفحمة، وعلى هذا الأساس الفلسفى للضحك كان العقاد يملك زمام المواقف فى إثارة الضحك حول أقوال الآخرين ومفهوماتهم. فاستقامت له القدرة على تفنيد آراء الخصوم فى قوة لم يعرفها الفكر العربى، مع إثارة الضحك فى نفسية القارئ بغير عناء، فروح العقاد الفكهة لا تنفصل أبداً عن مقدرته على التفكير والكتابة، وإذا أردنا أن نفسر ملكته فى النزال والمساجلة فيمكننا أن نقول أن براعة العقاد فى الفكاهة وولعه بالضحك هو الذى يكمن غالباً وراء مناوشاته فى عالم الأدب والفكر، وكان السبب الحقيقى لكل مناقشاته الجادة هو ميل دفين إلى الضحك والإضحاك.

ونجيب محفوظ ضاحكا

وهل هناك أشبه فى المقاربة والمشابهة بين العقاد ونجيب محفوظ من هذه الروح الساخرة والقدرة على التنكيت والتبكيت، وإنما أردنا التركيز على العقاد لأن صورته الضاحكة هى صورة مجهولة غابت عنا وفقدت آثارها فأردت استحضارها فى هذه العجالة التى يقتضيها الموقف حتى يتحقق أملنا فى إفراد كتاب عن العقاد نستجلى فيه أبعاد شخصيته الإنسانية بكل متعلقاتها وتفاصيلها المثيرة.

أما نجيب محفوظ فحدث ولا حرج عن شخصيته المرحة الضحوك، وقد كشف لنا عنها صديقه د. أدهم رجب الذى كان يشهد فى

مقهى الفيشاوى القديم فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات المباراة التى كان يكسبها نجيب محفوظ أمام أولاد النكتة المحترفون "فكان نجيب يتصدى لهم بمقدرة غريبة على توليد الأفكار وتخليقها، بنكت تجعلهم أضحوكة الجميع، وكان صوته جهوريا، وخارقا فى سرعة ابتداع الفكرة، حتى أنه كان يتصدى لعشرين شخصا دفعة واحدة بالنكتة تلو النكتة حتى يسكتهم جميعا. وكنا نحن رفاق صباه ننقلب إلى "مطيباتية" له .. كان رجلا جبارا فى النكتة إلى حد أنه كان يضحك خصومه على أنفسهم!".

ولم تختلف روح نجيب محفوظ في شيخوخته عما كانت عليه في صباه.

وقد رصد لنا "سعيد سالم" ملامح شخصية نجيب محفوظ الساخرة حتى فى أحلك الأوقات وأشدها مأزقا، وكان هذا الرصد من خلال مجالسه أيضا كما حدث بالنسبة للعقاد(*).

يقول: لابتسامة نجيب محفوظ وقع السحر على قلوب محبيه، إذ يتميز مجلسه بالمرح والنكتة الساخرة. فكثيرا ما وقعت أحداث عالمية وقومية خلال جلساته الصيفية معنا بالإسكندرية. فى مثل هذه الأحوال يكون من الطبيعى أن تنصب حواراتنا حول هذه الأحداث. واللافت للنظر أنه مهما بلغت قتامتها فإنه من السهل على نجيب محفوظ أن يتناولها بطريقة ساخرة تنتهى دائما إلى ضحكته الرنانة المجلجلة التى يعرفها ويعشقها كل مريديه ..

دارالحديث مرة عن شخصية عامة فقال أحد الجالسين أن والده كان يعمل "ترابيا" فقال آخر أن والد زوجته كان يمارس نفس العمل، وقلت معلقا إن المقابر كانت السبب فى علاقة المصاهرة بينهما، فرد نجيب محفوظ قائلا :

– عشان كده كانوا بيحبوا بعض موت! وسألته مرة كيف عثر على اسم "السلولى" الذى جاء فى روايته "ليالى ألف ليلة" فضحك قائلا:

– هو إسم بايخ صحيح لأنه اسم الشارع اللى باروح أدفع فيه الفلوس لمصلحة الضرايب!

(*) أخبار الأدب ١٩٩٣/١٢/١٢.

ودار الحوار يوما حول سخرية البعض من الصورة التى نشرت بالأهرام والتى ظهر بها محمد حسنين هيكل مع "شواين لاى" بعد النكسة فى حوار صحفى حيث كان الأول يرتدى كرافتات "سولكا" ويضع ساقا فوق ساق والثانى يرتدى "صندل" بسيطا ويجلس فى تواضع أبسط. وكان تعليق نجيب محفوظ..

– مع إن الثورة بدأت قبل ثورتنا بـ ٣ سنوات إلا انهم شوف سبقونا قد ايه.. والسبب إن إحنا أخذنا المسألة "سولكا" وهما أخذوها "مولكا"!!

ويوما أثار أحد الحاضرين موضوعا علميا عن النمل الأبيض الذى يضطر لأكل بيضه حين يتعرض أمنه الغذائى للخطر فقال أحد الحاضرين باستحالة تنفيذ هذه الفكرة إنسانيا لأن النساء تلد ولا تبيض. فقال نجيب محفوظ:

– عالعموم المشكلة فى البويضة ، والمصيبة إن البويضة دلوقت وصل ثمنها عشرة صاغ!

وحين أصيب الصديق "محمد الجمل" بأزمة قلبية أعطيت رقم تليفونه لنجيب محفوظ كى يطمئن عليه بناء على طلبه، وتصادف حين اتصل به أن كان تليفون "الجمل" معطلا وفى نفس الوقت كان اليوم الأول الذى يتم فيه إصلاح تليفون نجيب محفوظ الذى ظل معطلا طوال ذلك الصيف بمنزله بالإسكندرية، ولهذا قال:

– يظهر ان الخط اللى عطوهولى سارقينه من محمد الجمل!

وبمناسبة التليفونات قال نجيب محفوظ أن تليفونه بالقاهرة ظل لفترة طويلة ملتمسا بأحد خطوط الإذاعة فكان يطلب دائما بطريق الخطأ بدلا من الإذاعة، ومرة رفع السماعة بعد أن دق جرس التليفون فجاءه صوت قوى آمر بلهجة عنيفة:

– إدينى فهمى عمر.. أنا كمال الطويل.. فأجابه بنفس اللهجة القوية الآمرة:

– النمرة غلط.. وأنا الشيخ سيد درويش!

ومرة أخرى ظل تليفونه معطلا لفترة طويلة وفجأة سمع رنينه فى المساء وكان فى أشد الحاجة فى ذلك الوقت لاستخدامه فى أمر هام فرفع السماعة ليجد المتحدث يسأله:

- الأستاذ عبد السميع موجود؟

فأجابه بحماس شديد..

- ينصر دينك .. النمرة غلط..

ونجيب محفوظ معروف بالمجاملة الشديدة التى تضعه عادة فى كثير من المواقف الحرجة الضاحكة المربكة، فقد حضر شاب يوما ومعه زجل أعطاه لنجيب طالبا أن يقرأه فاعتذر الأستاذ بأدب شديد عن عدم وجود نظارة القراءة معه فأعطانى الشاب قصيدته لأقراها وألقيت عليها نظرة لأجد ما بها كلام فارغ مبعثر يخلو تماما من أى قيمة أدبية فهربت من المطب - تماما مثلما فعل الأستاذ - بأن أعطيت الورقة للشاب وطلبت منه أن يقرأها بنفسه وأدرت وجهى إلى البحر لأن "فشتى دائما عايمة" ولا أملك نفسى من الضحك فى مثل هذه المواقف خاصة حين كنت أنظر إلى علامات الدهشة الممزوجة بالدهاء والصبر على وجه نجيب محفوظ أثناء استماعه إلى هذه التفاهات. وظللت أنتظر بفروغ صبر سماع رأى الأستاذ الذى قال بعد فترة صمت وتأمل بلهجة تصعُب جادة:

- هى القصيدة حلوة بس أحسن لو تسمّعها لواحد "خبير زجل" يمكن تكون مكسورة!

العبقرية والغفلة فى بيت واحد

وقد اجتمعت العبقرية والغفلة فى بيت واحد هو بيت العقاد العبقرى وطباخه الساذج أحمد حمزة.

قال لى تلميذه الشاعر شوقى هيكل:

هذا من عجائب الدهر أن يجتمع فى بيت واحد، عملاق فكر وعملاق غباء، فالعقاد قوى العقل، ضعيف المعدة، وطباخه أحمد حمزة، ضعيف العقل قوى المعدة، ومن نوادره أن بعثه العقاد ليشترى "دجاجا" وحذره أن يضحك عليه البائع فى الثمن، وكان ثمن الدجاجة عشرة قروش أنذاك، سمع أحمد حمزة فى السوق من يقول أنه اشتراها أمس من "شبرا" بتسعة قروش ونصف القرش، فكيف تكون بعشرة قروش اليوم. وركب إلى شبرا وعاد فرحا، فسأله العقاد بكم اشتريت "الفرخة" يا مولانا؟

فقال : هى فى ميدان الجامع بعشرة قروش ولكننى اشتريتها بتسعة ونصف

سأله العقاد: من أين؟

فأجابه: ركبت تاكسى لشبرا.

سأله العقاد: وكم دفعت للتاكسى؟

وهنا يتنبه أحمد حمزة إلى غفلته ويقول : الله يخرب عقلى، ويضرب رأسه بيده!

وذات مرة بعثه العقاد ليشترى بيضا فوجده عند بائع بستة مليمات وعند بائع آخر بخمسة مليمات فاحتار واتصل بالعقاد تليفونيا ليسأله ممن يشترى؟ فيسأله العقاد: وكم دفعت ثمنا فى التليفون؟

وهكذا ما يحاول توفيره ينفق أكثر منه وهو لا يدرى.

* ولماذا كان يتحمله؟

- رغم أن تصرفات أحمد حمزة كانت تغيظه وتجعله يثور ثورة عارمة إلا أنه كان من الناحية السيكولوجية النفسية محتاجا لمثل هذه الدعابات مهما كانت تغيظه. العملاق هكذا، وأنا أذكر كلمة لفيلسوف ألمانى قال: إن كل الرؤوس تنحنى أمامى.. ليتنى أجد الصدر الذى أنحنى أمامه".

وحينما سئل العقاد: لماذا لا يستغنى عن خادمه الغافل، فقال: ومن الذى يضحكنى ، ومن الذى يحدثنى عن الإنسان من عشرات ألوف السنين؟

نصيحة العقاد

والعقاد الساخر الضاحك هو نفسه العقاد الذى يهوى رياضة المشى وهو نفسه العقاد الذى يحب الاصطياف. وهى النصائح التى يحب أن يقدمها لقرائه(*) "إضحك كثيرا. سر على قدميك ساعة يوميا، واذهب إلى المصيف شهرا كل سنة". وهل يفعل نجيب محفوظ أكثر من ذلك ، أو قريبا من ذلك.

(*) روز اليوسف ٧/١٠/١٩٦٣.

اسم قاسم أمين على المناديل الحريمى

ولیست کل حیاة العقاد ضحكات وتريض واصطياف، ولكنها شأن حياة كل إنسان تكتنفها الدموع والآلام ولو حتى لمجرد فراق كلب رافقه شطرا من عمره "ومن يومها - كما يقول - لا أطيق أن أسمع صوت كلب ينبح" كما اعترف لصافيناز كاظم، فما بالك بفراق الحبيبة:

وبكيت كالطفل الذليل أنا الذى... ما لان فى صعب الحوادث مقودى".. وبكاؤه من أجل الحبيبة المفارقة لسبب أو آخر حتى لو كانت الخيانة أليس هذا دليلا على قلب رقيق وإنسانية نبيلة، وأين ذلك من إشاعة عدائه للمرأة؟ إنه يعترف فى نهايات حياته مؤكدا(**) "أنا لا أعادى المرأة، وموقفى منها لا يقبل التعديل، ولقد كنت من مرشحى الدكتورة سهير القلماوى فى مجمع اللغة العربية، وفى أول كتاب لى طالبت بأن يقرر طبع اسم قاسم أمين محرر المرأة على كل منديل حريمى. ! إن تحرر المرأة الحقيقى هو ألا تكون رجلا".

العقاد علمنى

إنه العقاد صاحب الكرامة الذى يمد قلمه ولا يمد يده، ويرى أن الحمد وإن كان واجبا لكل نعمة فهو أوجب وألزم لنعمة الستر وعدم الحاجة فيقول "إنى أحمد الله على شيء واحد هو أنه لم يلجئنى للاحتياج إلى أحد فى أى وقت من الأوقات، فقبل أن يفرغ جيبى من النقود يكون الفرج فى الطريق".

هذا العملاق الذى ملأ الدنيا وشغل الناس كان يعمل وينتج ويبدع دون أن ينتظر الجزاء أو الثمرة إلا من ذات العمل نفسه ، إنه القائل "يجب أن يعمل الإنسان ما يجب عمله دون أن ينتظر على ذلك، أى جزاء، فالعمل هو أحسن جزاء وأعظم لذة".

وهل يبعد ذلك عن الدعائم التى بنى عليها نجيب محفوظ حياته ومسيرة عطائه حين يقول فى ذلك كلاما مقاربا للعقاد "لقد اعتبرت الفن حياة لا مهنة، "فقد حصرت اهتمامى بالإنتاج نفسه وليس بما وراء الإنتاج".

لقد تعلم نجيب محفوظ من العقاد الكثير والكثير.

(**) المصور ١٩٦٣/١١/١٥.

يقول "العقاد هو أول من نبهني إلى قيمة التراث الإسلامى والعربى، وفى الوقت نفسه هو الذى عرفنا بالفكر العالمى وعقد بين هذا وذاك مقارنات، مثلا: شوبنهاور وأبو العلاء المعرى، فجعلنا ننظر إلى الثقافة على أنها شيء واحد يسهم فيه الإنسان من أى مكان، وأنه لا موضع لتعصب لتراث دون آخر، وأعطانا القدرة على أن نعتز بتراثنا ، وعلمنا أن به ما يقارن بأحسن ما أنتجه الفكر العالمى من فلاسفة ومفكرين وأدباء وشعراء". وكان جماع شخصية العقاد كما لخصها نجيب محفوظ في كلمة واحدة هى "الحرية"، حين كتب يرثيه بعد رحلة عطاء استمرت "خمسة وخمسين" عاما.

العقاد هو الحرية

كتب نجيب محفوظ يقول تحت عنوان[*] "العقاد هو الحرية" ، إذا التمسنا لشخصيته فكرة يرمز بها إليها.. فالحرية هى الجمال فى فلسفته، وهى الديمقراطية فى سياسته ، وهى الفردية فى رأيه الاجتماعى. وهذه هى القيم التى دافع عنها، وسجن فى سبيلها، واضطهد كثيرا من أجلها ومنها استلهم أدبه على تعدد جوانبه فكان راندا كبيراً من رواد الشعر الرومانتيكى الثائر، وكان ناقدا فذا يدعو إلى تحرير العقل والشعور من سلطان السلف والتقاليد، وكان كاتب سيرة يؤمن بالعبقرية باعتبارها القوة الخالقة والموجهة وسط الأحداث والمجتمعات، وكان قصاصا تحليليا سيكولوجيا من طراز عال.. والتحليل النفسى هو أخطر الوسائل للتعبير عن الفرد إذا احتلت فكرة الفردية فى ذهن المؤلف المكانة الأولى بين حقائق الحياة .

ولم يتخل العقاد عن قيمه ولم تثبط همته فى الدفاع عنها طيلة خمسة وخمسين عاما بالرغم مما تعرضت له هذه القيم فى رحاب واسعة من الأرض من التطوير أو الزوال فكان مثالا للإخلاص والشجاعة..

نجيب محفوظ

---

[*] روز اليوسف ١٩٦٤/٣/٢٣.

طه حسين

الثائر

(*)"اعتبرنا جميعا فى شبابنا أن ثورة طه حسين ضد المناهج القديمة هى انتفاضة عقلية موازية للثورة الحقيقية التى فجرها سعد زغلول على أرض الواقع".

نجيب محفوظ

(*) الخميس ٢٠٠٠/١١/٢٣

أساتذتى(*)

لا أتذكر بداية محددة لتعرفى على طه حسين، ولكننى أذكر أننى كنت أعرفه طوال عمرى، ولا أدرى متى وكيف وأين سمعت عنه، ولكننى عرفت طه حسين الأديب وطه حسين الأستاذ وطه حسين العميد.

ولاشك أننى قرأت الأيام لطه حسين بمتعة لا مزيد عليها، وأنا لا أزال أتمرن على الكتابة ، ولعلنى كنت فى أوائل المرحلة الثانوية، فحاولت تقليدها فى كراسة أو كشكول وأسميتها "الأعوام" على نفس الوزن محاولا أن أقلد نفس الأسلوب ونفس الطريقة ، وأحكى فيها عن نشأتى كما حكى طه حسين عن نشأته . وقد أعطانا طه حسين فى رواياته المعروفة كل نماذج الرواية تقريبا، من رواية السيرة الذاتية فى "الأيام" ، إلى الرواية الموضوعية كما فى "دعاء الكروان" إلى رواية الأجيال كما فى "شجرة البؤس" التى هىَ أول رواية فى اللغة العربية من روايات الأجيال التى لا يخلو منها أدب أمة فى أوربا، وقد تأثرت تأثرا كبيراً "بشجرة البؤس" وظل هذا التأثير ينمو حتى كتبت "الثلاثية".

وقد ارتبط طه حسين الأديب، فى أذهاننا "بالحرية" والبحث العقلى الموضوعى كمفكر كبير.

ويعتبر طه حسين أحد الرواد مع العقاد والمازنى، وحسين هيكل، وسلامة موسى، الذين قامت عليهم حياتنا الأدبية فى مطلع القرن العشرين.

(*) من حوار لنجيب محفوظ مع المؤلف عن طه حسين كما أكد هو بخط يده فى نهايته ١٩٩٨/٨/٢٠ ونشر كمقدمة لكتاب "رسائل طه حسين" للمؤلف - دار ميريت.

فالعقاد شخصية لا تتكرر، والمازنى كان أديبا عظيما جداً لم يأخذ حقه فى حياته ولا فى موته رغم أنه كان من أدق الناس فى الترجمة، وله أسلوب من أجمل الأساليب العربية الأدبية يرشحه لأن يكون الروائى الأول، ولكن كان فى المازنى شئ من الاستهانة، الله هو الأعلم بأسبابها ، مما لم يجعله يتخصص فى شئ ويعطيه حياته.

فقد كان طه حسين والعقاد والمازنى ود. محمد حسين هيكل ، وسلامة موسى، من الرواد الذين لا يقل تقديرى لأحدهم عن الآخر فى مجال الأدب.

أما طه حسين الأستاذ فقد كان عميدا عندما دخلت كلية الآداب، ولم يكن بالنسبة لى أستاذا مباشراً للأسف - ولكن فى بعض الأحيان بعد الظهر، تكون لنا محاضرة، فى الوقت الذى كانت لطه حسين محاضرة قبلها أو بعدها، فأحضرها ، وكنت أرى من تلاميذه فى ذلك الوقت، سهير القلماوى، وكان طه حسين فى محاضرته يقرأ القصيدة ثم يترك الطلبة يشرحونها، ثم يسألهم فى دقائقها:

لماذا قال الشاعر ما قال ، ولماذا لم يقل شيئا غير ذلك الذى قال؟ أو أسئلة من هذا النوع، فكانت الدراسة على يدى طه حسين متعة وتربوية وفنية وجمالية جمالاً يفوق الوصف.

أما طه حسين العميد فقد راح يربينا تربية جامعية عظيمة، فينبه على الأساتذة ألا يسمحوا لنا بكتابة المحاضرات ، ولا يجوز لنا أن نقيد فى أوراقنا إلا اسم مرجع، أو سؤالاً نريد أن نسأله ، أما أن أقيد ما يقوله الأستاذ وأحفظه، فهذا ما كان يرفضه طه حسين، وكان يقول لنا: أكتبوا المحاضرات مما استوعبته عقولكم ، ولديكم المراجع فى مكتبة الجامعة. فكانت تربيته الجامعية لنا تربية عالية جداً. ولذلك اعتبرنا قرار إخراجه من الجامعة، كارثة، وقمنا بإضراب فى كلية الآداب شاركتنا فيه بقية الكليات والمدارس العليا.

ولكن طه حسين الذى تظاهرنا من أجله فى الثلاثينات غضبنا منه فى الستينات حينما قام بأول هجوم علنى على العقاد بعد وفاته من خلال ندوة تليفزيونية حضرتها، وقال فيها إنه لم يفهم "عبقرية عمر"، ولم نكن نعلم سوى أن العلاقة بين الأديبين الكبيرين هى علاقة مودة

وإعجاب متبادل ، فالعقاد يقدم لنا "هدية الكروان" شعرا، وطه حسين ينقده نقدا جميلا فى "الرسالة"، ويهديه "دعاء الكروان" نثرا بإهداء مطبوع:

إلى صديقى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

سيدى الأستاذ

أنت أقمت للكروان ديوانا فخما فى الشعر العربى الحديث، فهل تأذن لى أن أتخذ له عشا متواضعا فى النثر العربى الحديث، وأن أهدى إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص".

وفى مسرح الأزبكية اجتمعنا جميعا، وجاء طه حسين وتوج العقاد "أميرا للشعراء"، بعد وفاة شوقى، وكتب مقالا هزنا جميعا من الأعماق، مقدما فيه حيثيات تتويجه للعقاد أميرا للشعراء "لأن العقاد ليس مقلدا ولا يستطيع أن يقلد ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته، وشخصية العقاد فوق الفساد" كما قال طه حسين، فالعلاقة بين الاثنين كما رأيناها وسمعناها وقرأناها علاقة ممتازة ، فماذا حدث حتى يهاجم طه حسين ، العقاد بعد وفاته؟ لقد كان العقاد شخصية قوية مهيبة مخيفة فى حياته.

وقد اهتزت صورة طه حسين قليلا بعد هذا الهجوم، فنحن نحب طه ونحب العقاد، وقد هزنا ما قاله طه فى حق العقاد.

وفى الوقت الذى كان فيه العقاد كاتب الوفد الأول، وعلمت أن طه حسين كان عدواً لسعد زغلول، حزنت وغضبت، وقلت لنفسى يعنى يا دكتور طه بشعبيتك وعلو فكرة الحرية عندك وأنت رجل من صميم الشعب، فأنت مرشح لكى تكون كاتبا لسعد زغلول، فكيف تكون كاتب الأرستقراطية المصرية ؟ هذه لم أفهمها، وربما كان مبعث ذلك علاقته الشخصية والفكرية بحزب الأحرار الدستوريين.

ولكن بعد إخراج طه حسين من الجامعة، تلقفه "الوفد" وبدأ يكتب فى صحفه ومجلاته، فبدأت أقرأ له ككاتب سياسى، رغم أنه كان كاتبا سياسيا من قبل ، ولكننى لم أكن أقرأ له حينذاك حيث لم نكن بعد قد تعلمنا قراءة الصحف، حتى بدأت أقرؤه ككاتب من كتاب "الوفد" الكبار ، ثم تتبعناه حتى صار مديراً لجامعة الإسكندرية، ثم وزيراً للمعارف فى وزارة "الوفد" الأخيرة، وكان هو الذى قرر مجانية التعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وقال : إن التعليم ضرورة كالماء والهواء.

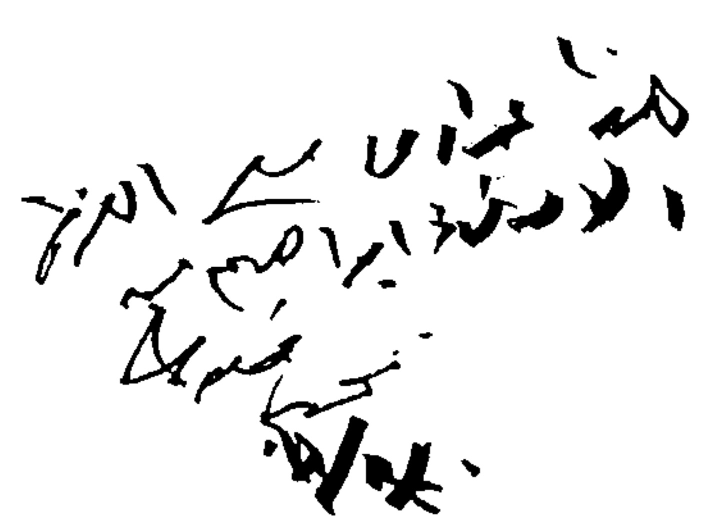
لكل هذا أرى أن طه حسين شخصية كبيرة متعددة الجوانب، تجد فيها الوزير المصلح، والمفكر الثائر، والأديب المتنوع الممتع، وله أسلوب خاص به مميز، لم تعرف "العربية" أيامنا أساليب مميزة بمثل هذه القوة سوى أسلوب طه حسين والمنفلوطى.

ورغم أننى أحببت طه حسين إلا أن طبيعتى كرجل منزو ، تجعلنى أحب من بعيد ، يعنى مثلا أنا أحب العقاد حبا يفوق كل وصف، وكنت أذهب إلى مكتبة "الأنجلو" لشراء الكتب وكنت أجده جالساً يقلب فى الكتب، ولكننى لم أجرؤ أبداً على الاقتراب منه والتسليم عليه، مقدراً انهماكه فيما هو فيه، فلم أضع يدى فى يده طوال عمره رغم إكبارى العظيم له واعتبار نفسى واحدا من تلامذته . كذلك كان طه حسين، ولكن بعد الثورة وإنشاء "نادى القصة" دعاه المرحوم يوسف السباعى بعد أن اختاره رئيس شرف للنادى، وقدمنا جميعا له ، فسلمت على "طه" وبدأت معرفتى به ، ولم يكن قد قرأ لى شيئا أبدا، ولكن المرحوم "أنور المعداوى" الناقد المعروف، قال له : أنت كتبت عن يوسف السباعى، وأمين يوسف غراب، وغيرهم ممن قرأت لهم، فاقرأ لنجيب محفوظ أيضا، فقبلها طه حسين، كنوع من الإحراج ، فالرجل لديه قراءاته ومسئولياته ، وقد كنت أهديه رواياتى كما أهديها لكبار أساتذتى ممن تتلمذت عليهم وأحببتهم وتأثرت بهم، وربما يكون طه حسين لم يهتم برواياتى فى البداية ، ربما لأنه لم يكن يعرفنى ، ومن غير المعقول أن يقرأ طه حسين كل رواية جديدة تأتى إليه، فلما تعرفت عليه فى "نادى القصة" وقدمنى له "المعداوى" ورجاه أن يقرأ لى ، كان من حسن حظى أنه كان راضيا عما كتبت، فقد قرأ لى أول ما قرأ "زقاق المدق" وكتب عنها مقالا رائعا، ثم كتب مقالاً آخر لا ينسى عن "بين القصرين" ، فقد عرض للرواية الأولى وقام بتحليلها وقال : إنها رواية تصل لمستوى الأدب العالمى، وكتب عن الرواية الثانية مشيدا بما هو أكثر من ذلك.

لقد رفع طه حسين ، روحى المعنوية لدرجة لم أكن أتصورها، خاصة أن ذلك قد جاء بعد حرمان طويل من النقد منذ أن تناول أعمالى "سيد قطب" و"أنور المعداوى"، فمرت سنوات طويلة حتى كتب عنى طه حسين.

ثم حدث اتصال بيننا، ودعانى لمقابلته فى بيته، فكنت أتردد عليه، أحيانا أذهب إليه وحدى، وأحيانا أذهب بصحبة ثروت أباظة، وفى هذه اللقاءات كان يدور حديث فى الأدب وفى السياسة، وكان يتبسط معنا، ولكن شخصيته كانت تفرض الأستاذية التى ربما لم يكن يحب أن يظهرها كى لا يضايق الناس بها، ولكنه رغم تبسطه معنا إلا أننا كنا نشعر بأستاذيته وهو يتحدث إلينا.

لقد كان رجلا عظيما مضيئا فى شخصيته، وفى إبداعاته ككاتب متعدد المواهب، وفى ترجمته لأدب الإغريق، ومؤلفاته الأدبية والعلمية، فمن ذا الذى يستطيع أن يجمع بين الفن والعلم ويجيد فيهما كما فعل طه حسين إلا أن يكون رجلا عظيما. ملأ عصره ولا يزال يثير الجدل بعد رحيله، فنراه فى حالات القوة وحالات الضعف، ونشاهده فى حالات التوافق وحالات التناقض، وكل ذلك وغيره مما يجعلنا نحبه أحيانا، ونغضب منه أحيانا أخرى، نقترب منه بعض الوقت، ونعجب له، ونحبه ونقدره باعتباره رمزاً من أبرز رموز النهضة الأدبية والفكرية فى القرن العشرين.



الثائر

"ويكفى أن أذكر لهم أديبنا البارع نجيب محفوظ فلست أعرف أصدق منه تصويرا لحياة الشعب المصرى" "وهو على ذلك يكتب بلغة فصيحة لا غبار عليها وترتقى بقصصه أحيانا إلى منازل الشعر الرفيع دون أن يشق على قارئ أو سامع فى شىء مما يكتب أو يقول"

د. طه حسين

يعتبر نجيب محفوظ أن طه حسين يمثل عقل النهضة الأدبية التى بدأت فى مطالع القرن العشرين ويركز على ملمحين هامين من ملامح شخصية عميد الأدب العربى، حيث يقول عنه أنه(*) "رجل الذكاء، وهو يظهر فى مكانتين من أهم مكاناته، البساطة والسخرية، وإنك لتقرأ لطه حسين فلا تعثر على كلمة شاذة أو جملة معقدة أو تعبير ملتو أو فكرة غامضة، وإنما تفهم كل ما يريد أن يفهمك إياه وأنت مرتاح سعيد فى نشوة وصفاء، وليست هذه السهولة مما يدل على سهولة الموضوع الذى يعالجه الكاتب أو على ابتذاله وكأنها دلالة على الذكاء النافذ، الذكاء الرياضى - أو الذكاء الفرنسى إن شئت - الذى لا يطيق الغموض أو التعقيد والذى يعطى محصوله بسيطا بساطة البديهيات الرياضية وإن كان تمثيله وهضمه من أعسر الأمور، فهذا هو السهل الممتنع حقا.

أما السخرية فشديدة الوضوح فى أسلوب طه وتصويره للأمور ، وهى فى ماهيتها جمع للمتناقضات عن طريق الإشارة الخفية واللمحة البعيدة وقوامها قوة الملاحظة والانتباه الشديدين.

والذكاء يؤدى للشك، وقد كان الشك أساس البحث عند طه حسين، ذلك البحث القيم الذى صار أنموذجا للمفكرين والذى أحدث أثرا كبيرا فى بعث الآثار الأدبية الإسلامية".

ويضيف نجيب محفوظ "وهل ينكر أحد أن لطه حسين آثارا أدبية بلغت الذروة فى جمالها وقوتها".

لعنة كتابين

ورغم فضل طه حسين فى بعض الآثار الأدبية الإسلامية إلا أن كتابا واحدا ظل يعلق برقبته متقدما بعريضة اتهام فى عقيدته، وهو كتاب "فى الشعر الجاهلى" ، ويشترك معه نجيب محفوظ فى الانفراد بكتاب واحد تطارده لعنته وهو رواية "أولا حارتنا" ، رغم آثاره الأدبية الكثيرة الجميلة، ولكنها النظرة المتشائمة التى لا ترى إلا نصف الكوب الفارغ، ولا تلاحظ فى الثوب الأبيض إلا النقطة السوداء، هذا إذا كانت هناك نقطة سوداء أصلا.

(*) المجلة الجديدة فبراير ١٩٣٤.

مطلوب رفع الدين عن اضطراب العلم

فطه حسين هو صاحب : "على هامش السيرة" ، "الوعد الحق"، "الشيخان" ، "الفتنة الكبرى"، و"مرآة الإسلام".

وطه حسين هو الذى قاوم الحركات التبشيرية فى مطالع القرن العشرين باعتبارها خطرا على الوطن والعقيدة مع حرصه على عدم المساس بالوحدة الوطنية.

وطه حسين هو أول من دعا إلى الفصل بين القرآن والعلم باعتبار أن القرآن كتاب يقين، والعلم متطور لا يثبت فى نظرياته على حقائق ثابتة ، ومن الخطأ ربط الثابت بالمتغير أو كما يقول(*) "أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين ، وهذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة المتناقضة التى تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة ، والتى تنشأ عما نأكل وما نشرب وما نرى وما نسمع وما نحس"؟

أليس من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية فى حصن مقدس منيع لا تصل إليه أبخرة العدس والفول والزيت والطعمية وغير ذاك مما نأكل لنهضمه مرة ولا نهضمه أخرى، وينشا عن سهولة الهضم وعسره حسن تفكيرنا أو سوؤه، اللهم إنى اعتقد أن الأرض تدور وقد لا تدور، قد تكون كرة أو سطحا أو كمثرى ، وأن الزمان قد يوجد وقد لا يوجد، وأن نيوتن قد يصيب وقد يخطئ، وأن أينشتين قد يحق وقد يبطل. كل هذا ممكن، ولكن هناك شيئا لا أحب أن يحتمل هذا التناقض وهذا التردد، وهو القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية، إنا لنحسن الإحسان كله إذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه.. فماذا يرى العلماء؟

* * *

لقد نُسيت كل هذه الجهود والممارسات الأدبية الإسلامية وغيرها مما يحتاج إلى تفصيل آخر، فى كتاب آخر مستقل ولم يتذكر شانئو طه حسين إلا كتابه "في الشعر الجاهلى" والذى كان قصده الباطن منه غير قصده الظاهر، كما أثبتت الدلائل والأحداث بعد ذلك.

(*) نقلا عن د. عاطف العراقى "التنوير عند طه حسين وكتابه "من بعيد" – القاهرة عدد ١٩٨٩/١٢/١٥.

حبه للخصومة

ظاهر الأمر أن طه حسين كان يطعن فى المقدسات ولكن حقيقة الأمر أنه كان يهدف إلى التحرر الفكرى لبنى وطنه عربا ومسلمين ، وما كان باستطاعته أن يحقق هدفه لو لم يلفت الأنظار لفتا، ويلوى الأعناق ليا ويصدم المشاعر صدمة يتحقق بها غرضه من كتابه "فى الشعر الجاهلى" ، وما سبيله إلى ذلك إلا أن يهز العواطف الإسلامية ، ولماذا الإسلامية تحديدا؟ إلا أن يكون خطابه موجها خاصة إلى الناطقين بالعربية ذوى العقيدة الإسلامية على وجه الخصوص وإلا فلماذا طعن فى نسب الرسول، ولماذا شكك فى وجود إبراهيم وإسماعيل، ولم يسحب هذا الشك على موسى وعيسى ، ذلك لأنه قصد بكتابه مخاطبة العقل العربى على وجه الخصوص والإسلامى على وجه العموم، لكى يتحرر من قوالبه الجامدة، وينطلق من النقل والتقليد إلى التفكير والتجديد.

فالشعر الجاهلى، لم يكن كتاب علم وإن كان يقصد به الدعوة إلى العلم والأخذ بأسبابه.

يقول المفكر الأردنى ناصر الدين الأسد(*) "فطه حسين إذن لم يكن فى حقيقة الأمر جادا فى أجزاء مادة هذه الدروس حين ألقاها وحين أملاها وحين أصدرها فى كتاب، بل كان عابثا بعقول كثير من الناس حينئذ أشد العبث، ساخرا منهم أعنف السخرية، متوخيا من ذلك شيئاً وراء المادة التاريخية للكتاب، وقد بلغ الذروة فى العبث والسخرية حين عاد بعد عشرة أعوام كاملة من صدور كتابه، وبعد أن حقق له الكتاب ما كان يصبو إلى تحقيقه ، عاد إلى الشعر الجاهلى وإلى شعراء الجاهلية... "ثم يشير إلى نفسه فى هذا الحديث الذى أداره بينه وبين صاحبه فى "حديث الأربعاء" .

"قلت ضاحكا: وهل عرفت منى إلا المحاورة والمداورة وتقسيم الشعرة إلى نصفين أو إلى أثلاث أو إلى أرباع، والجد فى إثبات ما ألف الناس أن ليس إلى إثباته من سبيل، ونفى ما استيقن الناس أن ليس إلى نفيه سبيل.

وقال على لسان صاحبه يخاطبه ويصفه: وخصلة ثالثة يتكشف

(*) من كلمته فى الاحتفال بذكرى طه حسين ما بين ٢٦-٢٨ فبراير ١٩٧٥، الذى نظمته وزارة الثقافة المصرية.

عنها هذا الحديث ، وهى حبك للخصومة وإسرافك فى حبها، ألست ترى أنك ما تفتأ شغوفا بالخصومة متعلقا بأسبابها ، تجد حينا فتكون مرا، وتسخر حينا فتكون لاذعا".

فقد يسر إذن طه حسين على دارسيه سبيل دراسته حين كشف لهم خبايا فكره، وصارحهم بمكنون نفسه ودلهم على مفاتيح شخصيته، ونحن الآن نستفيد من كل ذلك فى فهمنا لمقاصده من كتابه "فى الشعر الجاهلى"... "ومع ذلك بقى الكتاب هو نفسه فى جوهره الحقيقى الذى لفت الناس واستوقفهم وأثر فيهم، ولو كانت مادة الكتاب بتفصيلاتها أو آراء المؤلف وإشاراته الدينية التى حذفها فى الطبعة الثانية وما تلاها من طبعات، هى موضع عناية الناس لذهبت قيمة الكتاب وانقطع تأثيره بما أحدث فيه المؤلف من تغيير، فضلا عن رجوع المؤلف عن أكثر آرائه بما نشره بعد عشر سنوات من صدور كتابه - بعنوان "حديث الأربعاء" "... ولكن الكتاب - كان - دعوة ثورية إلى منهج متكامل فى الدراسة الأدبية مهما يعتوره من عيوب التطبيق فى المادة نفسها ، ومهما تكن بعض الآراء التى ضمنها صحائفه مستعارة أو مقتبسة.

وكل صاحب دعوة ثورية لابد أن يجنح إلى الجموح وإلى الهدم وإلى إثارة الناس بالتعريض ببعض ما ألفوا ، وبالهجوم على ما يعتقدون، فيصنع بذلك رأيا عاما ويستميل جمهورا من الأنصار يزيد عدده بما يخوض من معارك مع جمهور الخصوم والمخالفين.

الكتاب دعوة ثورية إلى منهج متكامل فى الدراسة الأدبية، ألقاها صاحبها فى الحرم الجامعى من على منبر التدريس ، ثم اتسع نطاقها فى الصحف والمجلات والكتب والأندية الخاصة والعامة وساحات النيابة والقضاء والجمعية التشريعية، وتلقفها تلاميذه فى الجامعة وتحمسوا لها وأخذوا يدعون إليها ويطبقونها على أنفسهم، وعلى تلاميذهم. ومن جامعة القاهرة وأساتذتها وطلابها انتقلت إلى الجامعات الأخرى فى كل قطر من أقطار العربية جيلا بعد جيل.

ومع الزمن أخذت مادة الكتاب الجزئية تسقطشينا فشينا وتنسى ، وأخذ جوهر الكتاب ومنهجه المتكامل تتضح معالمهما، وتعمق فى العقول والنفوس فهما وتطبيقا. وما كتب كاتب فى تراثنا بعد ذلك إلا كان امتدادا لما كتب - طه حسين - سواء خالفه فى بعض آرائه أم وافقه، وربما

كانت المخالفة فى هذا مساوية للموافقة فى دلالتها على التأثر وعمقه، (فطه حسين) - فى حكم النزاهة الموضوعية والتجرد - هو بحق رائد المنهج المتكامل فى الدراسة الأدبية الحديثة، لا يمت بسبب إلى ما قبله. وكل ما بعده يمت إليه بأسباب".

طه حسين هو الحل

(*)"ولكن مما لاشك فيه أنه لا يفيد طه حسين ولا الحقيقة أن نزعم أن نسقه ومنهجه الجديد... "قد جاء من فراغ ، أو فجأة دون مقدمات ، ذلك أن شواهد الأمور تقول أن التجديد فى الفكر العربى عامة وفى دراسة الأدب، قد بدأ قبل طه حسين ربما بأكثر من قرن من الزمان.

إن العناصر الفكرية الهامة التى نقلها المبعوثون الذين سافروا إلى أوروبا فى عصر محمد على وخلفائه (الطهطاوى وعلى مبارك مثلا) كانت - دون شك - ذات تأثير فى تمهيد أرضية التنور الفكرى الذى وصل إليه عصر طه حسين، ولاشك كذلك أن الدعوات الإصلاحية التى قام بها كل من الأفغانى ومحمد عبده كانت كذلك أرضا صالحة ليبنى عليها طه حسين وجيله أفكارهم الأكثر جذرية وعنفا، كذلك لا يمكن إنكار الدور الهام الذى لعبته المعارك التى سبقت طه حسين فى تهيئة الأرض لنوع من النشاط الفكرى / الصدامى بين القوى المتعارضة فى الحياة السياسية والفكرية فى مصر... "معارك أربعة أساسية لا يمكن الفصل بينها بأى حال من الأحوال:

معركة قاسم أمين حول تحرير المرأة ، ومعركة على عبد الرازق حول الإسلام وأصول الحكم، ومعركة مختار حول تمثال "نهضة مصر" ثم معركة طه حسين حول "فى الشعر الجاهلى" "ولا يستطيع المتابع للحركة الفكرية منذ أواخر القرن الماضى إلا أن يلاحظ حركة الشك والتجديد والتنوير فى الفكر المصرى والعربى على كافة المستويات، تسرى سريان ثورة ١٩١٩ وليس أقل منها، مثل هذا الجو الحار والصراعى كان لابد أن ينتهى بثورة أو ثورات، ويمكننا أن نعتبر

(*) د. سيد البحراوى "قراءة فى الشعر الجاهلى" - مخطوطة عثرت عليها ضمن أوراق طه حسين.

أن ثورة ١٩ هى الثورة الأم لهذه الثورات. ولكننا لا نستطيع أن نغفل ثورة مختار فى الفن التشكيلى أو ثورة سيد درويش فى الموسيقى أو ثورة طه حسين فى دراسة الأدب العربى".

ويذهب د. سيد البحراوى إلى درجة القول أن ثورة طه حسين هذه كانت مسئولة عن ظهور "جماعة الإخوان المسلمين (بعد عامين فقط من معركة فى الشعر الجاهلى) وحتى الجماعات الإسلامية المتطرفة الآن. ورغم أنه ليس المسئول وحده عن هذا، فإنه كان واحدا من أبرز المسئولين"... وهذا كلام عجيب وغريب وفيه تهافت للربط بين كتاب "فى الشعر الجاهلى" وميلاد هذه الجماعة، إلا أن يكون وجودها ردا على الإشارات الدينية فى هذا الكتاب، وهى مسألة لا نعتقد بها، ولم يقل أحد أن تشكيل هذه الجماعة كان طه حسين أحد المسئولين عنها، فهذه قصة ، وتلك قصة أخرى مختلفة ، وهو تحميل لطه حسين وكتابه بأكثر مما يحتمل لمجرد ميلاد جماعة الإخوان بعد سنتين من معركة الشعر الجاهلى، وهى صدفة لا نتيجة، ومع ذلك فإن طه حسين الذى صدم الرأى العام بكتابه لم يتعرض للقتل بسبب آرائه الواضحة الصريحة التى لا تقبل اللبس، بينما تلميذه نجيب محفوظ قد تعرض لمحاولة اغتياله بسبب رواية "أولاد حارتنا" التى تحتمل اللبس والتأويل، وهى عمل فنى لا بحث نقدى كالشعر الجاهلى، تحتمل أكثر من تفسير حسب متلقيها، ومع ذلك اختار البعض التفسير الذى يرونه إدانة، تاركين اعتراف صاحب العمل نفسه أنه لا يقصد ما ذهبوا إليه ولم يخطر بباله هذا التفسير المتعسف، بل إنه كان مستعدا للحوار والمناقشة، وهو ما وجده طه حسين فى كتابه، وافتقده نجيب محفوظ فى روايته، ومع ذلك لم يخض معركة من أجل نشر روايته فى كتاب رغم كل الإغراءات معتبرا أن بلاده تخوض معارك كثيرة وليست فى حاجة إلى معركة جديدة تضاف إلى معاركها بغير داع، ورغم كل هذا وذاك لم يسلم نجيب محفوظ من محاولة اغتياله.

مما يجعل البعض يرى(*) "أن زمننا أسوأ بكثير من زمن طه حسين بحيث يحق لهم "الترحم" عليه والحنين إليه، ولذلك فإن هؤلاء

(*) المصدر السابق.

يمكن أن يرفعو شعار "طه حسين هو الحل"!... "فقد وجد طه حسين حماية من الحكومة ومن الجامعة ووجد جوا علميا يناقشه بقدر ما من العلمية . قد لا نجده الآن".

بل إن طه حسين نفسه يحن إلى أيامه(*) "إلى تلك العهود التى كنا نشكو فيها المشقة والجهد ونضيق فيها بالحياة والأحياء، ثم أصبحنا الآن نود لو تعود إلينا معها حياة هى من غير شك خير من الحياة التى نحياها الآن. كنا فى تلك العهود أحرارا نفكر ونقول ، كما نريد أن نفكر ونقول، وكنا نلقى ألوانا من المقاومة فلا تزيدنا إلا طموحا إلى الحرية وإمعانا فيها. وكنا ننظر إلى الجهاد فى سبيل الرأى وحرية الرأى على أنه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر، فأين نحن من هذا الآن؟".

نجيب يكشف لخالد محمد خالد هدفه من أولاد حارتنا

ورغم عدم قناعة نجيب محفوظ بالأسباب التى قام البعض بطرحها تأويلا وتفسيرا متعسفا لروايته "أولاد حارتنا" إلا أنه قرر عدم نشرها إلا حينما يكتب لها المقدمة مفكر إسلامى كخالد محمد خالد، أود. أحمد كمال أبو المجد، أو الشيخ الغزالى(**) ، وقد نشرت ذلك فى حينه فى حوار مع نجيب محفوظ بمجلة الإذاعة والتليفزيون التى أعمل بها صحفيا، وقد رحب خالد محمد خالد باقتراح نجيب محفوظ ولكنه طلب فقط معرفة الظروف والملابسات التى أحاطت بكتابة "أولاد حارتنا" ، والهدف منها حين فكر فى كتابتها، ونقلت استفسار خالد محمد خالد إلى نجيب محفوظ الذى رحب بالرد على استفساره شفويا من خلال شريط تسجيل، وهذا هو رد نجيب محفوظ الذى أنشره للمرة الأولى:

نجيب محفوظ : أبدأ كلامى بتحية إلى الأستاذ خالد لأن له منزلة كبيرة فى نفسى من قديم الزمن.

وإجابة على تساؤله أحب أولا أن أوضح شيئا وهو أن الكاتب أحيانا قد يقصد شيئا، والعمل الذى يكتبه يحقق هذا الشيء وأشياء أخرى،

(*) العراقى - السابق.

(**) لم يكن الشيخ الغزالى قد اعترف بعد أنه الذى كتب العريضة التى يحرض فيها على مصادرة "أولاد حارتنا".

ولذلك فإن أى عمل لى لم أعرف أبعاده كلها إلا بعد النقد، وهذه حقيقة أحب أن أعرضها فى الأول، وطبعا الأستاذ خالد يدركها تماما لأنه من الكتاب، وإن كان هو ككاتب ومفكر يعرف هدفه ويعرف كيف يصل إليه، لكن الفن ليس هذا فقط لأنه يكون هناك جزء فى الوعى، وأجزاء فى اللاوعى تطلع مع القلم.

وعندما أسأل نفسى الآن: "أولاد حارتنا" كيف كتبتها ولماذا؟

الحقيقة أننى كنت فى ظروف سنة ١٩٥٩ قد بدأت أشعر بشىء من الخيبة بالنسبة لثورة يوليو ١٩٥٢، فهى قد جاءت وحققت أعمالا عظيمة، ولكن بدأنا نسمع كثيرا: اليوم قبض على فلان ، اليوم يعذبون فلانا، وفيه ناس بتستفيد فوائد كبيرة جدا إلى أن أصبحوا أكثر من الإقطاعيين، وأشياء من هذا النوع، وبدأ الواحد بعد الفرحة الأولى يرمش "شوية" ، فصورت حارة مصرية تماما، وهناك "وقف"، وهذا "الوقف" لخير الحارة، وقد وقع بين فريقين، فريق فتوات تريد أن تنهبه ، وفريق آخر طيب يريد أن يحافظ على وصية "الوقف"... وهذه كلها حاجات مصرية.

ومن الرؤية السياسية فى الوقت نفسه كنت أفكر فى مظلة من تاريخ الإنسانية، ففكرت فى الوصية الكبرى، وفى هؤلاء الناس الذين حاولوا تحقيقها للإنسانية، وكأننى أريد أن أقول من خلال هذا لرجال الثورة فى الآخر: أنتم مع أى فريق. فريق الفتوات ، أم مع فريق الرسل.

وهذا هو الذى كان فى ذهنى عندما كتبت.

هل هذا طلع بالضبط أم أن هناك أشياء أخرى طلعت معاه؟ هذه هى الحكاية كلها.

والأمر الذى لاشك فيه أننى فى حياتى لم يأت إلىّ شك فى الله، وإذا كنت قد بدأت أفهم الدين فهما خاصا فى وقت المراهقة، فإننى قد فهمت الإسلام على حقيقته تماما بعد ذلك ، بل أعتقد اعتقادا جازما وحازما أنه لا نهضة حقيقية فى بلد إسلامى إلا من خلال الإسلام.

ويضيف نجيب محفوظ: الرواية طلعت وقرأها الناس ثم انهالت الاتهامات. والاتهامات كانت بناء على عريضة سيئة أرسلت للأزهر، والأزهر بينى وبينك لا يقرأ روايات مسلسلة. المهم قرأ الرواية على أنها تاريخ وليس على إنها رواية .

والذين أرسلوا العريضة للأزهر قالوا فيها إن نجيب محفوظ بيفرض فلان ربنا، وفلان النبى . فاعتبروا هذا تجسيدا لله، وليست حارة وناس.

لا.. هم اعتبروها ربنا بالذات. طيب هو ربنا بيتزوج واللا ربنا بيخلف أو بيتعارك ؟!

ودخلنا فى سوء تفاهم أدبى لا حصر له.

وهناك من قالوا إن الرواية لا تخلو من التصوف والإيمان.

ثم جاء الحاسم متمثلا فى إدارة النشر التى قالت لى:

نحن لا نريد أن ندخل فى مشاكل مع الأزهر، وإذا كنت تريد أن تطبعها اطبعها فى الخارج.

وقال لى الأستاذ المرحوم "الخولى" وهو كان مدير الرقابة على النشر:

هل أنت مستعد أن تتناقش معهم؟

فقلت له : نعم أنا على استعداد.

وكنت أنا مدير الرقابة على المصنفات الفنية.

فقال لى : تأتى لى فى المكتب يوم الإثنين وسيكونوا موجودين. وذهبت فى الميعاد ولم يأت أحد.

فقال لى الأستاذ الخولى: على العموم عندما يأتون سأرسل إليك كى تأتى، ثم فات على هذا الكلام ثلاثين عاما ونسيت الرواية لأنها ليست مطبوعة فى مصر خالص، وذكرياتها سيئة، إلى أن جاءت جائزة نوبل فحدثت كل هذه الزوبعة وهى زوبعة غريبة، حتى الناس إللى قالوا أننى أستحق العقاب. طيب ما أنا كنت أستحقه من ثلاثين عاما.. لماذا بعد الجائزة؟

ودى حكاية "ولاد حارتنا؟".

(انتهى كلام نجيب محفوظ إلى خالد محمد خالد من خلال شريط التسجيل)، وعندما سمع خالد محمد خالد رسالة نجيب محفوظ إليه عبر جهاز التسجيل، قال لى إنه فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح، وذلك لن يتيسر له إلا بالجلوس إلى نجيب محفوظ، وطلب منى أن أخبره بأن يختار الزمان والمكان الذى يريده، وسيذهب هو بنفسه فى الموعد والمكان اللذان سيحددهما لينفرد بالجلوس إليه ليستمع منه إلى حكاية "أولاد حارتنا" بشكل أكثر تفصيلا لأن لديه عدة أسئلة يريد أن يعرف

إجابتها منه على وجه اليقين.

ولكن نجيب محفوظ لم يحدد موعدا وبالتالى لم يتم اللقاء المنتظر.

ثم حفظ التحقيق

ولم تكن "رواية أولاد حارتنا" هى المشكلة الوحيدة لنجيب محفوظ وإن كانت هى المشكلة التى بقيت بغير حل، بعكس روايات أخرى كانت تأخذ وقتها كمشكلة أو كأزمة ثم تمر وتصبح تاريخا وذكريات، كما حدث بالنسبة لإحدى الروايات التى أنقذه من التحقيق بسببها، شقيق طه حسين نفسه يقول[*] "عندما صدرت رواية "القاهرة الجديدة" - والناس يقرأون الروايات وكأنها حكايات حقيقية - كنت أعمل سكرتيرا لوزير الأوقاف، وحدث اضطراب فى الوزارة ، وتساءلوا عم أقصد، وقام بالتحقيق معى الشيخ أحمد حسين شقيق الدكتور طه حسين، وسألنى عن الأحداث، فقلت له هذه رواية مثل التى علمها لنا أخوك طه حسين، ففهم الرجل أننى تلميذ طه حسين رغم أننى لم أره.

فقال لى: كويس أنا فهمت الموضوع وسأشرحه لهم.

وقال: لماذا تكتب عن فضائح الباشوات وتعرض نفسك للمشاكل، أكتب عن الحب أفضل وأكثر أمنا.

[**]"تطلعت إليه ولم أجب .. ثم حفظ التحقيق".

فوجئ أن الممتحن هو طه حسين

وقد قرأ نجيب محفوظ لطه حسين قبل أن يلتقى به لأول مرة[***] "عند التحاقه بكلية الآداب. وأثناء الاختبار الذى يجرى للمتقدمين فوجئ أن الممتحن هو طه حسين شخصيا.

يقول الأستاذ : "سألنى: لماذا اخترت قسم الفلسفة ؟

بدأت الإجابة برغبتى فى معرفة سر الكون وأسرار الوجود.

أصغى إلىّ جيدا ثم قال ساخرا : أنت جدير بالفلسفة فعلا لأنك

---

[*] نصف الدنيا ٢٠٠١/٢/٤.

[**] جمال الغيطانى - أخبار الأدب ١٩٩٦/١٢/٨.

[***] السابق.

تقول كلاما غير مفهوم"!

فقيه النفس الإنسانية

ولم يكن طه حسين يدرى أن هذا التلميذ سيصبح نابغة فى الرواية وأنه هو نفسه سيكتب عنه أجمل ما كتب عن نجيب محفوظ مفاخرا بأنه خريج كلية الآداب التى كان عميدها،(*) "لهذا فهو يختم مقاله عن رواية "بين القصرين" بالحديث عن نجيب محفوظ الجامعى الذى وفى للجامعة التى تخرج فيها أصدق الوفاء وأقومه بالعمل الصادق المنتج فأثبت أنها لم توجد عبثا، وأنها لم تخرج العلماء فحسب ، وإنما أخرجت معهم الأدباء البارعين، وأخرجت معهم أبرع القصاصين المصريين "وكل شخصية فى هذه دليل واضح قاطع على أن الأستاذ نجيب محفوظ قد انتفع بما سمع فى كلية الآداب من دروس الفلسفة.. لم يصبح فيلسوفا ولا مؤرخا للمذاهب الفلسفية، وإنما أصبح فقيها بالنفس الإنسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها قادرا على أن يضع يد قارئه على أسرارها ودقائقها وحسبك بهذا كله نجحا للجامعة ونجحا لخريجها نجيب محفوظ".

كاتب ممتاز

(**)"إن كتاباته عنه تدل على أن دهشته بفنه كانت عظيمة . وكانت "زقاق المدق" هى أول رواية قرأها له ، فتقبلها قبولا حسنا : "أريد أن أحدثك اليوم عن كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأصدقها للأستاذ نجيب محفوظ .." وينهى طه حسين مقاله بقوله "ما أجدر هذا الكتاب أن يقرأ، فهو كتاب ممتاز حقا، قد صدر عن كاتب ممتاز ما فى ذلك شك، ولقد فرغت منه بعد أن أنفقت فى قراءته أياما فلم يسعنى إلا أن آخذ فى كتاب - آخر من كتبه هو "بداية ونهاية".

يشبه السحر

(***)"كانت الثلاثية ثالث رواية مصرية من روايات الأجيال،

(*) نجيب محفوظ فى صحبة طه حسين - لمحمد محمود عبد الرازق - عالم الكتاب العدد الفضى الخامس والعشرون يناير - فبراير - مارس ١٩٩٠.

(**) السابق.

(***) السابق.

الأولى لطه حسين ، والثانية لعبد الحميد جودة السحار، لكن هذين العملين لا يقارنان بها، كما لا يصمد أمام المقارنة أى عمل روائى عربى آخر، وهذا ما بدأ به طه حسين مقاله الخطير وشهادته الفذة التى اتخذت عنوان "بين القصرين قصة رائعة للأستاذ نجيب محفوظ". ويلتحم العنوان ببداية المقال - كما يحلوله أحيانا - فيستطرد قائلا "فقد أتيح له فى هذه القصة الرائعة البارعة نجاح ما أرىأنه أتيح له مثله منذ أخذ المصريون ينشئون القصص فى أول هذا القرن - العشرين - "فلأقدم تهنئتى إذن كأصدق وأعمق ما تكون التهنئة إلى كاتبنا الأديب البارع نجيب محفوظ ولأقدمها إليه بلا تحفظ ولا تحرج فهو جدير بها حقا لأنه أتاح للقصة أن تبلغ من الإتقان والروعة ومن العمق والدقة ومن التأثير الذى يشبه السحر ما لم يتحه لها كاتب مصرى قبله.

وما أشك فى أن قصته هذه "بين القصرين" تثبت للموازنة مع ما شئت من كتاب القصص العالميين فى أى لغة من اللغات التى يقرأها الناس".

أدبينا البارع

(*) "ولا غرابة فى أن يهتم طه حسين باللغة ، ولا يتهاون مع عشرات المؤلفين مهما بلغوا من الشهرة أو الاتقان فنراه يصب جام غضبه على يوسف السباعى لاستخفافه بالفصحى فى "رد قلبى" وينبه يحيى حقى إلى ما فى قصة "صح النوم" من هنات لغوية .. "وإن كان قد كتب قصة "بلغة فصيحة نقية ليس فيها شيء من "الابتذال". أما فريد أبو حديد فلفظه فى قصة "أنا الشعب" كما عرفناه دائما جزل رصين تشيع فيه عذوبة محببة إلى النفس لولا هنات تلقاك هنا وهناك ليست بذات بال، ولولا لوازم لا يكاد يبرأ منها شأنه فى ذلك شأن كثير من الكتاب تلح عليهم ألوان من التعبير فلا يستطيعون منها فكاكا". وعميد الأدب العربى لا يرضى عن غلو المحافظين والمجددين، ويدعو إلى طريق وسطى يحفظ على اللغة حياتها وصفاءها ونقاءها. والطريق الوسطى - كما أوضح فى مقال له بعنوان "تناقض" - هى طريق التيسير.. "وقد رأى فى لغة نجيب محفوظ مثلا يحتذى فى مقال له بعنوان فى "الذوق الأدبى" ..

(*) السابق.

"ويكفى أن أذكر لهم أديبنا البارع نجيب محفوظ فلست أعرف أصدق منه تصويرا لحياة الشعب المصرى. ولست أشك فى أن كل قارئ أو سامع لقصصه يفهم عنه فى غير مشقة مهما تكن بيئته ، ومهما يكن حظه من الثقافة والتعليم، وهو على ذلك يكتب بلغة فصيحة لا غبار عليها وترتقى بقصصه أحيانا إلى منازل الشعر الرفيع دون أن يشق على قارئ أو سامع فى شيء مما يكتب أو يقول".

هنا تكمن عظمته

ولاشك أن نجيب محفوظ قد تأثر بطه حسين وبأسلوبه بطريقة أو بأخرى من خلال الجمع بين الأصالة والمعاصرة، أو كما عبر نجيب محفوظ نفسه حين قال إن(*) "طه حسين أراد لنا أن نضع لأنفسنا صيغة فيها الماضى والحاضر معا، ولقد تمثل هذا الدمج فى شخصه، فهو الشيخ الأزهرى إذا شئنا وهو أيضا الأوروبى.. وهنا تكمن عظمته".

أم كلثوم الأدب

وحين أراد نجيب محفوظ أن يشبه عميد الأدب العربى بأحد المطربين العظام قال إن(**) "طه حسين هو أم كلثوم الأدب، فكلاهما طه حسين وأم كلثوم يتميزان بالأداء القرآنى".

(*) عكاظ السعودية ١٩٨٤/١/٧.

(**) الحوادث اللبنانية ١٩٨٣/٢/٢.

الشيخ مصطفى عبد الرازق

المفكر النبيل

(*)"أما أعظم شخصية دينية فكان الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله فقد كان عالما عظيما يقربك من إشراق وحقيقة الديـن بروحـه العظيمـة وأدبه الجم".

نجيب محفوظ

(*) الخميس - السابق.

أساتذتى[*]

الشيخ مصطفى عبد الرازق هو من أنبل وأعظم الشخصيات التى عرفتها فى حياتى لذلك تأثرت به تأثرا شديدا منذ أن تعرفت عليه كتلميذ لأستاذه فى كلية الآداب بين عامى ثلاثين وأربعة وثلاثين أثناء تدريسه للفلسفة الإسلامية التى كان يعتبرها والفلسفة بشكل عام بابا من أبواب المعرفة وتقدير الحياة والدخول فيها. وكان أستاذا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، فهو يحاول أن يكون للطالب عقل يقوم على أسس صحيحة، من الفكر وحسن الفهم، وإعطاء ذلك كله جميع ما يستحقه من صبر وجلد.

فقد كانت له طريقة معينة فى التدريس ، حيث يطلب أن نقرأ النص، ونفهمه باجتهادنا، وننقده بعقلنا.

وكان يفتح باب بيته لكل تلامذته، فيذهبون إليه، ويعقد معهم ما يشبه الندوة، وتدور بينه وبينهم مناقشات فى الأدب والفلسفة والفكر والحياة العامة، وكان يسمح لمن يريد من تلامذته باستعارة الكتب من مكتبته ، فقد كان صدره متسعا جدا لنا ولكل الناس، فهو مثال للحكيم الذى كنا نسمع عنه ونقرأ عنه فى الكتب والأساطير.

وهو مثال للحرية الموزونة ، والهدوء غير المفتعل، والكرم الحقيقى، والإنسانية فى أجمل صورها، والسماحة فى أبهى معانيها، وكان مثالا للوقار مع الروح الجذابة الحقيقية، وهذا شىء من الصعب جدا أن يجتمع فى إنسان واحد، وكان صاحب دعابة ، وظل طوال عمره محافظا على الزى الأزهرى الإسلامى، فكان بهى الطلعة، جذابا،

---

[*] خلاصة الحوار الذى أملاه نجيب محفوظ على إبراهيم عبد العزيز ووقعه بتاريخ ١٣/٥/٢٠٠٠.

محترما، راقيا فى تفكيره وفى سلوكه، ولم يحدث أن وقع تناقض بين ما يقوله وما يفعله، ولذلك أعطانى مثلا عاليا فى أن التفكير ليس مجرد تفكير بل له أخلاقياته التى تظهر فى الموضوعية والهدوء والبعد عن الغضب، وفى اتساع الصدر.

لذلك فإننى أرى الشيخ مصطفى عبد الرازق أنبل إنسان عرفته فى حياتى كمثال للخير والحب والرأفة والكرم، وكل الصفات والمعانى الإنسانية الجميلة.

كان يساعد الفقراء عن فطرة فى نفسه وعن إيمانه بضرورة مساعدتهم حتى لو اضطر أن يأتى على نفسه فى ظروف يكون فيها شديد الحاجة إلى ما معه من مال، ولكنه لم يكن يبخل فى العطاء فى الضراء كما فى السراء، ويؤثر الآخرين على نفسه ولو كانت به حاجة، وبعد موته عثروا على قائمة كبيرة بأسماء الناس الذين كان يعطيهم مصروفات شهرية. وكان - رحمه الله - لا يغضب أبدا لأسباب شخصية حتى لو سبه الآخرون أو آذوه، فقد كان يضبط نفسه ويملك أمره، ويبعد نفسه عن الانفعال، فقد كان حليما وصبورا إلى أبعد حدود الحلم والصبر، ولم تكن هذه الصفات التى انفرد بها عن جميع أساتذتى الذين عرفتهم، صفات وراثية، لأن أخيه المغفور له - الشيخ على عبد الرازق كان فيه عنف وكان فيه غضب أحيانا.

أما الشيخ مصطفى فقد كان هادئا جدا، كريما جدا، وبعيدا عن التعصب، ومتحرر العقل إلى حد كبير.

ومن مفارقات تلمذتى له أنه كان يعتقد أننى مسيحى رغم مرور سنتين على اتصالى به فى الجامعة، وإعجابه بى كتلميذ متفوق فى الفلسفة الإسلامية، ومع ذلك اضطر فى إحدى محاضراته إلى أن يسهب فى شرح أصول الإسلام من أجلى باعتبار أن معلوماتى عنها كمسيحى غير كافية، وفوجئت بمعلوماته الخاطئة عن "عقيدتى" وتولى عنى بعض زملائى تصحيحها له. وتصورت حين فكرت فى موضوع رسالتى للماجستير عن "فلسفة الجمال فى الإسلام" ، أنه سيرفضها ولكننى فوجئت به مرحبا بموضوعها، متحمسا لفكرتها ، وإن كان حماسى أنا هو الذى قد فتر بعد اتجاهى للأدب واشتغالى به. ولا أنسى للشيخ مصطفى عبد الرازق أنه اختارنى سكرتيرا برلمانيا له كوزير للأوقاف ، مما حرك

ترقياتى وعلاواتى المتجمدة حينما كنت أعمل موظفا بإدارة الجامعة بعد تخرجى، فى فترة ساءت فيها الأحوال الاقتصادية فيما بين الحربين ، وقد لمست خلال تعاملى معه أنه كان وزيرا له مبادئ لم تعرفها الحكومة المصرية، فلم يكن للموظفين قانون إلا فى الخمسينيات ، أما قبل ذلك فقد كان الموظف يعين ولا يتحرك إلا حسب الظروف والواسطة، فوضع الشيخ مصطفى عبد الرازق قواعد للترقيات والعلاوات حين كانوا يعرضونهاعليه، فكان يسأل : متى تم تعيين ذلك الموظف أو ذاك ومتى كانت آخر ترقية له؟، وذلك من أجل أن يتحرى العدل، فكان أول واحد فى اعتقادى يضع قواعد للترقيات والعلاوات ، قبل صدور القانون الخاص بذلك ، فكان سابقا لعصره، وكان عادلا فى زمن ندر فيه العدل.

وكان اتصالى بالشيخ مصطفى كوزير اتصالا ممتعا تتبعت فيه مسيرته كمسئول بعد أن عرفته كأستاذ جامعة.

وكان عملى معه يقوم على متابعة الأعمال الخاصة بالبرلمان من أسئلة واستجوابات ورغبات النواب والشيوخ، فكنت آخذها وأقوم بتوزيعها على الأقسام الخاصة بها فى الوزارة ، ثم أتلقى الإجابات وأقدمها للنواب والشيوخ.

وهكذا كان العمل مع الشيخ مصطفى هادئا فقد كنت سكرتيره أيام الحرب، وكانت ظروف العمل تقتضى الخروج ليلا، فكنا نتخبط فى الظلام، بينما الإنجليز يسيرون فى الشوارع سكارى، فكان كرم الشيخ مصطفى عبد الرازق يأبى إلا أن يصحبنى معه فى "الأوتومبيل" الخاص به كى يصل بى إلى العمار.

وقد ساد الاعتقاد فى وزارة الأوقاف أننى من الأحرار الدستوريين الذين ينتمى إليهم الوزير، مع أن أفكارى كانت مع حزب الوفد، ومع ذلك لم يغضب الشيخ مصطفى وجعلنى سكرتيرا له، ولذلك أقول إن الحزبيين لو كانوا بمثل أخلاق الشيخ مصطفى لما كانت هناك حزبية.

وقد علمت أنه شارك بعض المفكرين فى تأسيس الحزب الديمقراطى ذو الميول الاشتراكية، ولكنه لم يستمر كثيرا، فقد تغير وجه مصر بعد قيام ثورة ١٩١٩.

لقد كان صاحب فكر مستنير كتلميذ لأستاذه الإمام الشيخ محمد عبده، الذى كان أفضل خليفة له.

وقد ظلت صلتى بالشيخ مصطفى حتى وفاته، فكنت أزوره فى المناسبات أيام أن كان شيخا للأزهر.

وقد قام حوار أدبى بينى وبينه عندما بدأت أهديه كتبى بدءا من (عبث الأقدار) إلى (رادوبيس) إلى (كفاح طيبة) إلى (القاهرة الجديدة) إلى (خان الخليلى)، التى أحدثت دهشته لأنه كان يتصور أننى أسير فى طريق الفلسفة، وكان يقرأ رواياتى ويناقشنى فيها بوعى الأديب الفنان، وقد وصلنى أنه كان يقول لأولاده أنه بكى حينما قرأ إحدى رواياتى.

ويبقى فضل الشيخ مصطفى عبدالرازق فى تربية العقول والأخلاق إضافة إلى مؤلفاته. ولا أجد أفضل من كلمتى "المفكر النبيل" عنوانا على تاريخ حياة هذا الرجل العظيم.

المفكر النبيل

[*]"لو أن الناس ينظرون إلى الحوادث بالعين التى أنظر بهـا مـا تعادوا.

"فإنى أراها صغيرة تلك المماحكات التى هى شغل الناس ومثـار جدلهم وخلافاتهم.. ربما كانت الصغائر هى الحياة وربمـا كنـت بعزوفـى عنها لا أنـال حظـى مـن الحيـاة كـاملا، ولكـن فطرتـى هكـذا ومـا أظننـى أستطيع لها تبديلا".

مصطفى عبد الرازق

---

[*] من مذكراته - الأخبار ٢٠٠٠/٢/٢٥.

"الشيخ مصطفى عبد الرازق الله يرحمه كان ينبوعا للأخلاق الفاضلة وللنبل والعلم"(*).

هكذا حدد نجيب محفوظ شخصية الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى نعتبره من المظاليم الذين لا يكاد هذا الجيل يعرف علمه وفضله رغم أن هناك كتابا مهما يتضمن سيرته وبعض إنجازاته وهو كتاب "من آثار مصطفى عبد الرازق" وهو ما سوف نعتمد عليه فى تقديمنا لهذا الرجل بقلم علمين من أعلام عصره هما أخيه الشيخ على عبد الرازق، وطه حسين.

غير أن مصدرا هاما جدا لا يزال غائبا مخطوطا وهو مذكرات الشيخ مصطفى عبد الرازق نفسه والتى نشر منها ابنه ممدوح عبد الرازق مقتطفات فى مقالات متفرقة ، ولا ندرى لعدم نشرها سببا حتى الآن رغم قيمتها وفائدتها وتصويرها لأحداث أدبية وسياسية شهدها عصره، مما استنتجناه مما نشر منها متفرقا.

* * *

وأترك الشيخ على عبد الرازق صاحب الكتاب الأشهر "الإسلام وأصول الحكم" الذى أسقط الحكومة وبدد آمال الملك فؤاد فى الخلافة الإسلامية، أتركه ليقدم لنا سيرة شقيقه الشيخ مصطفى عبد الرازق - وإن كنت أدعو القائمين على مكتبة الأسرة لإعادة نشر كتاب "من آثار مصطفى عبد الرازق"(**) كاملا، وهو الذى نستقى منه معلوماتنا عن هذا الرجل النبيل الذى اعتبره تلميذه نجيب محفوظ "أعظم شخصية دينية".

سيرته بقلم على عبد الرازق

ينتسب المغفور له مصطفى عبد الرازق وأهله إلى عبد الرازق الذى ولى قضاء البهنسا.

ولد فى أبو جرج، ولا يعرف على وجه قاطع يوم مولده ولا شهره ولا سنته، وتدل القرائن ، وما تتداوله العائلة من أخبار وأحاديث، على أن مولده كان حوالى سنة ١٨٨٥م.

والتحق بكتاب من كتاتيب البلد فى سن مبكرة من سنى طفولته،

(*) الجيل ١٩٩٨/١٢/٢٠.

(**) دار المعارف ١٩٥٧.

ربما كان فيما بين السنة السابعة والثامنة، حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئاً من القرآن الكريم.

ثم بادر والده فأرسله إلى الجامع الأزهر ليتلقى العلم فيه، وسنه بين العاشرة والحادية عشرة.

ولقد أخذ منذ السنين الأولى يمارس الكتابة الأدبية وقرض الشعر.

وحدثته نفسه ذات مرة أن يصدر صحيفة ينشرها خاصة بين عائلته، تتناول الشؤون العائلية الخالصة، فى أسلوب يجمع بين الفكاهة والجد، أصدر منها أعداداً قليلة، كان يطبعها على مطبعة "البالوظة" . وكانت عائلته تتداولها بشغف وإعجاب.

ولعل فكرة الجريدة هذه هى التى تطورت بعد ذلك إلى إنشاء جمعية من شباب العائلة سميت "جمعية غرس الفضائل"، تجتمع مساء الجمعة من كل أسبوع، ويتناوب أفراد العائلة الخطابة فيها. واستمرت هذه الجمعية سنوات عديدة، فيما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٥، وكان هو يتولى أمانتها.

وأغلب الظن عندى أنه - رحمه الله - قد اتصل بجريدة المؤيد التى كان يصدرها بالقاهرة المرحوم الشيخ على يوسف، فكتب فيها. وكذلك كتب شيئاً من شعره ونثره فى مجلة "الموسوعات" التى كان يصدرها بالقاهرة المرحوم محمد بك فريد، رئيس الحزب الوطنى.

وكذلك استمرت نزعة الأدب التى ركبت فى طبيعته تدفعه دفعاً إلى تلك الميادين لتستكمل غايتها من النماء والنضوج، فلم تكن إلا دورات قليلة من دورات الزمن حتى استوت وبلغت أشدها.

ولا شك عندى أن ملكة الشعر عنده كانت قوية غاية القوة كملكة الكتابة سواء بسواء، ولو أنه استمر يمارس الشعر كما فعل فى النثر لكان مجده فى الشعر والنثر شرعا، ولكنه بعد أن مضى فى قرض الشعر بضع سنين أعرض عنه، ثم لم يرجع فيما أعلم إلى محاولته. ولقد كتبت إليه ذات مرة، وهو يطلب العلم فى فرنسا، أسأله (عما صرفه عن الشعر، فكان فيما أجابنى به: "إننا شغلنا هنا بالحقيقة عن الخيال!". ولعل معين الشعر الذى كان فى نفسه صافياً ودفاقاً لم ينضب بإهماله، بل اتخذ سبيله إلى معين الكتابة الأدبية يمده بقوة إلى قوة وصفاء إلى صفاء.

وكذلك صار أسلوبه الكتابى يتميز بديباجة يتألف فى ثناياها ركانة النثر وظرف الشعر، وقلما اجتمع لأديب غيره ما اجتمع له من ذلك .

اتصاله بالشيخ محمد عبده

كان المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية عضواً بمجلس شورى القوانين، ومن الأعضاء الدائمين الذين تعينهم الحكومة ، وكان المرحوم الوالد من أعضاء هذا المجلس الذين ينتخبهم الشعب.

أخذ العمل المشترك بين الوالد والأستاذ الإمام فى مجلس شورى القوانين يقتضى بينهما بالضرورة تبادل الحديث وتداول الرأى وتدافع الحجة والأخذ والرد، وفى خلال ذلك كله يزداد كل واحد منهما كشفاً لدخائل صاحبه ووقوفاً على حقيقة نفسه، ولا تكاد تمضى عليهما فى هذا الدور سنة أو سنتان حتى يصبحا صديقين حميمين كأخلص وأقوى ما تكون الصداقة.. وفى ظل هذه الصداقة المتينة نشأت العلاقة بين أخى مصطفى وبين أستاذه الإمام . ولا يبعد أن يكون لصداقة المرحوم الوالد أثر كبير فى ذلك كأثر الوراثة التى لا يدرى مسراها. على أنه لا شك فى أن هناك عوامل أخرى غير تلك الصداقة الوثيقة قد عملت أيضاً على ربط التلميذ بأستاذه.

لم يكن الأستاذ محمد عبده من مشايخ الطرق الصوفية يعطى تلاميذه العهود ويلقنهم أسرار الطريق، ولم يكن صاحب دعوة خفية يدس تعاليمها وراء الحجب والأستاز فهو يدعو إلى الإصلاح بالعمل أولا ثم بالقول الصريح يصدع به أنى كان فى المحافل العامة وفى مجالسه الخاصة، وفيما يؤلف من كتب وأبحاث، وفيما ينشر فى الجرائد والمجلات، وفى رسائله العامة أو الخاصة.

ولعل أخى مصطفى قد كان أيامئذ يجتاز حالة نفسية زادته تعلقاً بالأستاذ والتجاءً إليه، فلقد تجاوز المراحل الأولى والوسطى للدراسة الأزهرية أو كاد، وأشرف على مرحلة المنتهين، وأخذت تتراءى لعينيه ما تنتج أشجار الدراسة فى الأزهر من ثمر ، بل لعله قد بلا شيئاً من طعم هذا الثمر، ولعله لم يجده سائغاً فيؤثر أن يودع ذات نفسه طى خطاب يحمله البريد إلى أستاذه ، فيقرأ فيه ما يشكو إليه تلميذه من بثه وحزنه.

ولاشك أن الأستاذ الإمام قد طابت نفسه بأن يلمح بين تلاميذه مثل هذا الطالب، يتفتح نظره فيرى من عيوب الطرائق الأزهرية بعض ما يرى أستاذه، ويضيق صدره بها كما يضيق صدر أستاذه، وتهتف بين طوايا نفسه نوازع الثورة على هذه العيوب كما ثار عليها من قبل أستاذه. ولاشك أن سرور الأستاذ بذلك قد كان بالغا. لذلك دفع الأستاذ الإمام بهذا الخطاب إلى منشئ "المنار" السيد محمد رشيد رضا، فنشره في ص ٢٠٠ من الجزء الخامس من المجلد الثامن من (مجلة المنار)، ولم ينشر اسم كاتبه . ولعل ذلك كان برغبة الأستاذ الإمام نفسه إشفاقا على كاتبه من شرور الفتن التي كانت يومئذ ترج جوانب الأزهر والأزهريين، وانتهت إلى خروج الأستاذ الإمام من الجامع الأزهر، وهذا نص ما جاء في المنار:

لقد كبر على نابتة الأزهر ترك الأستاذ الإمام له ، وذكرت الجرائد اليومية أن نحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ منهم كتبوا إليه عريضة يستعطفونه بها ليعود إلى التدريس فيه. ونقول إن منهم من كتب إليه يسترشده في أمره، وقد أطلعنا على صورة كتاب لبعضهم ، فرأينا أن ننشره على انتقادنا قوله "كلهم شر"، ليرى القراء حسن عبارة وأفكار تلامذته الذين يشكون الجهل. قال بعد رسم الخطاب:

"إنني نظرت في أمري بعد أن قضيت ما قضيت في الجامع الأزهر، وأضعت ما أضعت من صحتي وشبابي في طلب العلم، فلم أجد ثمناً لما بذلت إلا حشداً من الصور والخيالات لا يضيء البصيرة ولا يبعث العزيمة ولا يعد للسعادة في الحياة الدنيا ولا في الآخرة.

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت   مني بعلمي الذي أعطت وتجريبي

طلبت السبيل إلى الكمال والعلم النافع فما وجدت الدليل ولا اهتديت إلى السبيل. وكيف أطلب الخير منبين معشر - أعيذك يا مولاي - كلهم شر! وقد هدتني إليك خاتمة المطاف وفاتحة الألطاف ، فجئتك أسألك أن تعلمني مما علمك الله وأن لا تكلني إلى رأيي.

وهأنذا أبسط يد الرجاء إليك، ولم أبسط لغيرك يداً، وأرفع إليك أمنيتي في الحياة، وقد وضعت أملي ببابك، ومثلك من لا يخيب ببابه الأمل".

* * *

ولم يكتف الأستاذ الإمام بهذا ، بل أسرع مغتبطا مسرورا إلى المرحوم الوالد، يعلن إليه اغتباطه بابنه الطالب ورضاه عنه وتوسمه النجاح له.

ومن قبل هذا كتب الأستاذ الإمام إلى أخى مصطفى كتابا رقيقا ينبئ عن إعجابه به وإقباله عليه وتوسمه الخير فيه، وكان ذلك ردا على قصيدة من عشرة أبيات بعثها إليه مدحا وثناء، من أولها هذه الأبيات:

أرضيت ربك لا تخش المريبينا	يا خير من خدم الإسلام والدينا
صدَعتَ بالحق والأصواتُ خافته	ودُسْتَ ما شيّدت أيدى المضلّينا
بحجةٍ تملأ الألباب موعظة	كالشمس تملأ أبصار البصيرين... إلخ.

فأجابه الأستاذ بهذا الكتاب:

ولدنا الأديب:

خير الكلام ما وافق حالا وحوى من النفس مثالا. تلك أبياتك العشرة رأيتنى والحمد لله مترنما فى سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة، وما بقى كأنه الشهب نور للأحياء رجوم للأشقياء. ما سررت بشيء سرورى بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك. فلله أنت! ولله أبوك! ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء، ولكنى أكتفى بالإخلاص فى الدعاء أن يمتعنى الله من نهايتك بما تفرسته فى بدايتك، وأن يخلص للحق سرك، ويقدرك على الهداية إليه، وينشط بنفسك لجمع قومك عليه، والسلام.

* * *

ثم أخذ الأستاذ الإمام يشير على الوالد بأن يمد أخى مصطفى بكتب اختارها هو له ، ليشتغل بقراءتها.

ومن أساتذته من كانت عشرته للفقيد أطول أمدا من عشرة الأستاذ الإمام، وأكثر خلطة، ولكن أحدا من أساتذته وخلطائه لم يحل من نفسه ما حله الأستاذ الإمام من نفسه، فقد أصبح محط نظره ومعقد رجائه ومثله الأعلى الذى ليس له نظير ولكن لم يطل العهد بينه وبين أستاذه ، فلم يستطع الأستاذ أن ينتهى بتلميذه إلى ما كان يطمع فى أن يهيئه له ولم يستطع التلميذ أن يملأ يديه حتى يرتوى من منبع العلم والحكمة الذى

فجره أستاذه أمام عينيه وأشرف به على ساحله المترامى الجوانب، حيث أخذ يرتشف من فيضه رشفات مثل حسو الطير ماء الثمار.

• • •

اشتد الخصام بين الأستاذ الإمام وبين خديو مصر عباس الثانى وكانت نهايته أن أكره الأستاذ الإمام على ترك الاتصال بشؤون الأزهر والمشاركة فى تدبيرها فاستقال ، يقول أخى مصطفى عن هذه الاستقالة ما نصه : "وتغير بعد ذلك قلب الخديو عباس على الشيخ محمد عبده وعلى الإصلاح الذى يريده للأزهر، وأخذ يضع له العقبات، ويؤلب عليه الشيوخ، فاضطرب حبل النظام، وذوى غصن تلك النهضة العلمية الجميلة.

وأذكر أننى كنت أسير مرة مع الأستاذ الشيخ محمد عبده عقب استقالته من الأزهر، فقال فى حديثه - رحمة الله عليه - : يظنون أننى بخروجى من الأزهر تركته مرعى خصيبا لشهواتهم ترتع حيث تشاء، إلا أننى ألقيت بين جوانح هذا المكان شعلة لا تنطفئ، إن لم تلتهب اليوم أو غداً فستلتهب فى ثلاثين عاماً وستكون ضراما.".

ولكن الأقدار تسير فى صريعها دائما أبداً مرسلة الأعنة - والله غالب على أمره - فإذا الأستاذ الإمام تدبّ فى أوصاله نذر مرض أليم مخشى العواقب، قيل - والعياذ بالله - إنه السرطان. ثم لم يلبث إلا قليلا حتى لحق بالرفيق الأعلى فى ١١ يولية سنة ١٩٠٥.

ولاشك أن وفاته كانت مفاجأة قاسية صدمت تلميذه صدمة عنيفة ولا شك أنه كان صادقاً فى حزنه، وكان مخلصا فيما أخذ يلهج به من المراثى المتتابعة:

إن قلباً أصفاك بالود حياً	صدعته بموتك الأيام
كان فى هذه الحياة رجاء	قد دفناه يوم مات الإمام!

وكان صادقاً حين يكتب فى تعزيته للمرحوم السيد محمد رشيد رضا:

"غلبت على النفس فورة الهم حتى أنكرت كل ما عرفت من شأن الصبر، واسترسلت مع الأكدار، واستعصت على الناصح، ونسيت وعد الله للصابرين... ولقد خشيت أن تجمح فى بيداء الجزع فلا يردها راد، ولا يصدها صاد، ولا يدفعها عن الغى رشاد. لكن أبت عزيمة الإسلام،

وأبى يقين ورثناه عن الأستاذ الإمام، إلا أن يؤوب الرشد من غيبته، ويصحو العقل من سكرته، على عظم الرزية وشدة البلية..." إلخ.

وكأن حياة الأستاذ الإمام وآماله وهمته قد توزعت بين أصدقائه وتلاميذه، فنهض كل منهم يمشى على أثره بمقدار نصيبه.

فقد أخذ أولئك الطلبة يتعارفون ويتواصلون، وأخذت تربطهم وتؤلف بين قلوبهم أبوة مشتركة، هى أبوة الأستاذ الإمام، وغرض مشترك هو إصلاح الأزهر. وكان أخى مصطفى من العاملين على تأليف هذه القلوب وتوجيهها وجهة الإصلاح، بل لعله - رحمه الله - كان هو العامل الأول فيها. وأول ما اتجه إليه نظر هذه الجماعة من الطلبة هو أن تجد بين علماء الأزهر من يتولى إتمام تعليمهم وتخريجهم على مثل طريقة الأستاذ الإمام أو قريبا منها. ولم يكن يومئذ فى علماء الأزهر من يتجه إليه النظر ليقوم هذا المقام المرجو غير الأستاذ الشيخ أحمد أبو خطوة - عليه رحمة الله - فلبى رجاء الجماعة.

واستمر هذا الدرس شهرا أو نحوه، وإذا الأستاذ أبو خطوة ينقطع فجأة عن متابعته.

وجرى الحديث يومئذ أن الخديو عباسا قد نمى إليه حديث هذا الدرس وما لقيه من رواج بين طلبة الأزهر، فخشى عواقبه ، وأظهر غضبه منه، ولكن أخى مصطفى ، وزملاءه من أبناء الأستاذ الإمام، شباب لا يقدرون الأمور ولا يخشون عواقبها كما يقدرها ويخشاها أهل السن والتجاريب، فهم لا يرجعون عما صمموا عليه من إتمام دراستهم على منهج الأستاذ الإمام، وهم لا يجدون أمامهم غير الأستاذ أحمد أبو خطوة، فذهبوا يشاورونه فى أمره وأمرهم، ثم اتفقوا على أن يقرأ لهم الأستاذ فى غرفته من بيته بعد صلاة العصر درسا خاصا لا يؤذن بحضوره إلا لنحو عشرة من الطلبة معروفين له بأسمائهم وأشخاصهم، ومنهم أخى مصطفى، وكنت أيضا منهم. ولم يلبث أن توفى عقيب ذلك.

ولم يبق أمام أبناء الأستاذ الإمام من وسائل النشاط إلا أن يجمعوا جهودهم حول الجمعية التى أنشأوها باسم "الجمعية الأزهرية" ابتغاء العمل على جمع شملهم وتوكيد الترابط بينهم والنهوض بالأزهر كما أراد أستاذهم الإمام.

واختارت الجماعة أخى مصطفى رئيسا لها، وساروا بالجمعية

سيرا حميدا، حتى ارتفع ذكرها بين الأزهريين، وتطلعت إليها الأنظار، وتعلقت بها الآمال، وإن اختلفت فيها الظنون، وأحاطتها بعض الشبهات. على أنه لم يكن لها فى الواقع من عمل تقوم به، غير أن أعضاءها كانوا يجتمعون فى كل أسبوع أو اثنين ، فيخطب بعضهم، ويتناقشون فيها بينهم مناقشات علمية أو أدبية أو إصلاحية ليس فيها خطر ولا لها عواقب تخشى.

وكانت الاجتماعات تحصل أول الأمر فى أية غرفة من غرف بعض أعضائها، فلما كثر عديدهم استأجروا لها محلا خاصا. ولم يستمر نشاط الجمعية طويلا، فقد توزع أعضاؤها فريقين، لكل فريق ما يشغله عن القيام بحق الجمعية. فريق أخذ يستعد لامتحان الدخول فى مدرسة القضاء، وفريق آخر آثر البقاء فى الأزهر، وكان أخى مصطفى من هذا الفريق الذى وجه همه إلى الحصول على شهادة إتمام الدراسة الأزهرية، وأخذ يعمل دائبا على أداء الامتحان اللازم لها، فأداه بنجاح وتفوق ، ونال الدرجة الأولى، وهى أرقى درجات العالمية الأزهرية فى تلك الأيام ولم ينلها معه فى هذه السنة إلا واحد أو اثنان من جميع المتقدمين للامتحان، وكان عددهم كبيرا.

وقبل أن يمضى على نجاحه شهر واحد انتدب فى ١١ أغسطس سنة ١٩٠٨ للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى، وهو وقليل من زملائه الذين تخرجوا معه فنهضوا بعملهم نهوضا مشكورا.

ثورة الأزهر

وفيما حوالى شهر نوفمبر من تلك السنة بدأت الدراسة فى الجامع الأزهر على نظام جديد، رسمه قانون جديد صدر حوالى شهر مارس سنة ١٩٠٨، سمى قانون إصلاح الأزهر، وهو قانون أراد الخديو أن يرضى به الأزهريين، بأن يخرج الأزهر عن نظامه القديم الذى ظنوا أنه هو مثار الشكوى ، إلى نظام مدرسى حديث، يوزع فيه الطلبة توزيعا إجباريا على سنين متتالية، وعلى أساتذة معينين، وعلى أزمان محدودة وساعات معينة. كل ذلك تحت مراقبة دقيقة وامتحانات دورية... إلخ.

ولكن حينما أخذ القائمون على هذا القانون فى تنفيذه عجزوا عن ذلك عجزا فاضحا رج الطلبة والمدرسين رجا عنيفا ، وأشاع فيهم الخلل

والاضطراب، فامتلأت نفوسهم حنقا، وأخذت بوادر الثورة فيهم تتراءى لأعين الناظرين.

وتوالت النذر بهبوب العاصفة . وكان شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت هو الشيخ حسونة النواوى - عليه رحمة الله - وهو رجل مؤمن، قوى فى دينه وفى خلقه ، سليم القلب طيب النفس يحبه من الأزهريين الطيبون المخلصون . فرأى جماعة من شباب العلماء، وفيهم أخي مصطفى، أن واجب البر بشيخهم والإخلاص له يقتضيهم أن يضعوا أنفسهم تحت أمره ليعاونوه - إن أراد - على ضبط الأمور قبل أن يفلت زمامها، وليتولوا عنه من العمل ما ينتدبهم له. فقبل الشيخ منهم ذلك راضياً عنهم، واثقاً بهم. ثم وكل إليهم أن يتخذوا من الوسائل ما يشاؤون لتنظيم الدروس داخل الجامع الأزهر، وشجعهم كثيرا، ومهد لهم كل سبيل. فشرعوا يبحثون الأمور ويتعرفون مواردها ومصادرها، ولكن الحوادث لا تنتظر، فهى تمر مر السحاب، وتتعاقب تعاقب المطر الغزير، فما هو إلا شهر أو أقل حتى هب طلبة الأزهر ثائرين، وأضربوا عن الدراسة، فتعطلت تماما. وأخذوا يخرجون إلى الشوارع متظاهرين يهتفون بإصلاح الأزهر، ويجتمعون فى ميادين القاهرة وداخل الجامع، يتبادلون الخطب فى شرح حالهم، ويتواصون بالثبات والعزم حتى تجاب مطالبهم. ولقيت حركتهم هذه عطفاً عاما، وكان صداها يسرى فى أرجاء البلاد مدويا.

ولكن الذين بدأوا حركة الإضراب الأزهرى لم يفكروا فى شىء من ذلك، بل كان مطلب إلغاء القانون الجديد يملأ قلوبهم ويغطى على سمعهم وأبصارهم، وكان ذلك نقصاً ظاهراً فى الحركة.

ولولا أن جماعة منا - نحن الطلبة الأزهريين - تداركوه من أوله لأصيبت الحركة بإخفاق سريع، فقد اجتمع عدد منهم، ووضعوا مطالب للأزهريين حددوها تحديدا كاملا على أساس تفكير سليم، وألفوا لجنة الاتحاد الأزهرى من جماعة مختارة من الطلبة قاموا قياماً حسناً بتدبير الإضراب وتوجيهه وجهة مرضية استحقت من الرأى العام عطفاً وتشجيعاً.

جمعية تضامن العلماء

لم يكن مستساغا أن يقف علماء الأزهر موقفا محايدا من هذه الحركة البريئة التي لا تريد إلا خير الأزهر وإصلاحه، ولم يكن مستساغا أن يترك العلماء طلبتهم يتعرضون وحدهم لما أصابهم به الإضراب من عنت ومن إرهاب، فأحاط جماعة من شباب العلماء بأخي مصطفى وألفوا "جمعية تضامن العلماء"، ليعملوا على شاكلتهم لخير الأزهر وإصلاحه. وكان لهذه الجمعية صدى مدو في جهات الحكومة وفي الرأي العام أيضا. لم يكن أخي مصطفى رئيسها ، ولكنه كان بلا شك من أهم عقولها المفكرة.

ولكن حربا عنيفة قامت ضد جماعة تضامن العلماء، وكان شخص أخي مصطفى هو الغرض الأول الذي اتجهت نحوه أنظار أولئك المحاربين وصبت إليه سهامهم، وبذلك أصبح غرضا لخصومة قوية إذ يقبل التدريس في مدرسة القضاء، وأصبح غرضا لخصومة أقوى إذ يؤسس جمعية تضامن العلماء.

تكلم عاطف بك بركات ناظر "مدرسة القضاء" مع أخي مصطفى في شأن انضمامه إلى جمعية تضامن العلماء، وذكر له أن ذلك مما أغضب الخديو وجعله يعتقد أن سبب الحركة الأزهرية هو مدرسو المدرسة من علماء الأزهر. وفهم أخي مصطفى من كلامه أن عاطفا يعرض عليه الاستقالة من المدرسة أو الجمعية ، فقدم إليه بالأمس استقالته من المدرسة، فأظهر له عاطف تلطفا وشبه رد جميل لاستقالته، ولكن يظهر اليوم أن المسألة اشتدت عند الخديو.

فعاد عاطف يشاور أخي مصطفى في قبول استقالته، وربما انتهت غدا، وربما استقال كذلك سائر العلماء أعضاء الجمعية ، فلا يبقى من علماء الأزهر بعدهم إلا قليل.

والمسألة نفسها بسيطة جدا لا تستحق التفاتا ، ولكنها مهمة من أجل سببها الحقيقي. وهي أعظم دليل على ضرر الحكم الاستبدادي...إلخ.

وفي سنة ١٩٠٨ أنشئت جمعية سميت "جمعية ترقية اللغة العربية"، وغرضها واضح من اسمها، وأنشأها جماعة من العلماء والأدباء، وكان أخي مصطفى عضوا فيها ولكن هذه الجمعية لم تعمل شيئا ولم يستمر بقاؤها إلا قليلا.

ومن الحوادث التى تحسن الإشارة إليها أن المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش كان قد اتفق مع بعض الهيئات التى تعمل على نشر اللغة الفرنسية وبث الثقافة الفرنسية فى مصر على أن تنشىء مدرسة تكون ذات نظام خاص يجعل للأزهريين الحق فى أن يلتحقوا بها فيتعلموا اللغة الفرنسية وبعض العلوم ليستطيعوا أن يوفدوا إلى فرنسا فيتموا دراستهم فيها.

وقد اختار المرحوم الشيخ جاويش لإدارة هذه المدرسة مجلس إدارة كان من أعضائه أخى مصطفى. وقد استمرت هذه المدرسة تعمل نحو سنتين فيما أظن، ولعل بعض الطلبة ، الذين تعلموا فيها قد أرسلوا فعلا إلى فرنسا فأتموا دراستهم بها.

سفره إلى فرنسا

على أثر استقالة أخى مصطفى من مدرسة القضاء، وتفاقم الفتنة فى الأزهر وكثرة الاضطراب والإرجاف، نشأ التفكير فى أن يسافر أخى مصطفى إلى فرنسا لدراسة اللغة الفرنسية وبعض العلوم هناك. وكانت هذه الفكرة موضع بحث طويل بينه وبيننا، نحن إخوته، وكثيراً ما تداولنا وقلبنا وجوه الرأى، ولقد قضينا يوم الخميس ١٠-٦-١٩٠٩ بأكمله فى التروى والبحث.

ثم اتفقنا على أن يسافر إلى باريس ليقيم فيها سنة كاملة ليتعلم اللغة ويحضر بعض دروس الفلسفة فى السربون. وشرعنا على الأثر فى تجهيزه للسفر.

وفى يوم الثلاثاء ٢٢-٦-١٩٠٩ سافر من مصر إلى بورسعيد، وكان مودعوه فى المحطة جمعا كبيراً من أهل العلم والجاه. وفى الصباح الباكر من يوم الأربعاء أبحرت به السفينة إلى مرسيليا ليأخذ القطار منها إلى باريس، وكان يرافقه فى هذه الرحلة الأستاذ أحمد لطفى السيد، وهو يومئذ رئيس تحرير "الجريدة" لسان حزب الأمة، وقد كان له فى هذه الرحلة معيناً نافعاً صحبه إلى باريس ومهد له الإقامة فيها تمهيداً.

قضى فى هذه الرحلة ثلاث سنوات متتابعات، فلم يعد إلى مصر إلا فى شهر يوليو سنة ١٩١٢. ولاشك فى أن حياته فى تلك السنوات قد غير فيه كثيراً وأنها كانت ذات أثر خطير فى تاريخه، وقد جاء فى

مذكرات المرحوم محمد كرد علي ، فيما يختص بتاريخ أخي مصطفى في هذه الفترة، ما نصه : "سافر إلى باريس سنة ١٩٠٩ فتعلم الفرنسية وحضر دروس الأستاذ دركهايم في الاجتماع ودروسا في الآداب وتاريخها. وفي سنة ١٩١١ تحول إلى مدينة ليون ليشتغل مع الأستاذ إدوارد لامبير في دراسة أصول الشريعة الإسلامية، وحضر في جامعة ليون دروس الأستاذ جوبلو في تاريخ الفلسفة ودروسا في تاريخ الأدب الفرنسي، وتولى تدريس اللغة العربية في كلية ليون مكان مدرسها الذي كان ندب للتدريس في الجامعة المصرية".

وظاهر أن هذه المعلومات مستقاة من أخي مصطفى نفسه. وجاء في ملف خدمته بالحكومة المصرية ما نصه : كلف أثناء إقامته بمدينة ليون بالتدريس بدلا من جناب الأستاذ فييت الذي كان منتدبا للتدريس بالجامعة المصرية القديمة، وقد أعد رسالة للتقدم بها لامتحان الدكتوراه في الآداب ، موضوعها "الإمام الشافعي أكبر مشرعي الإسلام". وقد أخرج بالاشتراك مع المسيو برنار ميشيل ترجمة دقيقة بالفرنسية لكتاب الشيخ محمد عبده موضوعه "العقيدة الإسلامية" ... إلخ.

مذكراته اليومية

وإنني لأعرف أنه هو نفسه قد شرع - في خلال إقامته في فرنسا - يدون مذكرات عن حياته اليومية يستودع فيها ما يجده جديرا بأن يسجل من الحوادث، ومن خواطر نفسه. وقد دأب على تدوين هذه المذاكرات سنين كثيرة من حياته، ثم شغل عنها ؛ وقد كان يبذل في كتابها عناية غير قليلة ، فجاءت سجلا حافلا بالتاريخ والأدب. وكثيراً ما كان يرجع إليها في المناسبات، وكثيراً ما كان ينقل منها قطعاً ينشرها في الصحف مقالات كأنها كتبت ليوم نشرها. والمؤرخ لتلك الفترة من حياته سيجد في هذه المذكرات كل ما يحتاج إلى معرفته من عناصر التاريخ وأكثر مما يحتاج ، وقد عني بحفظها إلى آخر حياته، ثم تركها وديعة مصونة في بيته.

لولا صيحة الإمام

ولعل هذه السطور عن مذكرات الشيخ مصطفى عبد الرازق التي سطرها بقلمه أخيه الشيخ على عبد الرازق تؤكد دعوتنا لأبنائه لنشر

هذه المذكرات بصورة كاملة بدلا من اجتزائها في الصحف، ومما جاء فيها منشورا عن رحلته لفرنسا ما ذكره في يومياته بتاريخ ١١ مارس ١٩١٠.

"لولا أن المرحوم الشيخ محمد عبده صاح صيحته التى زلزلت دعائم الجمود لما كان لمثلى أن يتخطى الحجر الدينى ليصل إلى باريس ويقيم بها دهرا" (*).

* * *

ونتابع مع الشيخ على عبد الرازق سيرة حياة الشيخ مصطفى عبد الرازق، باختصار وتركيز ما أمكننا ذلك.

قامت الحرب التى يسمونها الحرب العالمية الأولى فى يولية سنة ١٩١٤، واستطاع أخى مصطفى بشق الأنفس أن يجد له محلا فى سفينة حملته إلى مصر، فوصل إليها فى الشهرين الأخيرين من عام ١٩١٤.

وفى أخريات ذلك العام أعلنت إنجلترا أنها أدخلت مصر تحت حمايتها وعزلت الخديو عباسا الثانى ، وأقامت عمه الأمير حسين كامل بن إسماعيل سلطانا على مصر، وكان ذلك مما رج الإحساس السياسى بين المصريين، وألهب قلوبهم غيظا وألما؛ ولكن الحكم العسكرى يأخذ بألسنتهم ويربط أقلامهم.

توقف "الجريدة" عن الظهور

وكان حزب "الأمة" يصدر صحيفته اليومية "الجريدة" ، فلم يستطع يومئذ أو لم يرد، أن يتابع إصدارها. وشعر جماعة من شباب مصر المنتسبين إلى حزب الأمة أو الموالين للجريدة ومديرها أحمد لطفى السيد أن "الجريدة" توشك أن تتوقف عن الظهور، وشق ذلك على أنفسهم، فنهضوا يتقدمهم أخى مصطفى يتدبرون الأمر رجاء أن يصلوا إلى تدارك ما يخافون من توقف "الجريدة"، ولكن غلبتهم الظروف فتعطلت "الجريدة" نهائيا، وأبى أولئك الشباب أن يقيموا بعد ذلك ساكتين، فانصرف رأى الجماعة إلى أن ينشئوا مجلة جديدة يصدرونها، وكذلك ظهرت مجلة "السفور"، فكانت إلى مدة طويلة لسان حال تلك الجماعة ومظهر نشاطهم. وكان أخى مصطفى يوالى الكتابة فى كل عدد من

(*) الأخبار ٢٠٠٠/٢/١٨.

أعدادها تقريبا، كما كان مع بعض الأعضاء يراقبون تحريرها وشيئا من إدارتها. ولا شك أن مجلة "السفور" قد أحدثت رجة مذكورة في القطر المصري وفي غيره، وأن اسمها "السفور" قد صدم الذوق العام، وقد لقيت مدرسة "السفور" نجاحا ملحوظا، وأخذت طريقته تتغلغل حثيثا في أرجاء البلاد. فكان ذلك يزيد خصومها حماسة ويلهب قلوبهم غيظا.

تعيينه في مجلس الأزهر الأعلى

في أوائل أكتوبر تقريبا سنة ١٩١٥ عين أخي مصطفى موظفا في مجلس الأزهر الأعلى ، ولم يخل تعيينه في هذا المركز من صعوبات ومن عراقيل. صاحب الرأي الأول والأخير في هذا التعيين هو بلاشك السلطان حسين - رحمه الله تعالى.

كان السلطان حسين يعرف المرحوم الوالد معرفة متينة إذ كان هو رئيسا للجمعية الزراعية، وكان الوالد - رحمه الله - من أعضائها الأولين. ثم كان السلطان حسين رئيسا للجمعية الخيرية الإسلامية، فعرف فيها معرفة قوية أخانا حسن باشا عبد الرازق الذي كان سكرتير الجمعية، وقويت الصلة بينهما ، فلما أصبح سلطان مصر اتخذه وكيل الديوان العالي السلطاني.

في بعض أسفار السلطان حسين إلى فرنسا، قبيل الحرب العظمى الأولى، قابله أخي مصطفى فحل من نفسه مكان الحب والإعجاب والثقة، واستمرت تلك الصلة بينهما في مصر أيضا، حتى لقد انتدبته الأميرة قدرية - إحدى بنات السلطان - لترجمة كتاب لها من الفرنسية إلى العربية، فقام بذلك. وقد طبع من الكتاب عدد محدود، وكان عنوانه العربي "طيف خيال ملكي".

وأراد السلطان حسين - حين ولي السلطنة المصرية - أن يعين أخي مصطفى سكرتيرا للمجلس الأعلى للأزهر وللمعاهد الدينية ، وكان يشغل هذه الوظيفة المرحوم عبد الغني شاكر بك.

ويظهر أن رغبة السلطان حسين لم تلق قبولا حسنا لا بين الأزهريين ولا بين كثير غيرهم، ولعل مرد ذلك إلى مقام مصطفى الظاهر بين جماعة السفور، وإلى شيء مما كان يجري به قلمه في مجلتها ويزعمه المعارضون تطرفا وإسرافا، ثم إلى ظاهرة أخرى في

حياته الخاصة، فقد كان لا يتحرج من الاتصال بأصدقائه الأوروبيين رجالا ونساء والأنس بهم، كما يتصل بأصدقائه الشيوخ الأزهريين وغيرهم ويأنس بهم، ولا يتحرج من غشيان بعض المجامع العامة أو إجابة الدعوة إلى بعض الحفلات الخاصة كما يتحرج المتزمتون والجامدون الذين يحرمون زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

قامت عقبات فى سبيل تعيين مصطفى سكرتيرا للمجلس. وأهم وما ظهر من تلك العقبات أن هذا المركز لم يزل مشغولا بصاحبه، وكان المخرج الذى استطيع تدبيره حلاً مؤقتاً لهذه العقبات هو أن يُكتب إلى أخى مصطفى جواباً بتعيينه كاتباً للمجلس براتب قدره عشرون جنيهاً - وراتب السكرتير يومئذ خمسة وأربعون جنيهاً - وبأن يكون مبدأ عمله فى وظيفته يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩١٥ لمدة سنة تحت التجربة . ثم بعد أن كتب له الجواب طلب منه شفويا أن يباشر عمله ابتداء من ٤ أكتوبر لمدة شهر مجاناً.

وقد هم مصطفى بأن يرفض هذا التعيين ، لولا أنه وثق بأن فى قبوله مجاملة كبيرة للسلطان حسين تطيب بها نفسه ويرضى لها ضميره.

وبعد فترة قصيرة أقيل عبد الغنى بك شاكر من عمله، وحل محله أخى مصطفى. واستطاع أخى مصطفى خلال عمله بالسكرتارية أن يصل حبال التعارف والتآلف بينه وبين كثير من الأزهريين ، وأن يكسب قلوب كثير منهم، وأصبح (بيت أولاد عبد الرازق) فى مصر مثابة لوفودهم، يجتمعون فيه كما يجتمع فيه غيرهم من أصدقاء العائلة وزوارهم، وفيهم المسلم والمسيحى والعربى والعجمى والرجال والنساء. وبذلك صار بيته ندوة فى القاهرة يقصدها أهل العلم والأدب من أهل مصر ومن الوافدين عليها من غيرهم، ويدور الحديث فيها، لا لغو فيه ولا تأثيم ، حول أطراف من الدين أو الأخلاق والفلسفة أو السياسة، ومن الجد والهزل وبلسان عربى وأعجمى.

لا جرم أن هذه الندوة قد أمدت النهضة المصرية بلون طريف من العلم والأدب، وأظهرت بين المصريين طائفة ذات طابع خاص من الثقافة يمتزج فيه القديم بالحديث، وتتآلف عنده الفلسفة والدين، وتتفتح فى رحابه آفاق البحث، وتنطلق تحت ظلاله مذاهب الفكر. ولا شك أن أخى

مصطفى كان - من حيث يريد أو لا يريد، ومن حيث يدرى أولا يدرى - هو مدار هذه الحركة وقطبها.

فغضب واستقال

فلا غرو أن يكون قد تعرض من أجل ذلك لأنواع شتى من المكاره، وأن يكون عمله في الأزهر لم يخل من منغصات الأزهريين ومكايدهم، ومن منغصات غير الأزهريين أيضا. حدث مرة فى أثناء جلسة من جلسات المجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية أن كان الأعضاء يتناقشون فى موضوع من المواضيع، ورأى أخى مصطفى أنهم فى حاجة إلى مزيد بيان فى هذا الموضوع وأن عليه - وهو سكرتير المجلس - أن يبين لهم ما يحتاجون إلى علمه، فارد أن يتكلم فيه، فلم ينشب أحد الأعضاء أن هب فى وجهه هبة عنيفة فيها زجر وغلظة، ونهاه أن يتكلم لأنه لاحق له فى أن يشترك مع الأعضاء فى الحديث، فثارت نفسه غضبا ، ولكنه - رحمه الله - كان صبورا حليما، فتمالك نفسه، واستأذن فى الحال رئيس الجلسة فى الخروج، فخرج وعيناه تفيضان من الدمع، فكتب استقالته من السكرتارية وأرسلها إلى الرئيس وذهب إلى بيته. ولكن المسألة سويت بعد ذلك بما أرضاه، حين تداخل فيها حسين باشا رشدى رئيس الوزراء بإيعاز من السلطان حسين فى أغلب الظن.

فى الجمعية الخيرية الإسلامية

وفى سنة ١٩١٦ اشترك فى الجمعية الخيرية الإسلامية عضوا عاملا، وفى سنة ١٩٢٠ انتخب عضوا بمجلس إدارتها، ولم يزل يتجدد انتخابه في مجلس الإدارة إلى سنة ١٩٤١، حيث انتخب وكيلا لرئيس الجمعية، ثم انتخب رئيسا للجمعية فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٦ بعد وفاة رئيسها المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى، وبقى فى رياستها إلى أن توفى إلى رحمة الله.

الجامعة الشعبية

فى أواخر سنة ١٩١٧ أنشأ رجل من أهل السويد اسمه "بروزدر"، كان موظفا فى صندوق الدين بمصر، جمعية صغيرة اختار

لعضويتها صفوة من شباب المصريين والأوروبيين ليدبروا ما أسموه "جامعة الشعب"، وكان من أظهر أعضائها أخى مصطفى، والغرض منها إلقاء محاضرات عامة لتثقيف الجمهور، ورفع مستوى الشعب العلمى. وقد لبى دعوة هذه الجامعة ثلة من أهل العلم ألقوا فيها محاضرات قيمة. ولقيت هذه المحاضرات رواجا عظيما، فأقبل على استماعها جموع كثيرة. وقد ألقى فيها أخى مصطفى محاضرات كثيرة.

يرفض عرض سعد

فى الأشهر الأخيرة من سنة ١٩١٨ انتهت الحرب العالمية الأولى وقد كان انتصار الإنجليز خيبة أمل فاجعة للرأى العام المصرى الذى كان يرجو أن تنتهى هذه الحرب بخروج الإنجليز من مصر . ومن أجل ذلك وحده كان يرجو أن ينتصر عليهم الألمان، لا حباً للألمان، ولكن بغضاً للإنجليز، لولا أن شعاعاً جديداً من الرجاء طلع عليهم من سماء أمريكا، حين أعلن المستر ولسن - رئيس الولايات المتحدة الأمريكية - مبادئه الأربعة عشر التى جعلها أساس الصلح بين الدول المتحاربة، وانتقل الرئيس ولسن إلى باريس، حيث يجتمع المؤتمرون لوضع قواعد الصلح، وقد حصل أن سعد باشا زغلول شرع يؤلف الوفد الذى يسافر إلى أوروبا فى صحبته للدفاع عن قضية مصر والسعى فى تحقيق امال المصريين ، فأرسل إليه "الحزب الديمقراطى" جماعة من أعضائه، فيهم أخى مصطفى، يطالبونه بأن يختار فى وفده الذى يؤلفه من يكون ممثلا لشباب الحزب الديمقراطى.

وقد جرى بينهم يومئذ وبين سعد باشا شيء من الحوار كان فيه شدة وكان فيه لين ، ولكن يظهر أن سعد باشا رأى أخيراً أن يعترف بالحزب، وأن يجيب طلبه، فعرض أن يأخذ أخى مصطفى عضواً فى الوفد الذى يؤلفه. وكانت تقاليدنا نحن عائلة عبد الرازق تقتضى يومئذ أن نجتمع فى مثل هذه الشؤون لتقرير الرأى فيها، فاجتمعنا، وبعد بحث طويل وتشاور استقر الرأى على ألا يدخل مصطفى عضوا فى الوفد ولا يسافر. وأظن أن سبب ذلك يرجع إلى بعض اعتبارات عائلية ، وربما اقترن ذلك بشيء من عدم الاطمئنان إلى صدق هذه الحركة التى استأثر بها سعد باشا زغلول.

هذه الحركة الوطنية الثائرة التى حفزت قلوب المصريين جميعاً،

وهذه الرجة الفكرية التي أوجدها الحزب الديمقراطي، وهذه الحياة الزاخرة بالنشاط التي يحياها أخي مصطفى، كل ذلك وظروف أخرى غير قليلة ، أوغرت على أخي مصطفى صدر الملك فؤاد الأول الذي ولي سلطنة مصر بعد السلطان حسين، والذي كانت علاقته من قديم بأخي مصطفى علاقة رضا وتقدير، ولكنه أنكر منه تلك الاتجاهات السياسية والاجتماعية.

وبناء على ذلك صدر قرار من مجلس الوزراء في ٤-٩-١٩٢٠، بناء على رغبة السلطان فؤاد طبعا. بتعيينه مفتشا بالمحاكم الشرعية، لإبعاده عن الأزهر، وحرمانه الاتصال برجال الأزهر الذين كانوا يومئذ يؤيدون الثورة تأييداً كبيراً.

وفي خلال هذه الفترة اشتغل أخي مصطفى مع صديقه الأستاذ ميشيل برنارد في ترجمة "رسالة التوحيد" للمرحوم الشيخ محمد عبده من العربية إلى الفرنسي؛ وقد طبعت هذه الترجمة في سنة ١٩٢٥ بباريس.

يظهر أن عمله في التفتيش الشرعي كان يسير سهلا عاديا على طريقة "الروتين" الحكومي، ليس فيه ما يلفت النظر أو يثير ملاحظة، ولا أجد فيه ما قد يستحق الذكر، إلا حادثاً حصل في سنة ١٩٢٤، فقد سافر أخي مصطفى بإجازة خارج القطر في صيف هذه السنة قضاها في أوروبا.

مخالفته لبعض لوائح الحكومة

فلما عاد منها إلى عمله لاحظت وزارة الحقانية أنه قد تأخر سبعة أيام أكثر من الأجازة التي يستحقها والتي صرح له بها، وأراد الوزير أن يتخذ ضده الإجراءات الرسمية التي تقضي بها لوائح الحكومة في مثل هذه المخالفة ، وأقل جزاء لها أن تخصم من راتبه تلك الأيام. وكان عذره هو أنه لما أراد العودة وجد أن أماكن السفر في السفن قد شغلت جميعها مقدما حتى لم يستطع أن يجد له محلا فيها بعد جهد إلا في الموعد الذي عاد فيه. وطال الأخذ والرد في هذا الموضوع بين وزارتي الحقانية والمالية، وبينه هو وبين الوزير، وصمم هو على أن يرفض أي نوع من الجزاء كبيرا أو صغيرا، وأعد استقالته من وظيفته إن لم يكن ما يريد. وكذلك انتهى هذا النزاع بأن المسألة كلها طويت طيا وذهبت نسيا منسيا.

انتقاله إلى جامعة القاهرة

وفى أواخر عام ١٩٢٧ عرض عليه أن ينقل من تفتيش المحاكم الشرعية إلى وظيفة أستاذ مساعد للفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة فكان أميل إلى القبول وأدنى إلى الانشراح به فإنه لم يلبث أن أخذ سريعا يشق سبيله فى معترك التدريس بنجاح وتفوق أحلاه فى الوسط الجامعى محلا مرموقا.

شغفه بالقراءة

كان رحمه الله يحب القراءة حبا يكاد يغطى على كل هواياته، فهو لا يفتأ يقرأ فى جميع حالاته. وقد كنت أعجب له إذ أراه يقرأ وهو فرح أو حزين، غاضب أو راض، مريض أو سليم، كلما تيسرت له القراءة. وهو الذى علمنا أن نقرأ ونحن نقطع الطريق مشاة بين بيتنا والجامع الأزهر فى مطلع كل صباح قرابة ساعة، وفى مساء كل يوم كذلك. وقد خصص هو هذه الفترة لحفظ بعض المختصرات العلمية التى جرت عادة المجدين من الأزهريين بحفظها عن ظهر قلب، كما استخدمها لحفظ ما يروقه من الشعر والنثر وقد حفظ منهما كثيرا. أما الذى حفظه فى آداب اللغة العربية فقد يعسر حصره. ولكنى أعرف أنه كان - كما سبق القول - يروى أكثر شعر المتنبى ، وكذلك يروى أكثر شعر البحترى، وشعر الحماسة لأبى تمام، وكان من رأيه أن يقيد فى كراسات عنده ما يروقه من الشعر بيتاً أو بيتين غالباً، ويداوم مراجعته. وقد حفظ فى صغره كثيرا من شعر البهاء زهير، وكتب بحثا فيه ونشره.

وأما النثر فقد قرأ منه مقامات الحريرى وحفظ أكثرها، ومقامات البديع الهمدانى، ومقامات الزمخشرى وحفظ منهما، وكتاب الحصرى "زهر الآداب". أما القرآن فقد حفظ منه فى الكتاب كثيرا من صغار السور ، ولكنه اتباعا لنصيحة الأستاذ الإمام داوم منذ صباه على أن يقرأ عقب صلاة الصبح وصلاة العصر من كل يوم قدرا من القرآن يبلغ ربعين أو ثلاثة. فإذا ما صام فرضا أو نفلا فعادته على سنة المرحوم الوالد أن يديم تلاوة القرآن. وكان فوق ذلك كثير الرجوع إلى القرآن فى جميع مباحثه العلمية والدينية أو الأدبية. لا جزم أنه قد وصل من العلم بالقرآن إلى درجة الحافظين الدراسين.

ويبدو لى أن ملكة الحفظ عنده لم تكن من القوة بحيث تستمسك بكثير مما يختزن فيها، وليس ذلك غريبا، فإن ملكة الحفظ فيما لاحظت تضعف كلما قويت ملكة الفكر والبحث، وكأنما هما كالليل والنهار، إذا طال أحدهما فعلى حساب الآخر!

وكان من نتيجة شغفه بالقراءة - كما قلنا - أنه صار مشغوفا باقتناء الكتب وجمعها، لا يدخر فى ذلك مالا ولا جهدا. وهو الذى رتب فى بيت عبد الرازق مكتبة آل عبد الرازق، حتى صارت مكتبة كبيرة من المكاتب المعدودة فى القاهرة.

عضو فى مجلس إدارة دار الكتب

وكان يتتبع باهتمام حركة التأليف والنشر، لا يكاد يفوته كتاب منشور ويعنى كذلك بالكتب المخطوطة والنادرة، لا يبالى ما ينفق فيها من مال، وما يكلفه تفحصها من جهد. وبذلك أصبح واسع الإطلاع فى هذا الباب حجة فيه. ولذلك اختير عضواً فى مجلس إدارة دار الكتب المصرية شطراً كبيراً من حياته.

فهذه الصلة التى توثقت بينه وبين القراءة والمطالعة، وشغفه بالكتاب والدرس، قد هيأته لأن يكون أستاذاً فى الجامعة يملأ كرسيه ويقوم بين إخوانه مقاما عالياً.

منهجه الخاص فى التعليم

ذلك، وقد كان له أسلوب خاص فى التعليم الجامعى لا يكاد ينهجه غيره من الأساتذة، خصوصا فى مصر. فالتعليم عنده لم يكن مجرد إلقاء الدرس على الطلاب وتلقينهم إياه، ولكنه عبارة عن صلة عقلية ينشئها بينه وبين طلابه، فهو يشركهم معه فى بحث الموضوعات واستخراجها من مظانها، وفى مناقشة المسائل وفهم النصوص وتحرير الآراء. وهو فى كل ذلك يراجعهم ويراجعونه، ويعينهم ويعينونه. وكلهم لكلهم أساتذة، وكلهم لكلهم طلاب! وهكذا يصير درسه عبارة عن مجتمع تتقارب فيه الأرواح وتتآلف فيه النفوس، وتنبث فى جنباته عواطف الصدق والإخلاص. وبهذا المنهج الجامعى كان - رحمه الله - يربى طلبة يحبهم ويحبونه، وينشأون على ما عودهم إياه من سنن العلماء وآدابهم، ومن الجد فى طلب العلم لذاته والمثابرة عليه.

والواقع أنك لا تكاد اليوم تجد أحدا من طلابه الذين تخرجوا على يديه إلا وهو يحفظ له ذكرا جميلا ويكن له حبا صادقا واحتراما وإخلاصا. وإنك لتكاد تميز بين الأجيال الأخيرة من رجال الجامعة من كانوا من طلابه بما تلمح فى آثارهم وأعمالهم من نفحاته وتوجيهاته وطريقته. وطريقته هذه فيها من غير شك لمحة مما شاهده فى جامعتى باريس وليون، وما عرفه عن بعض الجامعات الأوروبية الأخرى، من توثيق الرباط بين بعض الأساتذة وبعض الطلبة، حتى يوجهوهم التوجيه العلمى القويم، ويراقبوهم فى تطورهم فلا يضلون.

والسبب فى ذلك واضح ، فطبائعه التى جبل عليها ، وأخلاقه التى اكتسبها وعاداته التى استقرت فى حياته. كل ذلك لاءم بين نفسه وهذا المنهج وقارب بينهما، فأحبه وأعجب به، فصار ما فيه من صعوبة سهلا، وما فيه من عسر يسرا، وما فيه من مرارة عذبا سائغا.

تعيينه أستاذاً للفلسفة

ولم يكن إلا قليل حتى غدا بين طلاب الجامعة أستاذا يحبهم ويحبونه، ويأوون من حدبه عليهم وبره بهم وإخلاصه لهم إلى أب رحيم وأخ كريم. وبعد برهة خلا كرسى أستاذ الفلسفة فى جامعة القاهرة فلم يختلف أصحاب الشأن فى اختياره له ، ومنح لقب أستاذ الفلسفة فى أول أكتوبر سنة ١٩٣٥، ومنح رتبة البكوية من الدرجة الثانية فى ٢ فبراير سنة ١٩٣٧.

ووزيراً للأوقاف

وفى أبريل سنة ١٩٣٨ دعى المغفور له محمد محمود باشا لتأليف الوزارة ، فاختار أخى مصطفى وزيرا للأوقاف، تولاها فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٨ إلى يونية سنة ١٩٣٨. ثم أعيد تأليف وزارة محمد محمود فى ٢٥ يونية سنة ١٩٣٨، فبقى هو فيها وزيرا للأوقاف مرة ثانية إلى ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٩. ثم تألفت وزارة حسن باشا صبرى فى ٢٨ يونية سنة ١٩٤٠ فدخل فيها وزيرا للأوقاف مرة ثالثة. وفى سنة ١٩٤٠ صدر مرسوم بتعيين عشرة أعضاء جدد منهم أخى مصطفى، فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية زيادة على أعضائه الموجودين من قبل، وكانوا عشرين عضوا يوم أنشىء المجمع فى سنة

١٩٣٣ فزيدوا فى سنة ١٩٤٠ إلى ثلاثين عضواً. ثم تألفت وزارة حسين سرى باشا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠، فدخل فيها وزيراً للأوقاف مرة رابعة لغاية ٣١ يولية سنة ١٩٤١ ثم سقطت وأعيد تأليفها فى اليوم نفسه، فدخل وزارة الأوقاف مرة خامسة إلى ٥ فبراير سنة ١٩٤٢.

منحه رتبة الباشوية

وفى سنة ١٩٤١ منح رتبة الباشوية وكتب إليه لهذه المناسبة صديقه المرحوم محمد كرد على هذا الخطاب:

"سيدى الأخ الحبيب

وقع توجيه رتبة الباشاوية عليك موقعا حسنا فى قلب الدانى والقاصى. وتساءلت عما تكون حالة الأستاذ فى مظهره الجديد، وهو الذى ما كان يرضى عن التلقب بالشيخ بديلا، وقلت:

ها قد اتصل القديم بالحديث، وجمع أخى بين العظامى والعصامى، فطاب الأصل والفرع.

والمهم فى هذا الباب ألا تقيد إخوانك بلقب الباشا كل حين. تطلق لهم حرية التلقيب، ولو إلى أجل مسمى. من شاء أن يطلق عليك لقب شيخ تبسم له كما تبسم لمن يناديك يا باشا. وهذا لا يضيرك ما دام لقب شيخ يولى الملقب به صفة رجل دين، ولقب باشا يومى إلى أن صاحبه رجل دنيا، والرجل كل الرجل هو الذى أسعده الله فى الدارين وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا!

وقد رد أخى مصطفى على هذا الخطاب

"حضرة صديقى الجليل الأستاذ محمد كرد على بك.

ولو رأيتنى لما رأيت مظهرا جديدا، فإننى لا أزال شيخا معمما يؤكد أسباب شيخته اشتعال الرأس مشيبا ، ولا يهولنك يا صديقى ما تقدر من روعة اللقب ، فما تخفض الألقاب حرا ولا تُسمى ، على حد قول الباشا البارودى".

ثم تألفت فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، وزارة أحمد باشا ماهر ، فدخل فيها وزيرا للأوقاف مرة سادسة. وتألفت على أثرها وزارة محمود فهمى النقراشى وبقى فيها إلى أن عين شيخا للجامع الأزهر فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥ .

وكان دخوله الوزارة أول حادث تاريخي من نوعه ، إذ لم يسبق لشيخ أزهرى قبله أن ولى الوزارة فى مصر ، وطالما كانت تغريه ظروف الحياة بأن يخلع العمامة ويتخذ اللباس الأوربى ، كما فعل كثير غيره من قبل ، ولكنه أبى كل الإباء أن يخلعها ما دام في مصر.

اختياره شيخاً للأزهر

ولقد أقيمت في سبيل تعيينه شيخا للأزهر عقبات مستندة فى ظاهر أمرها إلى قانون الجامع الأزهر الذى نص صراحة على اشتراط أن يكون التدريس في الجامع الأزهر خاصة . من أجل ذلك رأى أولياء الأمر إصدار تشريع جديد يقضى بأن يكون التدريس في الجامعة مساويا للتدريس فى المعاهد الدينية فى الترشيح لمشيخة الجامع الأزهر.

وهكذا انحل الإشكال القانونى الذى كان السبب الظاهر للمعارضة، وكان علالة الناقمين . وكان صدور هذا القانون بموافقة البرلمان كافيا فى إخضاع الداعين إلى الفتنة، فخشعت الأصوات فلا تسمع إلا همسا. ولم ينقطع همس أولئك الناقمين، بل مضوا يتخافتون بالفتنة، ويبيتون دسائسهم، ويدبرون مكايدهم التى أتقنوا صنعتها، ويغرون به السفهاء، ويضعون فى سبيله العراقيل .

وقد جاء فى مذكرات المرحوم محمد كرد على ، نقلا عن المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ما نصه:

"حدث عقب توليه مشيخة الأزهر أن عزت إليه جريدة "الموند" الباريسية حديثا اتخذ منه خصومه آلة للنيل منه. وخلاصته أن فرنسا أحرزت مكانا ممتازا بما بذلت من الجهود الكريمة فى نشر الثقافة بين المسلمين، ورجا أن لا تتخلى عن خطتها لتحتفظ بالحب الذى يكنه لها العالم الإسلامى. فقامت صحف مصر والشام تغالى فى تزييف رأيه فى مدح فرنسا، واتفق أن أهدته حكومتها فى غضون ذلك وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير، فزاد ذلك فى الطين بلة وأغلب الظن أن الأستاذ الأكبر لم يتعارف إلى هذا الوسام، وما عبأ بتكذيب ما نقل على لسانه من حب المسلمين فرنسا" . وفى الحق أنه كان - رحمه الله - يأخذ خصومه الأزهريين وغير الأزهريين بما جبل عليه من الأناة والاحتمال وجميل الصبر وحسن الحيلة.

وأميراً للحج

لم يمض عليه حول كامل في مشيخة الأزهر، حتى اختير أميراً للحج، فخرج لأدائه في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٦. ولبث في رحلته تلك شهراً واحداً وأياماً، وعاد منها في أوائل ديسمبر سنة ١٩٤٦. فأخذ يعالج من شؤون الأزهر ما يعالج شهرين اثنين ونصف شهر.

ولعله قد استطاع بعد لأي أن يمهد لنفسه شيئاً فشيئاً بين دسائس الأزهريين مواقع خطوه، وأن يرسم مناهج الإصلاح الذي كان يرتجيه للأزهر والأزهريين.

ولكن الأزهريين لا يريدون لأنفسهم ولا لأزهرهم خيراً ولا صلاحاً، فما انفكوا يوصدون كل باب يفتح لإصلاحهم، ويتربصون الدوائر بكل من تحدثه نفسه بأن يرتجي لهم الخير والإصلاح. بل لعل الله جلت حكمته قد قضى ولا راد لقضائه بألا يتم للأزهر ولا للأزهريين خير ولا إصلاح.

ففي يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٤٧، ذهب إلى الأزهر كعادته، فدبر من عمله ما دبر، ثم رأس جلسة المجلس الأعلى للأزهر إلى ما قبل العصر، ثم عاد إلى منزله فتغذى ونام القيلولة، ثم استيقظ فتوضأ وصلى، وأخذ يلبس ثيابه، فشعر بإعياء وهبوط، فأوى إلى فراشه ، ودعى الطبيب من قريب لإسعافه فحضر، ولكنه وجد قضاء الله قد نفذ ، ولا مرد لقضاء الله.

صفاته كما عرفها طه حسين

كنت في السادسة عشرة حين لقيته لأول مرة حين أقبل زائراً لثلاثة من رفاقه في الأزهر، بينهم أخي.

وقد لقيت منه شاباً حار الصوت، صادق اللهجة، عذب الحديث، لا يرفع صوته إلا بمقدار؛ وكان قليل الحركة، معتدل النشاط، يمتاز من رفاقه أولئك بهذا الوقار الهادئ المطمئن الذي لا يتسم به الشباب عادة، وإنما هو سمة الشيوخ ومن يجري مجراهم من الذين تقدمت بهم السن. وكان جم الأدب، موفور التواضع ، لا يتجاوز القصد في قول أو عمل، يفرض عليه طبعه ذلك، ويفرضه هو على الذين يجالسهم أو يتحدث إليهم، كأنما كان يلقي في نفوسهم وقلوبهم وعلى ألسنتهم، فضلاً من

وقاره وهدوء نفسه. فهم يتحدثون مثله فى أناة، ويضحكون مثله فى قصد، ويروون معه أحاديث الجد، وربما عبثوا شيئا بنوادر الشيوخ من أساتذة الأزهر، ومضى وقت غير قصير قبل أن تقوى الصلة بينه وبينى.

كان قد أشرف على الخروج من طور الطلب إلى طور العلماء، وكنت فى أول عهدى بالدرس، لم أنفق فى الأزهر إلا عامين أو ثلاثة. وكان أولئك الرفاق يلقونه فى درس الأستاذ الإمام، ويزورونه - إذا أقبل الليل - فى داره بعابدين. فإذا عادوا تحدثوا عنه وعن إخوته، وعمن كانوا يلقونه فى تلك الدار، ومهما أنسى فلن أنس تلك الجماعة التى ألفها من بعض أولئك الممتازين من طلاب العلم فى الأزهر، ونظم لها اجتماعا برياسته مساء الجمعة من كل أسبوع. وكانت هذه الجماعة تلتقى فى غرفة من غرفات الطلاب فى ربع من ربوعهم أيضا بخان الخليلى، ويلقى أعضاؤها أحاديث فى موضوعات مختلفة تدور كلها حول الإصلاح الذى كانت مصر كلها تتحرق ظمأ إليه، وإلى إصلاح الأزهر خاصة، وكان افتتاح مصطفى عبد الرازق لجلسات تلك الجماعة هو أشد ما يعجبنى ويروعنى، فهو لم يكن يزيد على أن يسمى الله ويقرأ الفاتحة، ثم تأخذ الجماعة فيما تريد أن تدير بينها من الحديث. وأى افتتاح أبلغ وأوقع فى القلوب من اسم الله وفاتحة الكتاب المجيد! وقد عرفت بعد ذلك أن مصطفى عبد الرازق كان يذهب فى ذلك مذهب الوفاء الصادق لأستاذه الإمام الذى افتتح رسالته فى التوحيد نفس هذا الافتتاح.

وعرفته كذلك وفيا لكل من أحب من الناس لا يفرق بينهم فى ذلك مهما تكن الظروف ومهما يبعد بهم الزمان والمكان ومهما تلم الأحداث وتدلهم الخطوب.

كان وفيا للشافعى، رحمه الله، لأنه كان يذهب مذهبه فى الفقه، ويرى الوفاء له دينا عليه. ومن أجل ذلك ترجم رسالته وعنى بدرسها وترجمتها وقتا غير قصير. وأثر هذا الوفاء للشافعى فى حياته العقلية نفسها وفى نهجه الفلسفى تأثيرا شديدا، وفتح له أبوابا من العلم لم تفتح لأحد من قبله من علماء المسلمين. فدراسته لرسالة الشافعى فى الأصول ألقت فى روعه رأيا خصبا لم يستغله تلاميذه بعد، وأرجو أن يتاح لبعضهم تعمقه واستقصاء آثاره الخطيرة فى تاريخ الحياة العقلية للمسلمين. فقد رأى أن الشافعى يفلسف فى أصول الفقه وما يتصل به من

المشكلات المختلفة فـي الديـن واللغـة واستنباط الأحكـام مـن النصـوص، فارتقى برأيه هذا إلى مـن سبق الشـافعى مـن المفكريـن المسـلمين الذيـن أنشـأوا فلسـفتهم الأولــى مـن عنـد أنفسـهم، وكـانت فلسـفة يسـيرة سـمحة كالإسلام نفسه.

وفيا لأساتذته

وكان وفيا للذين عرفهم وحسنت الصلة بينه وبينهم مـن الأسـاتذة الفرنسيين حين أقام فى فرنسا طالباً للعلم الحديث، بعد أن أخذ بحظه مـن العلم القديم فى مصر.

عرف أستاذاً فرنسياً شاباً فى إحدى الجامعات هناك واشتد الإلف بينهما، ثم أعلنت الحرب العالمية الأولـى، ودعـى ذلك الأسـتاذ الفرنسـى إلى أداء واجبه العسكرى، فاستجاب للدعاء وترك زوجه وليس لها عائل، فكان مصطفى عبد الرازق يؤثرها على نفسه بالنصيب الأوفـر ممـا كـان يصـل إليه من المال، لا يـتردد فـى ذلـك ولا ينقطـع عنـه حتـى عـاد إلـى مصر. والله يعلم مـاذا فعل بعد عودتـه. وقد عرفـت ذلـك مـن الأسـتاذ الفرنسى نفسه، وقد كلمت فيه مصطفى فغير مجرى الحديث، وظـل وفيـاً لهذا الأستاذ، حتى إذا وضعت الحـرب أوزارهـا، ومضـى شــىء مـن الوقـت، وخـلا منصـب فنـى مـن المنـاصب فـى مصـر، ولــم يكـن بيـن المصريين من يستطيع النهوض بأعباء هذا المنصب، وأخـذت الحكومـة تبحث عن أجنبى - جد مصطفى حتى اختير صـديقه ذاك لهـذا المنصـب. وسألته عن عنايته الخاصة بهذا الأستاذ وجده فى السعى له ؛ فأنبأنى بانه يرى فيه الكفاية لمنصبه أولا، وبأنه فقد زوجه وجزع لفقدها، فمن الخـير أن يترك وطنه ومدينته ويشغل عمله ذاك الجديد، عسى أن يجد فـى ذلـك عزاء وتسلية.

وربما جر عليه وفاوه ذاك بعض ما كان يضيـق بـه مـن الأمـر، ولكنه لم يحفل قط بعواقب الوفاء أتكون خيراً أم شراً ، بل لـم يحفـل قـط بعواقب الواجب وما يمكن أن تجر عليه مما يسوؤه أو يرضيه. كان سعد زغلول منفياً عن وطنه وكانت زوجـه تعيش فـى دارهـا بالقـاهرة يبرهـا المصريون والسعديون منهم خاصة ، وكـان مصطفـى مـن أسـرة مذهـب الأحرار الدستوريين الذين كـانوا يخـاصمون سـعداً أشـد الخصـام، وكـان مفتشاً قضائيا بوزارة العدل، وأقبل عيد من الأعياد، فلـم يـتردد مصطفـى

فى أن يذهب إلى دار سعد ويترك بطاقته هناك.

وانقضت أيام العيد، وذهب مصطفى إلى عمله، فلم يكد يستقر فى مكتبه حتى دعى للقاء الوزير. فلما لقيه قال له الوزير: ألم أعلم أنك ذهبت إلى دار سعد وتركت فيها بطاقتك يوم العيد؟ قال مصطفى: قد كان ذلك . قال الوزير: أو لم تعلم أن سعداً يناوئ الحكومة القائمة وأن زيارة داره سياسة محظورة على الموظفين؟ قال مصطفى: تلك مجاملات لا شأن لها بالسياسة ولا بالحكومة . قال الوزير: فأنت مفصول منذ الآن. قال مصطفى: أنت وما تريد. وعاد مصطفى إلى داره غير حافل بما كان. ولكن رئيس الوزراء ثروت باشا، رحمه الله، علم بالأمر فعاتب الوزير فيه، وترضى ذلك الوفى الذى وشت به الأرصاد فعوقب على الوفاء.

كلمة ينبغى أن يذكرها القادرون

والبر بطلاب العلم خاصة ، وبكل من كان يحتاج إلى البر عامة، كان الخصلة الثالثة من خصال مصطفى عبد الرازق. فلم أعرف قط قلباً أبر بفقير، ولا نفساً أرق لذى حاجة، ولا يداً أسرع إلى العطاء، من قلب مصطفى عبد الرازق ونفسه ويده.

كان أستاذاً فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكنت لها عميداً فى بعض الأوقات. وكان فقراء الطلبة أكثر مما تحتمل قواعد المجانية فى الكلية إذ ذاك، فكان يسعى إلىّ فى بعضهم، فأجتهد له فى ذلك حتى لا أجد سبيلا إلى الاجتهاد، فأشهد ما تخلف قط عن أداء نفقات التعليم عن أولئك الذين كانت تضيق بهم القواعد. وكلمته فى ذلك ذات يوم وقلت له: توشك ألا تجد شيئاً من مرتبك آخر الشهر؛ فضحك ضحكة حلوة ، وقدم إلىّ سيجارة من نوع جديد، كما كان يقول، ثم ألقى بهذه الكلمة التى لم أنسها قط، والتى ينبغى أن يذكرها كل قادر على العون: وماذا تريد أن نصنع بهؤلاء الطلاب؟ أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى؟

حين رفع صوته لأول مرة

ولم أره غضب قط، إلا مرة واحدة حين تدخل بعض الأساتذة الأجانب فيما لا ينبغى للأجانب أن يتدخلوا فيه من شئون كلية الآداب، وألح فى تدخله، فأخرج مصطفى عن طوره واضطره للمرة الأولى - فيما أعلم - إلى أن يرفع صوته ويظهر غضبه ويكف ذلك الأستاذ عما لم

يكن له أن يدخل فيه.

كان وفيا وكان أبيا وكان برا وكان سمح الطبع والنفس والقلب. لم أره قط يخرج عن هذه الخصال منذ عرفته إلى أن فرق بيننا الموت.

لم يكن شيء قادرا على أن يغير من خصاله تلك شيئا. كان سمحا فى جميع أطواره وفى أطوار من حوله من الناس وما يحيط به من الظروف. كانت الابتسامة الحلوة أدل شيء عليه، والحديث العذب ألزم شيء له. وكان يضيف إلى خصاله هذه خصلة أخرى إذا كتب، وهى خصلة العناية الدقيقة جداً بالتفكير أولا وبالتعبير بعد ذلك عما فكر فيه. كان لا يكره شيئا كما كان يكره العجلة فى القول والعمل والمشى أيضا.

وكان لهذه الأناة أثرها فى كتابته، فأنت لا تجد فيما يكتب معنى نافرا أو فجا لم يتم نضجه قبل أن يعرب عنه. وأنت لا تجد فيما يكتب لفظا نابيا عن موضعه، أو كلمة قلقة فى مكانها؛ وإنما كان كلامه يجرى هادئا مطمئنا كما يجرى ماء الجدول النقى ، حتى حين يداعب صفحته النسيم. كنت أشبه له كتابته بعمل صاحب الجواهر: يستأنى بها ويتأنق فى صنعها لتخرج من يده جميلة رائعة تثير فيمن يراها المتعة والرضى والإعجاب، كان يتأنق فى فنه كما كان يتأنق فى حياته كلها، وكما كان يتأنق فى سيرته مع الناس جميعا، سواء منهم من كان يألف ومن كان يجفو . فلست أعرف أن أحدا سخط عليه أو ضاق به أو شكا منه. كان راضى النفس، يبعث الرضى فى نفوس الناس حين يرونه وحين يسمعونه وحين يقرءون له.

الوحيد الذى سمحوا له بالتجاوز

وإنى لأذكر حديثا له ألقاه فى مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين فى مدينة "ليدن" ، وكان المؤتمرون كثيرين، وكانت أحاديثهم كثيرة متنوعة ، وكان رئيس الجلسة مضطرا إلى أن يقدر للمتحدثين عشرين دقيقة لا يعدوها أحد مهما يكن حديثه. وقد التزم المؤتمرون ذلك ولم يخالف عنه أحد منهم. فلما أخذ مصطفى فى حديثه فى صوته ذاك الهادئ العذب الرقيق أصغت إليه الآذان، ثم صغت إليه القلوب، ثم اتصلت به النفوس. وكان يقطع حديثه بين حين وحين ويلتفت إلى الرئيس مبتسما كأنه يسأله: أيمضى فى حديثه ! فيشير الرئيس إليه: أن

نعم، حتى إذا أتم حديثه كان قد جاوز الأربعين من الدقائق . لم يحس أحد أنه قد أطال، وأخذ من الوقت أكثر مما كان ينبغى له.

حديثه عن نفسه

يدون الشيخ مصطفى عبد الرازق من مذكراته سطورا عن نفسه فى يونيو ١٩١٨، فيكتب[*] "يقول بعض أصدقائى عنى أننى بر زخ بين رجال الدين وبين الناشئة الحديثة ، وعسى أن أحقق بقدر ما أصحيه من ذاتى صلة بين القديم والحديث تمحصهما جميعا حتى يبقى ما هو خير للأمة فى رقيها المنشود" .

وهكذا يجمع الشيخ مصطفى عبد الرازق بين الحسنيين من المميزات التى يجب أن يتحلى بها رجل الدين ورجل الدنيا، فمن يراه من المشايخ يحسبه ليس منهم ومن يراه من طالبى الدنيا يحسبه من رجال الدين، فهو الشيخ وهو الأستاذ وهو المفكر، وهو الفيلسوف، وهو الشاعر وهو الناقد، وهو البار، وهو الرحيم، وهو المتذوق لألوان الفن والجمال، وهو المحافظ وهو المتحرر.. إنه تركيبة نادرة من الرجال، وأحسب أن أخص صفاته الحلم والأدب وحلاوة اللسان، وأحسب أيضا أن هذه الصفات قد أخذها عنه نجيب محفوظ وتأثر به من خلالها.

وسنحاول الكشف عما نستطيع الكشف عنه من مزايا الشيخ مصطفى عبد الرازق وشهادات الذين عرفوه.

وصفه لأم كلثوم

لاحظ الصحفى الكبير مصطفى أمين حين كان يتناول طعام الغداء أو العشاء فى منزله أن هناك انفصالا بين الرجال والنساء وقت تناول الطعام.

هكذا نراه متحفظا ، ثم نراه متحررا حين ظهر فى صورة نشرتها له الصحف بصحبة المطربة اسمهان.

ونشرت له صحيفة "السياسة" فى ٣ ديسمبر ١٩٢٥، وصفا لأم كلثوم وهى تغنى بالعقال، فقال:

"تظهر أم كلثوم بادئ الأمر رزينة ساكنة، تشدو وتشدو بصوتها

---

[*] من مذكراته – السابق.

الحلو شدوا لينا من غير أن يتحرك طرف من أطرافها إلا هزة لطيفة تنبض بها رجلها اليسرى أحيانا! ثم ينبعث الطرب في هيكلها كله فتنهض قائمة، وترسل النغمات متعالية تذهب في الآفاق هتافا مرددا، أو تترجع رويدا حتى تتلاشى حنينا خافتا، وتهزها أريحية الشباب والطرب فتساير النغمات في حركاتها مندفعة بوثبات الشعور وراء مذهب الفن ، وتتلوى عن يمينها وشمالها أعناق الشيوخ (إشارة إلى تختها المكون من الشيوخ بعمائمهم، عن اليمين شيخان، وعن اليسار شيخان) ويا ليت شعري ما لأم كلثوم والشيوخ؟

أم كلثوم نعمة من نعم الدنيا فما بالها تأبى إلا أن تتجلى على الناس في ظهر الآخرة".

دهشة توفيق الحكيم

وإذا كنا قد رأيناه ناقدا فنيا لأم كلثوم في حفلها الغنائي في بداياتها الأولى، فقد ظهر كناقد أدبي لتوفيق الحكيم في أهل الكهف أول عمل أدبي للمبدع الشاب، فيكتب أيضا في جريدة السياسة مثنيا على "أهل الكهف" وما فيها من خيال موفق ، وفكر مستقيم، وزوق سليم.

وقد دهش جدا توفيق الحكيم ، كيف أن رجلا من رجال الدين المحترمين يقرأ تمثيلية ويكتب عنها بهذه الطريقة . لذا وصفه الحكيم بأن(*): تفكيره عصري جدا.

وجدت في عقليته أنه رجل متحرر جدا. كان يقرأ في كل شيء، ويذهب إلى أوروبا كل صيف ليجدد معلوماته. وكان أنيقا. في وجهه إشراق الفكر وإشراق العقيدة .. "فالأصالة والمعاصرة جزء من تكوين الشيخ مصطفى عبد الرازق".

هو والبهاء زهير

وله مؤلفات تدل على ذلك ، منها:

- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية.
- الدين والوحي والإسلام
- مذكرات مسافر

(*) الأخبار ١٤/٥/١٩٨٦.

- مذكرات مقيم
- أصول المنطق

وله كتاب عن الشاعر "البهاء زهير" الذى يراه "مصريا فى عواطفه وفى ذوقه وفى لهجته، وإن كان مولده فى بلاد "الحجاز".

واقرأ وصفه لخلاله "إن البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم، يجمع إلى حب الخير، وفضيلة العفو، قوة الشخصية ، وشرف النفس ، وعزة الأدباء ، وتلك صفات لا تجمع إلا لأهل الفطر الفائقة".

وكأنى بمصطفى عبد الرازق قد أحب البهاء زهير وكتب عنه لأنه وجد فى هذا الشاعر صورة من نفسه.

الموت أهون يا على

يحدثنا حافظ محمود عن إيثار الشيخ مصطفى عبد الرازق للآخرين على نفسه ولو كان به حاجة، مع بداية الثلاثينيات والأزمة الاقتصادية العالمية طاحنة ، وقد دار الحوار بينه وبين أخيه الشيخ على عبد الرازق.

(*) "كان حديث "على" يدور حول الظروف الاقتصادية القاسية التى ألمت بثروة الأسرة مما يحتم اختصار الكثير من النفقات.

وسأل مصطفى شقيقه عن أبواب الاختصار، فقال على : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فنحن ندفع لعشرات الأسر رواتب شهرية من باب المساعدة . أليس من العدل أن نبلغ هذه الأسر أننا على كره منا لن نستطيع لها عطاء بعد شهر أو اثنين.

ولكن مصطفى كان حاسما: لا يا على. الموت أهون علىّ مما تقول، أولئك ناس ربطوا عيشهم بعيشنا واطمأنوا لنا، فلنقطع نحن من أقواتنا لنعطيهم وإن اقتضى الأمر أن نستدين لنجنبهم مذلة الحاجة.

وكان راتبه فى وزارة الأوقاف يذهب للمحتاجين وقد استنفدت تأشيراته الخيرية ضعف الاعتمادات المقررة لهذا الوجه فى الوزارة.

وقد تنازل عن الباشوية عندما صار شيخاً للأزهر، وكان أول شيخ للأزهر يخطب بالفرنسية مرتجلا. ومن تلاميذه عبد الرحمن بدوى ، الذى أشرف على رسالته للدكتوراه عن "الوجودية" ، حتى بعد أن صار

(*) العروة الوثقى - مايو ١٩٨٢.

وزيرا. وقال عنه تلميذه د. توفيق الطويل "إنه أول أستاذ للفلسفة الإسلامية فى الشرق" وهو أول من عرفنا "بالكندى" فيلسوف العرب، و"الفارابى" المعلم الثانى، بعد أرسطو.

أمر بتدريس اللغات الأجنبية بالأزهر الشريف، وتوسع فى إرسال البعثات العلمية إلى فرنسا وإنجلترا. وأرسل الدعاة إلى قلب أفريقيا.

لقد كان مدركا لرسالة الأزهر، ولذلك مضى فى إصلاحه وتطويره على سنة أستاذه الإمام محمد عبده، أو كما يقول طه حسين "فقد كان مصطفى أحسن خليفة للأستاذ الإمام ورث عنه علمه وطموحه إلى الخير، وأضاف إلى هذا التراث من العلم بالحضارة الحديثة شيئا كثيراً، وأتيح له منذ تولى أمر الأزهر ما لم يتح لأستاذه من السلطان. فكان خليقا أن يمضى بالإصلاح الدينى والعلمى والخلقى فى البيئة الأزهرية إلى أبعد الغايات".

ولكن القدر لم يمهله ليستكمل مسيرة الإصلاح التى بدأها فى الأزهر إذ لم يمكث على كرسى المشيخة سوى حوالى أربعة عشر شهرا.

مصطفى عبد الرازق كاتبا للقصة

ويلفتنا الأديب الكبير يحيى حقى إلى جانب مجهول فى شخصية الشيخ مصطفى عبد الرازق ومواهبه المتعددة، وذلك حينما راح يؤرخ لفجر القصة المصرية وذكر أسماء كثيرة سقطت وأدركها هو فى كتابه "فجر القصة المصرية" وكان من العجيب أن يذكر اسم الشيخ مصطفى عبد الرازق ويفرد له صفحات كثيرة يتحدث فيها عن شخصيته وفضله على القصة المصرية الحديثة بكتاباته التى أسماها "اللوحات القلمية" وهى ضرب من التأليف شق مجراه بين المقالة والقصة القصيرة وإن التزم شاطئ الثانية لا الأولى، فكان بمثابة رافد ثرى كبير لها - والكلام ليحيى حقى - لأنه يجد منطلق أنفاسه وتبرير وجوده ورضائه عن نفسه وتحقيقه لهدفه ودواعى تنوعه وتطوره، يجد هذا كله فى جو القصة لا المقالة وإن لم تفلت يده مع ذلك من يدها، فالذى يحركه هو مزاج فنى".

إن يحيى حقى يذكر أسماء الذين طلعوا بفجر القصة، د. حسين

فوزى، محمد ومحمود تيمور، طاهر لاشين، والشيخ عبد العزيز البشرى، وقد بقى "اسم جليل كان له عديد من هذه اللوحات القلمية الفريدة الراقية الذوق المرهفة الحس، الظريفة المداعبة، والضحكة إذا لم تكن ابتساما فمع إدارة الوجه بحياء أودسها فى الكم أو حبسها فى الشدق.

اللفظ مصفى بأربعين غربال وغربال، يكاد يرقص من فرط الرشاقة. تلك اللوحات الصادقة الناقدة الهادفة الساخرة بلا حرج، المطببة بلا أجر، اللاقطة بعجب، والفاهمة باستعبار غير ممض، فالمستغفرة بسماحة لدموع التماسيح وضحك الضباع، إنما غاية امتعاضها من الذى لا رثاء له إلا نفسه .

هى لوحات المعلم الفقيه الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق عليه رحمة الله ورضوانه، بعنوان "مذكرات الشيخ فزارة".

ومن عجب ومن أسف أنها لم تحظ من النقاد بما هى جديرة به من الإلتفات والعناية لأمر ما لا يعدم سره إلا الله، يحيد الضوء عن أغلى الجواهر، ويتسلط على المحظوظ من فصوص الزجاج البراق، وسيسعدنى كل السعادة أن أتحدث عنها وأعرفك بها. وقد وصف يحيى حقى كتابات مصطفى عبد الرازق فى "الجريدة" فيما بين ٢ مايو و٢٧ أغسطس ١٩١٤، حين كان لا يزال يدرس فى باريس، بأنه تمنى لو اختزلها فى حجم الحجاب ليضعها فوق قلبه "لأكون فى رفقتها حيثما كنت، وأينما سرت ، فلا أعرف قلما أحببت آثاره كهذا الذى خطها ، ولا بجلت إنسانا كصاحب هذا القلم، كم كنت أتمنى أن ألثم اليد والأصابع التى منحتنا كل هذا الجمال.

لم أحزن على شىء فاتنى إلا هذه القبلة". ويكمل يحيى حقى إعجابه بالشيخ مصطفى عبد الرازق برسم صورة قلمية له لا تخرج عما أجمع عليه معاصروه بأنه "يميل إلى الهدوء والمسالمة والتسامح.

ان الصفة الطاغية عليه هى الظرف والدماثة.

على الوجه إشراق، وفى العين ابتسامة.

فى الحركة والإشارة تؤدة ورشاقة.

وفى الملبس أناقة، وفى الوقع خفة النسيم،

وفى الكلام قصد وعفة ، ومن الكف بذل وحنان،

وتربيت يد أم على راس وحيدها الصغير، أما التنهد وتعكر

الجبهة ونطق العين بمشقة التجلد، فعند الخلوة إلى نفسه . هذا وقت الكشف عن الجراح المستورة وتطبيبها، تدوم الخلوة دوام مصارعته ليد شريرة تجذبه إلى أسفل إلى التسليم ، إلى القنوط ، فيشد غرمه ومعدنه عن قبضتها من قبل أن تهصر عزمه أو تلوث معدنه ليستعيد إشراقه وابتسامته ، ويخرج للناس بأمل قديم يتجدد ولا يفنى وثوقه به ، هذا شأن كل إنسان حساس، فإن لم يكنه هو فمن يكونه.

إنه لا يعتنق مبدأ الثورة والعنف، بل لعله يخافها ، لا عجب فهو من أسرة عبد الرازق التي كانت من أعمدة حزب "الأمة" ، الذى يؤمن بالتطور التدريجي لا بالتحول الثورى.

وكانت أسرة الشيخ عبد الرازق تسكن فى قصر وراء قصر عابدين مقر الخديو ثم الملك الذى تكرهه، وكأنما تريد أن تحقق الأغنية الشعبية الشهيرة:

يبقى النظر فى النظر والقلب قايد نار

ومن الصفات الخلقية إلى الصفات القلمية ، يعتبر يحيى حقى "لوحات مصطفى عبد الرازق" (منشورة كاملة فى كتاب "من آثار مصطفى عبد الرازق" - دار المعارف ١٩٥٧) فتحا فى الأسلوب العربى يجعله راندا من رواد القصة القصيرة ينبغى أن يكون له ذكر حين يؤرخ لها، إن لم يكن كتبها فهو ولا ريب قد مهد الطريق لها بهذا الأسلوب الفنى الذى ينم - إلى جانب رشاقته ودعابته ودقته القصوى - عن قدرة فائقة على التحليل فى عالم الماديات والمعنويات معا - ويبرر ذلك بأن العصر الذى فيه كتب هذه اللوحات القلمية كان عصر عنعنة اللغة، لذلك أفرد يحيى حقى، للشيخ مصطفى عبد الرازق ست مقالات كاملة فى كتابه "فجر القصة المصرية" راجيا أن يلفت النقاد ومؤرخى القصة إلى هذا الرجل.

د. حسين فوزى

السندباد

"أنا مغرم بالغناء الشرقى والموسيقى العالميـة ، ومسـتمع دائـم للدكتور حسين فوزى فى سهرة الجمعة، وبفضله قبل كل شىء عرفـت سبيل متعتى الروحية إلى إلهامات بيتهوفن وموزار وغيرهم".

نجيب محفوظ

أساتذتى(*)

"لا أتذكر على وجه اليقين متى عرفت الدكتور حسين فوزى، ولكن المؤكد بالنسبة لى أننى عرفته منذ أن عملت بمصلحة الفنون مع يحيى حقى، فى نفس الوقت الذى كان فيه د. حسين فوزى وكيلا لوزارة الثقافة، وأتذكر وقتها أننى أهديته "زقاق المدق"، وقد حدثنى عنها حديثا طيبا وهو يزور يحيى حقى.

وقد لاحظت أن د. حسين فوزى يشجع الموسيقى الغربية تشجيعا قويا جدا، بينما يحتقر السينما احتقارا شديداً جدا، إلى درجة أنه أثناء توزيع بنود الميزانية وتخصيص جزء منها لمشاركة السينمائيين فى المهرجانات الدولية للتعرف على السينما العالمية والاحتكاك بصناعة السينما فى الخارج لاكتساب خبرات جديدة ، فإننا لم نكن نستطيع الحصول على موافقة د. حسين فوزى على بند المهرجانات إلا بشىء من العذاب، لأنه لم يكن يعتبر السينما المصرية فنا من الفنون ، ولا يعتبر القائمين عليها من الفنانين.

وكانت نظرته للموسيقى الشرقية لا تختلف كثيرا ، لارتباطه بالموسيقى الغربية، رالحضارة الغربية بشكل عام، وهو يمثل مع محمود عزمى، وسلامة موسى، وأيضا لويس.عوض، الجناح اليسارى فى مسيرة الثقافة المصرية ، أى الاتجاه إلى الغرب. وفى رأيي أن الحضارة الغربية يجب ألا تنقل كاملة بل يتم استثمارها والاستفادة منها فى الحضارة الأصيلة لأن المسألة لا تقوم على الفناء فى حب شىء واحتقار شىء آخر، لأن الدعوة المطلقة للغرب ليس لها أنصار. ومن الغريب أن للدكتور حسين فوزى كتابا مهما جدا هو "سندباد مصرى" يحمل روحا

(*) مقدمة أملاها نجيب محفوظ للمؤلف لتتصدر كتاب "فى براح الفكر" للدكتور حسين فوزى – عن المجلس الأعلى للثقافة.

مصرية عميقة ، وهو من أجمل الكتب المصرية التى قرأتها.

وانحياز د. حسين فوزى للحضارة الغربية هو تطور عقلى واختيار عقلى، ورغم أنه وأنا من مواليد حى شعبى هو "حى الحسين" حيث ولد فى "درب الوطاويط"، إلا أن اختياره العقلى كان للغرب، بينما كان اختيارى للبيئة الشعبية.

وكان د. حسين فوزى صديقا صدوقا لتوفيق الحكيم، ودائما ما كان يجلس بمكتبه فى الأهرام، وقد توثقت علاقتى بحسين فوزى عن طريق توفيق الحكيم ، حيث لم نكن فى وزارة الثقافة نتصل به إلا أيام الميزانية، وحين التحقت بالأهرام، أمكننى الاتصال به خلال لقائه بتوفيق الحكيم، أثناء وجوده بالقاهرة، أما فى الإسكندرية حيث ألتقى بالحكيم هناك أثناء الصيف، فإن د. حسين فوزى يكون قد سافر فى نفس الوقت إلى فرنسا حيث كان يقضى هناك نصف العام، بينما يقضى النصف الآخر فى القاهرة.

وقد جمعنى "الأهرام" مع د. حسين فوزى، ود. بنت الشاطئ فى حجرة واحدة، وكانت صحبة د. حسين فوزى صحبة جميلة جدا، فهو رجل فى منتهى الذوق والأدب، وقد احترمت أستاذيته إلى أبعد الحدود، فقد كان د. حسين فوزى مفكرا موسوعيا، ومما قرأته له "الموسوعة العلمية" بالاشتراك مع بعض العلماء، وهى تعطى فكرة عن العلم منذ نشأته حتى وقت كتابتها، مما يدلنا على اهتمام د. حسين فوزى بقضية العلم التى هى قضية العصر". هذا الجانب العلمى فى حياة د. حسين فوزى إلى جانب اهتماماته الموسيقية والتاريخية والفكرية يؤكد طبيعته كموسوعى، ولكن – للأسف – الموسوعيين لا يبرزون فى شىء واحد، لأن كثرة اهتماماتهم لا تعطيهم الوقت الكافى للتخصص فى ناحية معينة، وربما كان هذا سببا من أسباب عدم حضور د. حسين فوزى فى الذاكرة الإبداعية مثل هؤلاء الذين تخصصوا وبرزوا فى ناحية معينة من نواحى الإبداع.

ورغم أن د. حسين فوزى قد ألف نظريا كتبا فى الموسيقى إلا أنه كان عازف "كمنجة" بسيط ، فقد كان شارحا للموسيقى لا مبدعا فيها، والمسألة موهبة، ولو كانت عنده موهبة موسيقية لبرز فيها، ولكنه كان أستاذا للموسيقى، وأنا أدين له بتوجهى للموسيقى الغربية، فقد كان

يتحدث عنها فى الإذاعة فى يوم محدد من كل أسبوع، وكنت أتابعه، فى نفس الوقت الذى كنت قد اشتريت فيه كتابا عن الموسيقى فى جميع العصور، ومن خلال التنويه عن البرنامج الذى يقدمه د. حسين فوزى كنت أقرأ كل شيء عن الشخصية الموسيقية التى سيقدمها فى برنامجه، فأكون قد تهيأت بالمعرفة للاستماع إليه، مما يلقى إضاءة على الموسيقى المذاعة وصاحبها، مما يجعلها أفيد وأمتع.

ولم تكن دائرة الاهتمامات الأدبية والعلمية والفنية والتاريخية هى الدائرة الوحيدة التى ساهم فيها د. حسين فوزى بنصيب، ولكنه كشأن الأدباء كانت له إسهامات سياسية سواء بالرأى أو بالفعل، لأن السياسة هى اشتغال كل مواطن، ومن باب أولى أن يشتغل بها الأديب أو الفنان، وقد كنت أخالف الأستاذ أحمد بهاء الدين فى وجهة نظره التى كان يرى فيها ضرورة ابتعاد الأدباء عن السياسة وتقلباتها لأنها تحتاج إلى دارسة وتعمق مما اعتبره خارج تكوينهم وثقافتهم ، وقد طرح بهاء الدين رأيه فى علاقة الأدباء بالسياسة خلال رده على توفيق الحكيم أثناء المعركة الفكرية حول قضية "حياد مصر" بعد دخولها مرحلة السلام، وكان رأيي(*) الذى رددت به عليه ولازلت عنده حتى الآن هو أنه ليس من حق أحد مهما كان رأيا كان أن يحجر على الأديب ويحدد له العمل الذى يؤديه، قد نختلف فى الرأى أو فى وجهات النظر، ولكن ليس من المعقول أن يأتى كاتب سياسى للأديب الذى تحدث أو كتب فى السياسة ويقول له: دعك من السياسة فأنت لا تفهم فيها "خليك أحسن فى الأدب"، لأننى أرى أن السياسة تدخل فى كل شيء، تدخل فى الحب، فى الزواج، فى مناقشة بمقهى... إلخ.

وصلة الأدب بالسياسة صلة حميمة، لأن الأدب تعبير عن الحياة، والحياة تسعين بالمائة منها سياسة ، تصور أنك تجرد الحياة التى تريد التعبير عنها من القيم التى تربط الحاكم بالمحكوم، من الحرية، من القوة الاقتصادية، ماذا يتبقى إذن؟.

إن أى تفكير اجتماعى أو إنسانى لا يخلو من السياسة.

قد يخطئ الأديب فى تفكيره أو فى وجهة نظره، ولكن هذا شىء

(*) رأى نجيب محفوظ أدلى به فى حديث صحفى مع مفيد فوزى بمجلة "صباح الخير" ١٩٧٨/٦/٨.

آخر، واختلاف وجهات النظر أو الخطأ فيها لا يجعلنا نقول للأديب: دعك من السياسة ولا تشتغل بغير الأدب.

وإذا عدنا إلى مرحلة ما قبل الثورة على سبيل المثال لوجدنا أن أدباء مصر كانوا يكتبون فى السياسة بدافع وطنى، وكتاباتهم السياسية والأدبية هى التى مهدت للثورة وبشرت بها، لذلك أيدوها فى البداية وإن اختلفوا معها بعد ذلك فى توجهاتها وأسلوب ممارستها للحكم، وكتب منهم من كتب مؤيداً أو معارضا، وكل منهم تحمل مسئولية آرائه السياسية.

وكان د. حسين فوزى واحداً من هؤلاء الأدباء والمفكرين الذين أيدوا الثورة منذ اللحظات الأولى قبل أن يتضح نجاح الثورة، مما يدل على تطلعه لحياة جديدة، ويدل فى الوقت نفسه على شجاعة أدبية.

وارتبط د. حسين فوزى بالسياسة أيضا حين وقف من السلام مع إسرائيل موقفاً إيجابيا، وإن كان قد ذهب إلى درجة أبعد بزيارة إسرائيل كأول مثقف مصرى ، وتفسيرى لما ذهب إليه د. حسين فوزى يعود إلى أنه رجل علم يحب العلم، وإسرائيل دولة علمية ، فلما جاءته الفرصة لزيارتها لم يضع هذه الفرصة ، وأعتقد أنه معجب بإسرائيل من منطلق إعجابه بالغرب، وإسرائيل دولة علمية متفوقة وغربية مائة بالمائة.

وأعتقد أن ما فعله د. حسين فوزى ليس فيه تجاوز يستحق عليه أن يعاقب بالنفى من الذاكرة القومية وتجاهل ذكراه، فهذه ليست نظرة علمية.

وفكرة زيارة د. حسين فوزى لإسرائيل ربما لم تطرح إلا عليه بصفة شخصية، وأعتقد أنها لو طرحت علينا كمثقفين، وأخص نفسى وتوفيق الحكيم كمؤيدين لعملية السلام، فإننى لا أعرف ظروف توفيق الحكيم، أما بالنسبة لى فإنه من المعروف ابتعادى عن فكرة السفر من الأساس إلى بلد من البلاد، وبالتالى فإن فكرة زيارة إسرائيل من أساسها غير مطروحة بالنسبة لى، باعتباره مبدأ التزمت به فى عدم السفر خارج مصر.

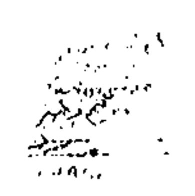
أما د. حسين فوزى فقد كانت طبيعته تميل إلى السفر والاستكشاف منذ أن بدأ أول رحلة علمية على السفينة "مباحث"، وميله إلى تسمية نفسه باسم "السندباد".

كل هذه عوامل ربما جعلت د. حسين فوزى يقبل على فكرة

استكشاف هذه الدولة التى لم يكن مسموحا لأحد بزيارتها قبل عملية السلام.

كما ساهم د. حسين فوزى فى السياسة بشكل فعلى حينما كان وكيلا لوزارة الثقافة، على اعتبار أن العمل الثقافى هو جزء من العمل السياسى، ومن الغريب أنه عندما تولى د. ثروت عكاشة، وزارة الثقافة ظننت أن التعاون بينه وبين د. حسين فوزى سيكون كاملا باعتبارهما من عشاق الموسيقى الغربية، ولكن هذا لم يحدث، فقد اختلفا حول الاختصاصات الإدارية، وفيما يبدو فإن د. حسين فوزى قد استقال أو أنه قد لزم بيته حتى المعاش. وقبل وفاته قال لى: إن لديه فى درج مكتبه ما يصنع عشرات الكتب، ولا يدرى كيف سيخرجها؟

وقد زرته فى المستشفى أثناء مرضه وكان نائما، وكانت هذه هى زيارتى الأخيرة له قبل أن ينام نومه الأبدى، بعد أن ناله ما ناله من الظلم الذى غالبا ما يقع على الرجال الذين لا يبرزون فى مجال معين من مجالات الإبداع، كما ناله الظلم أيضا بسبب مواقفه السياسية. لكن شهرته العامة التى فاقت تخصصاته العلمية تركزت حول الدعوة للحضارة الحديثة، والعقلانية، والعلم، والصناعة، واللحاق بالموكب الأوروبى، مع عناية خاصة بنشر الموسيقى، وتعتبر كتبه فى التاريخ المصرى خاصة "سندباد مصرى" من الكتب الجامعة بين الأدب الرفيع والتاريخ الوطنى، فهو من أكبر المؤرخين لروح الشعب المصرى، وظل طوال حياته وفيا لمبادئه: الثقافة الحديثة. ويعتبر بذلك المرشد والمعلم، فضلا عن هذا كان من أرق الناس وأعذبهم وأفضلهم خلقا، ويعتبر هو وتوفيق الحكيم علمين فى حقل واحد.. حسين فوزى فى اتجاهه للفكر، وتوفيق الحكيم فى اتجاهه للفن. وقد عاشا متقاربين، وكلاهما يعتبر من التراث المصرى العريق.



السندباد

(*)"هنـاك عنـدى شـىء أحـرص عليـه اسـمه الواجـب - لغويـا - معناه أنك تؤدى ، ويجب أن تؤدى، وعلى حسب اهتمامك يكون الواجب المقدس لتؤديه.

فإذا كنت كاتبـا فـالواجب أن يكـون ضـميرك رائـدك. وإذا كنـت موسيقيا فالواجب أن ترفع ذوق مستمعيك. الواجب هام جدا وحضـارات الدول هى مجموعة سلوكياتـها، ومحورها الواجب".

د. حسين فوزى

(*) صباح الخير ١٩٨٧/٢/١٢.

"والكاتب القصصى بحاجة إلى ٩٩ فى المائة من الموهبة و٩٩ فى المائة من الجهد والعمل. يجب أن لا يقنع البتة بما كتب، لأن ما كتبه لا يمكن أبداً أن يستنفد إمكانيات التجويد. يجب أن يواصل الكاتب متابعة أحلامه، وأن يهدف إلى أكثر مما يعتقده نهاية مقدرته. ثم إنه لا جدوى من محاولة الكاتب التفوق على معاصريه أو سالفيه، بل الأجدى أن يحاول التفوق على نفسه فالفنان مخلوق تسرقه شياطينه".

* * *

ألا تنطبق هذه السطور التى نقلها د. حسين فوزى[*] عن الروائى الأمريكى "وليم فوكنر" وهو يقدم لنا "تأملات فى فن القصة"، على نجيب محفوظ ؟ إن موهبته غلبت رغبته فى دراسة الفلسفة التى قطع فيها شوطا لتحضير رسالته للماجستير عن فلسفة "الجمال"، ولكن موهبة الكتابة الإبداعية الحرة كانت أقوى لديه من أى تجاه آخر. أما متى بدأ شعوره فى الرغبة فى الكتابة، يقول[**] "بالضبط.. ليس فى استطاعتى أن أحدد على وجه الدقة متى نشأت عندى الرغبة فى الكتابة.. ولا أستطيع أن أذكر ببساطة تاريخ أول يوم أمسكت فيه القلم لأكتب قصة أو حتى خواطر شخصية أو أدبية.. كل ما أستطيع أن أقرره فى هذا الصدد: أن الرغبة فى الكتابة كانت موجودة عندى - من زمن قديم حتى قبل تبين دوافعها". وقد حسم نجيب محفوظ الصراع داخل نفسه بين الفلسفة والأدب لصالح الأدب[***] "وبدأ يدرسه بصورة منتظمة.. ولم يعتمد نجيب محفوظ فى هذه الدراسة على أحد. لم يعتمد إلا على نفسه، وعلى كتب تاريخ الأدب العالمى. فأقبل على دراسته قرنا. قرنا دون التخصص فى أدب أمة بالذات. وقرأ "البيان والتبيين" للجاحظ، و"الأمالى"، لأبى على القالى، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، وقرأ كتاب "درينكو ونز" المشهور، وكذلك قرأ كافكا وجويس وتشيكوف وجوركى.. وغيرهم، وغيرهم.. وغيرهم من الأدباء العالميين.

من استعراضنا لهذه المراحل المختلفة التى مر بها نجيب محفوظ فى قراءاته نستطيع أن ندرك مدى الجهد الذى بذله فى تثقيف نفسه بنفسه

---

[*] فى كتابه "فى براح الفكر" السابق.

[**] أيام من شبابهم لأحمد حافظ - دار التعاون - بدون تاريخ.

[***] السابق.

لصقل موهبته الأدبية الأصيلة" تأتى بعد ذلك مرحلة الكتابة - يقول نجيب محفوظ - [*] "ففى أيام إدمان القصص البوليسية.. كنت أعيد كتابة بعضها فى كراسة خاصة وأكتب عليها اسمى!!.

ومع قراءاتى للمنفلوطى كنت أؤلف (نظرات) و(عبرات) وأذكر أنى فى هذه الفترة كتبت الشعر.. كنت أكتبه فى بادئ الأمر موزونا، ولكن كانت بعض الأدبيات تتكسر منى... وحينما وجدت الأبيات المكسورة كثيرة أطلقت الشعر وحررته من الوزن فكنت رائد المدرسة الحديثة بلا منازع !! كان هذا يرجع إلى سنتى ١٩٢٥، ١٩٢٦، لكن فترة الشعر هذه لم تطل.. فقد عاودت التأليف مع قراءاتى للمجددين.. فحين قرأت الأيام، لطه حسين ألفت كراسة أو كتابا، كما كنت أسميها وقتذاك، أسميتها "الأعوام"!! رويت فيها قصة حياتى على طريقة طه حسين.

بعد ذلك.. ومع تعرفى على آراء المجددين فى أدبنا والتفاتى إلى شعر المتنبى وأبى العلاء ألفت كراسة أخرى وضعت فيها فلسفتى فى الحياة والكون والخالق.. وحينما تقرأ ما كتبته فى تلك السن المبكرة تحس أنك تقرأ لشخص قد أحاط بكل شىء علما وأصبح له رأى حاسم فى كل المشكلات التى حيرت كبار الفلاسفة والمفكرين.

وتأتى بعد ذلك مرحلة أخرى أكثر نضجا بدأت فى أواخر تعليمى الثانوى وأوائل الجامعة واستمرت عدة سنوات كنت أكتب خلالها المقال والنقد الأدبى وتلخيص المسرحيات والأقصوصة والرواية . وكان أول عمل أدبى ينشر لى هو المقال. ذلك أن المقال كان أسرع فى القبول من الأقصوصة - ولقد دفعنى ذلك إلى الانصراف بعض الوقت إلى كتابة المقالات. وكان أول مقال ينشر لى عن "تطور الظاهرات الاجتماعية" وفى سنة ١٩٣٩ نشر لى سلامة موسى أول رواية وهى "عبث الأقدار" وفى سنة ١٩٤٣ نشر عبد الحميد جودة السحار الرواية الثانية "راد وبيس" وأثناء هذه السنوات كنت قد ألفت روايتين أخريين هما (كفاح طيبة) و"القاهرة الجديدة".

عناد الثيران

وليس معنى ذلك أننى لم أعانى أزمة فى نشر رواياتى وقصصى فى بداية حياتى.. لقد عانيت من ذلك الأمرين.. ولم تكن أزمة النشر -

---

[*] السابق.

فقط - هى أزمتى الوحيدة. بل كانت هناك أزمة أخرى لا تقل عن سابقتها أهمية.. إنها أزمة الإهمال. لقد كنت أكتب وأكتب.. ولا أجد صدى لما أكتبه.. ولكن ذلك لم يجعلنى أيأس.

أتعلم ما الذى جعلنى أستمر ولا أيأس؟؟ لقد اعتبرت الفن حياة لا مهنة، فحينما تعتبر الفن مهنة لا تستطيع إلا أن تشغل بالك بانتظار الثمرة.. أما أنا فقد حصرت اهتمامى بالإنتاج نفسه وليس بما وراء الإنتاج.. كنت أكتب وأكتب لا على أمل أن ألفت النظر إلى كتاباتى ذات يوم.. بل كنت أكتب وأنا معتقد أنى سأظل على هذا الحال دائما.. أتعرف عناد الثيران؟ إنه خير وصف للحالة النفسية التى كنت أعمل بتأثيرها.

كيف تطيل وقتك؟

هذا النظام المحكم الذى التزمه نجيب محفوظ جهدا وعملا من أجل الإبداع الأدبى، موجود فيه بالوراثة، كما حكى بنفسه لعباس خضر(*) "إنك لو تتبعت أى فرد من أسرتنا أيام الأسبوع ورأيت ماذا يفعل كل يوم لعرفت نظام حياته كله لأن ما يفعله يوم السبت من هذا الأسبوع مثلا - هو نفسه ما يفعله كل سبت آخر".

وليست الوراثة وحدها هى وراء النظام المحكم لنجيب محفوظ ، لأن العامل الوراثى قد يكون موجودا ويشذ عنه الأقربون، ولكنه هو نفسه صاحب نظام فى حياته حتى ولو لم يكن هناك أحد من أفراد أسرته منظما ذلك النظام الروتينى ، لأن حياة نجيب نفسها جعلته يلتزم حب النظام. ويتعود عليه وإلا ما صار مبدعا وهو هدف نذر نفسه له - يقول(**) "نعم أنا منظم، والسبب فى ذلك بسيط، إذ عشت عمرى كموظف، وأديب، ولو لم أكن موظفا لما كنت اتخذت النظام بعين الاعتبار، كنت فعلت ما أشاء وفى أى ساعة أشاء، لكننى فى هذه الحالة كان علىّ أن أستيقظ فى ساعة معينة، ويبقى لى من اليوم ساعات معينة ، فإن لم أنظم هذا اليوم فسأفقد السيطرة عليه، لقد عودت نفسى على ساعات معينة للكتابة ، وفى البداية كانت روحى تستجيب أحيانا وأحيانا لا ، لكننى مع الزمن اعتدت ذلك.

(*) كتب للجميع - مايو ١٩٦٠.
(**) أخبار الأدب ١٩٩٣/١٢/١٢.

إننى أكتب عادة مع الغروب، ولا أذكر أننى كتبت أكثر من ثلاث ساعات ، وفى المتوسط لمدة ساعتين، أشرب فى اليوم الواحد خمسة فناجين قهوة وأسهر حتى الثانية عشرة ليلا، وأكتفى بخمس ساعات نوم.

ولا يعود النظام فى حياة نجيب محفوظ إلى نظام الوظيفة فقط، المحدد بمواعيد، ولكنه يعود إلى شىء آخر يحدثنا عنه(*) "تعودت على النظام لتعدد هواياتى، منذ أن كنت طالبا، كنت أحب أن أكون متفوقا، إذن علىّ أن أذاكر جيدا. وأحب أن ألعب كرة القدم، أن أرى "أفلاما" ، أن أسمع أم كلثوم، أن أقابل أصدقائى.. كى أفعل هذا كله كان علىّ أن أقسم وقتى بحساب. كثير من زملائى كانوا يتفوقون فى كرة القدم ويرسبون فى المدرسة. أو بالعكس يتفوقون إلى حد لا يجدون فيه فرصة للعب.

كى نجمع أشياء كثيرة علينا أن ننظم وقتنا. تعودت إذن على النظام، فهو يطيل الوقت، ويجعل يومك مليئا بنشاطات متعددة. دون نظام يضيع يومك.

الكتابة عروسى ونهايتى

وهل كان يكفى النظام المحكم، والجهد والعمل، مع توفر الموهبة لكى يمضى نجيب محفوظ فى إنجاز مشروعه الإبداعى، فى مواجهة الإهمال حينا وصعوبة النشر حينا آخر، لقد كان كما ذكر سابقا يعتبر الفن حياته، والكتابة حبه بل عروسه التى لا تكبر أبدا، أو كما يقول(**) "علاقة الكتابة بى لم تتغير، هى بالنسبة إلىّ "عروسة" شابة لا تشيخ. لا نصادف فى الحياة حبا آخر من هذا النوع. حب الكتابة وإحساسى أنها جزء من حياتى لم يتغيرا، وأرجو إن ماتت الرغبة فيها أن تكون مع نهايتى.. أرجو ألا أعيش يوما من غير حب الكتابة".

لقد استطاع هذا الحب أن يقهر كل المعوقات الخارجية كأزمة النشر والإهمال، وأن يقهر أيضا كل المعوقات الداخلية المتسربة إليه من داخل نفسه الأمارة بالسوء، المتطلعة إلى اللهو والعبث، يحدثنا عن هذه

(*) مجلة كل العرب ١٩٨٨/٢/٢٩.
(**) السابق.

النفس المحبطة المثبطة للهمم فيصورها لنا على شكل "عفريت"، أليس لكل إنسان عفريت من نفسه وهواه؟

يقول(*) "في البداية عندما كنت أكتب كان يطلع لى عفريت يقول لى : ما جدوى ما تفعله؟

لماذا تغلق الغرفة عليك؟

ما هذا النظام الصارم؟

يا راجل انزل هيص لك شوية.

لكننى كنت أصرف هذا العفريت فى النهاية وأفرض على نفسى مزيدا من صرامة النظام والعمل حتى منتصف الليل".

هذا هو مفتاح شخصية نجيب محفوظ: النظام والعمل، أو قل هذا هو سر استمراره وعدم انقطاعه عن الإبداع كما فعل آخرون تعجلوا ثمرة جهدهم فلما تأخرت عليهم، هجروا الإبداع إلى أعمال أخرى، أما نجيب فقد كان الإبداع لديه أصيلا، وليس طارئا أو دخيلا ، مما ضمن له الاستمرار والبقاء والخلود.

البداية بوليسية

وقد كان نجيب محفوظ كأستاذه حسين فوزى، تتنازعهما الرغبة فى حب الأدب منذ مطالع حياتهما المبكرة، وهما أبناء بيئة شعبية، وككل أهل حريصين على ضمان مستقبل أبنائهم، حاولت أسرة كل منهما صياغة ذلك المستقبل كما يريانه ولكن كانت للأقدار كلمة أخرى.

ولد نجيب محفوظ بحى الجمالية فى الشهر الذى ختمت به سنة ١٩١١، بينما ولد حسين فوزى مع مطالع القرن فى (٢١ يوليو ١٩٠٠).

عرف نجيب محفوظ طريقه للأدب بداية من قراءاته للروايات البوليسية، يقول(**) "قرأت القصة البوليسية وخاصة قصص أرسين لوبين فى صباى، ولعلها أول نوع من القصص قرأته، وهى قصص تستحوذ على اللب، وتملأ النفس متعة وتشويقا، ولما تقدم بى العمر وجدت أن الشوق لأمثال هذه الروايات لم يمت، ولكن كنت أضن بوقتى عليها، ولذلك فإننى أفضل أن أراها فى السينما فى ساعة ونصف عن أن أضيع

(*) أخبار الأدب ١٩٩٤/١٠/٢٣.

(**) مجلة "الجديد".

فى قراءتها وقتا من الأجدر أن أنفقه فيما هو أهم.. وأعتقد أن رواسب الصياغة البوليسية ظهرت عندى فى قصتين.. هما "الطريق" ، و"اللص والكلاب"، وبعض قصص قصيرة مثل "ضد مجهول" ، فضلا على أننى كتبت "ريا وسكينة" للسينما.

وهذه الروايات متعة للذهن المكدود، وهى لذلك مغرية للمرهقين بالعمل كما هى مغرية للأطفال".

وقد أحس نجيب بهذا الإغراء عندما قرأ قصة بوليسية لأول مرة فى حياته(*) "رأيت أحد أصدقائى واسمه يحيى صقر، يقرأ كتابا، رواية بوليسية عنوانها "بن جونسون" سألته: ما هذا؟. قال: إنه كتاب ممتع . استعرته منه، بعد أن انتهى منه، وقرأته واستمتعت به، كان ذلك ونحن طلبة فى السنة الثالثة الابتدائية، وكانت هذه أول رواية قرأتها فى حياتى".

ويكاد الموقف نفسه يتكرر مع د. حسين فوزى، فيتذكر "ذات يوم رأيت رواية إنجليزية فى يد زميلى فى المدرسة السعيدية - ابن رئيس الوزراء محمد سعيد باشا - عدت إلى أبى وقلت له أريد قراءة كتب بالإنجليزية، أخذنى إلى المكتبة ، وتركنى أختار، اشترى لى "الفرسان الثلاثة" لأننى قرأتها بالعربية فيسهل فهمها، وكتابين عن "الهند والصين".

أتمنى أن أكون سائقا "للعفريت"!

تتشابه أمنيات الطفولة أيضا، فكلاهما يريد أن يكون سائقا للترام، يحدثنا نجيب محفوظ(**) "كان والدى يحبنى جدا، وكان يأخذنى معه فى نزهاته ، عندما كان يذهب ليجلس مع أصحابه فى "الكلوب الحسنيى" بالجمالية، ثم فى "قهوة الجندى" فى العباسية ، وعند عودتنا كنا نستقل "الترام".. فى هذا الوقت: تمنيت أن أكون سائقا "للترماى" لأنه كان شيئا عجيبا بالنسبة لنا، وفى نفس الوقت شىء مهيب ، كان الناس يسمونه "العفريت".

(*) نجيب محفوظ يتذكر.. لجمال الغيطانى.
(**) صوت الأزهر - ٥ يناير ٢٠٠١.

وكذلك كان حسين فوزى أيضا مغرما "بالترام" فيحدثنا[***] "كلما كنت مع أبى وجاءت جلستنا وراء "سائق الترام" كنت أتمنى أن أكون "سائق ترام" ، وحولت كنبة مقلوبة فى غرفة "الكراكيب" إلى ترام عندما غرست فى حافتها سلكا أديره للحركة، وسلكا أديره كفرملة، وكنت أقلد صوت زمارة الكمسارى إيذانا بالتحرك أو بالتوقف الفجائى".

وبعد أن نضج الصبيين واستويا شابين أراد لهما والديهما أن يسلكا طريق الطب لماله من مكانة اجتماعية ومادية، ولكن نجيب محفوظ استطاع أن يفلت إلى كلية الآداب، أما حسين فوزى فلم يفلت إلا بعد حين، حيث لم يستطع أن يهرب من اختيار والده، يتذكر "كنت ميالا بطبعى للأدب والفنون منذ كنت بالمدرسة الثانوية، ولكن والدى كان يطمع فى أن يرانى طبيبا يشار إليه بالبنان".

وقد كان وتخرج حسين فوزى طبيبا للعيون، وفى سنة ١٩٢٤ أصدر سعد زغلول بصفته وزيرا للداخلية قرارا بتعيينه طبيبا بمصلحة الصحة.

أغلى ذكرياتى

ولأن الشىء بالشىء يذكر فقد لعب سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ دورا لا يستهان به فى تشكيل وعى الجيل الذى نشأ فى ظل الثورة، ومنه نجيب محفوظ، وحسين فوزى، ويحيى حقى، وقد شارك كل منهم فى الثورة.

نجيب محفوظ[*]: أغلى ذكرياتى هى أيام الثورة الوطنية ثورة ١٩١٩ - كنت صغيرا فى الثامنة من العمر.. وكنت قد سمعت أن الأمة تجمع توقيعات الناس لتأكيد أن الوفد المصرى يحمل الصلاحية لتمثيل البلاد فى مؤتمر الصلح، وجاء والدى يحمل أوراقا عليها توقيعات الناس لتأكيد أن الوفد المصرى يحمل الصلاحية لتمثيل البلاد فى مؤتمر الصلح.. وجاء والدى يحمل أوراقا عليها توقيعات كثيرة، آخرها هو توقيعه، وقال لى : وقع باسمك.. ولكنى لم أكن قد أتقنت كتابة اسمى .. تركنى أبى قليلا.. ثم نادى على أمى وبصمت بنفسها.. وبعد أمى لست أكتب

[***] آخر ساعة ١٩٨٨/٨/٣١.

[*] الأهرام - السابق.

اسمي، ولم أكن قد تمكنت من "رسمه" بعد، جربت مرارا في ورقة أخرى، ولكن ظل اسم "إبراهيم" وهو اسم جدى مشكلة، وأخيرا وقعت دون "إبراهيم"، وذهبت أمى بالتوكيل وعادت وقد بصمت كل سيدات الحى[*] "اشتركت فى جميع المظاهرات التى جرت، أذكر أننى كنت أمشى مع عدد من الأصدقاء فى شارع محمد على، فجأة رأينا أحد أبناء البلد يحمل حجرا كبيرا ويضرب رأس كونستابل إنجليزى فيصرعه، وفى نفس اللحظة رأينا عددا من الخيالة قادمين من ناحية العتبة الخضراء، نظرنا إلى الخلف لنستدير ونجرى، فوجئنا بقوات من الجيش، كنا محصورين، ولا أحد سوانا فى الشارع وجثة القتيل الإنجليزى ملقاة أمامنا، أما ابن البلد فقد هرب.

تعرف أن بعض حوارى شارع محمد على منحدرة إلى أسفل، تؤدى إليها سلالم، صاح أحدنا:

- إجر.. إجر..

جرينا، جريت بأسرع ما يمكن أن أجرى به، من حارة إلى حارة، حتى فوجئنا بحارة سد لا تؤدى إلى أى منفذ، أدركنا يأس قاتل، فجأة أطلت امرأة من إحدى الشرفات، وأشارت إلى باب البيت، دخلنا، أغلقنا خلفنا، نظرت إلينا من فوق السلم:

- اطلعوا.

طلعنا إلى السطح، عبرنا إلى السطح المجاور، ونزلنا فى بئر السلم، انتظرنا حوالى نصف ساعة، خيم فيها صمت فظيع، ثم خرجنا، ومشينا حتى شارع عبد العزيز، ثم إلى العتبة الخضراء" .

سرجيوس فى الأزهر

يحيى حقى[**] "أنا فى سنة ١٩١٩ كان عمرى ١٤ سنة .. وهذا سن يسمح لى أن أسير فى مظاهرات، وفعلا شاركت فى مظاهرات كثيرة.. لحسن الحظ إن أخوتى الكبار إبراهيم وإسماعيل أيضا كانا يسيران فى المظاهرات .. فكنت أسير معهما.. وكذلك مع أبى".

من الذكريات الجميلة جدا أننا كنا نذهب إلى الأزهر لنستمع إلى

---

[*] أخبار الأدب ١٩٩٣/١٢/١٢.

[**] حديثه إلى عادل النادى السابق.

خطباء الثورة.. منهم المرحوم المحامى أبو شادى.. ومنهم الأب القبطى سرجيوس، الذى كنا نحضره للأزهر ليخطب فينا.. وواحد شاب لا أزال أذكر اسمه: شكرى كرشة.. وقابلته بعد ذلك بعد الثورة بمدة.. كان هناك خطباء.. وكنا لا نصل للأزهر عن طريق الشارع العمومى.. ولكن من حارة داخل حارة وراء حارة، وهكذا حتى نتمكن من الوصول.. كنا نتخفى. وتتبعنا الاجتماعات لم يكن بروح الثورة فقط بل بروح الخطابة أيضا.. فى سن مبكرة وقعت أعيننا أيضا على فن الخطابة كيف يكون".

حسين فوزى "مصر انطلقت انطلاقة كاملة ١٩١٩، وكانت تلك هى الفترة الوحيدة التى شاركت فيها بنشاط سياسى مباشر فى الإضرابات والمظاهرات والخطابة فى الأزهر.

[*]"والقليل الذى حصلت عليه مصر فى الناحية السياسية حتى إعلان الحرب العالمية الثانية كان من أثر هذه الثورة أما الذى حققته فعلا فهو يقظتها الفكرية والشعورية والاقتصادية، هو جامعتها المصرية ومصرفها الوطنى أسسه محمد طلعت حرب، هم أولئك الكتاب والشعراء والمصورون والمثالون، هم ذلك الجيل الصاعد الذى نشأ فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩".

قفزات

وكان حسين فوزى هو واحد من ذلك الجيل الصاعد الذى نشأ فى أعقاب ثورة ١٩١٩، وكانت طموحاته أكبر من مجرد حبس نفسه فى وظيفة حكومية، وكما كان الصراع قائما فى نفس نجيب محفوظ بين الاستمرار فى دراسة الفلسفة ، وبين التفرغ للأدب حتى انتصر فى النهاية للأدب، فقد قام نفس الصراع فى نفس حسين فوزى بين الاستمرار فى امتهان الطب، وبين الانطلاق إلى آفاق أخرى واسعة من العلم والمعرفة، حتى حسم أمره بألا يحصر نفسه داخل "العين"، وما يدره العمل الطبى من دخل كبير، وانطلق من العين إلى المحيط لدراسة علم الأحياء المائية عندما أعلنت الحكومة عن بعثتها لهذا الغرض.

وإذا كانت حياة نجيب محفوظ قد استقرت بانتصاره لطريق الأدب، فإن حياة د. حسين فوزى لم تعرف استقرارا فقد كانت مجرد

[*] سندباد مصرى.

قفزات من دراسة الطب إلى دراسة علوم البحار إلى التبحر فى الموسيقى إلى حب الأدب إلى كتابة القصص ثم اعتزالها إلى كتابة المقالات القصيرة ، حياة لا تثبت على حال واحدة.

وهو يتساءل فى حواره مع مفيد فوزى(*) وهو يلخص مسيرته "حياتى كانت مجرد قفزات من ميدان لآخر.

ولا أدرى - وأنا أراجع حياتى الآن معك هل كان هذا عاملا فى إثرائها أم أنى خسرت الكثير بسبب هذه القفزات ، ثم إنى لا أعرف تفسيرا لهذه القفزات إلا الجوع للمعرفة، والعطش للتزود من ثقافات الحياة.

إن حياة الإنسان قصيرة والثقافات بحار لا تموت بل تكبر يوما بعد يوم، أردت - وأعترف لك - أن أعب من كل محيط قطرات".

"لست نادما على شىء فى حياتى ولا راغبا فى تغيير شىء منها.

أعتبر نفسى محظوظا لأنى حققت الكثير مما رغبت فيه، ولقد كانت رغبتى دائما هى المعرفة ، ولا زلت طالب علم، وما الثقافة فى نهاية الأمر؟ ليس أن تتخصص فى شىء ولكن أن تدرك الروابط بين الأشياء، والربط عندى كان - وسيظل دائما هو الإنسان".

المؤسس

لقد كان حسين فوزى كنجيب محفوظ باحثا عن المعرفة وإن لم يتخصص فى شىء منها كنجيب محفوظ الذى اختار أدب الرواية طريقا لحياته.

وكانت لحسين فوزى فى كل موقع من مواقع المعرفة التى شغلها بصمات لا تنسى، فهو منشىء "معهد الأحياء المائية" الذى صار مديرا له، ولأنه عالم فى شنون البحار والأحياء المائية فقد أطلق العلماء البريطانيون اسمه على بعض نجوم البحر، وهو مؤسس كلية العلوم وأول عميد لها بجامعة الإسكندرية التى شغل منصب مديرها، ويعتبر هو ويحيى حقى من مؤسسى وزارة الثقافة بالاشتراك مع فتحى رضوان، والتى كانت تعرف باسم وزارة الإرشاد، والتى كان وكيلها د. حسين

(*) صباح الخير - السابق .

فوزى، ورئيس مصلحة الفنون بها يحيى حقى الذى كان نجيب محفوظ مديراً لمكتبه.

وتعتبر كل المشروعات الفنية التى نفذت منذ عام ١٩٥٥ من بنات أفكار د. حسين فوزى، كأكاديمية الفنون، والبرنامج الثانى (الثقافى الآن)، ليخاطب ذوى الجباة العالية، وغيرها من الأفكار التى أسست للصروح الفنية والثقافية فى مصر أو كما يقول يحيى حقى، هو "أحد مؤسسى المدرسة الحديثة فى الثقافة المصرية".

لأننا مصريون

وموقف حسين فوزى من الحضارة الغربية هو موقف المعجب بها، وإن كان قد أتهم بتشيعه لها إلى أبعد الحدود، وإن حاول هو فى أخريات أيامه أن يشرح ويفسر سوء الفهم نحوه، جاهدا لرفع الالتباس حول مفهوم اقتناعه بحضارة الغرب لمصلحة المصريين إذا وعوها، فيقول(*) "أكرر صادقا على عظمة الإنسان المصرى.. ليس هذا القول غير خلاصة تجارب كثيرة مع كل الأجناس فى الغرب وكل الأجناس من الكتب.

إن المصرى يعرف دائما أنه الإنسان الذى يحمل فى أعماقه خبرة آلاف السنين، وهنا أريد أن أقول إننا لو عرفنا الحضارة الغربية جيدا سنكون خيرا من أبنائها أنفسهم لأننا مصريون".

(**)"فعندما تنتقل الحضارة الغربية إلى مكان آخر فى العالم فإنها تكتسب لنفسها خصائص البلاد التى تنتقل إليها وهى خصائص ذاتية تضاف إلى حضارة الغرب". ويرى د. حسين فوزى أن دعوته للاتصال بالحضارة الغربية واختيار أفضل ما فيها ليست دعوة جديدة انفرد بها دون سواه ، فقد سبقه إليها رفاعة رافع الطهطاوى(***) "أول اتصال حقيقى حدث بين الفكر المصرى والحضارة الأوروبية جاء عن طريق رفاعة الطهطاوى ذلك الصعيدى الأزهرى الذى استطاع أن يستوعب بشكل مذهل أغلب مكونات الحضارة الأوروبية عن طريق عاصمة من

(*) أهرام ١٩٨٥/٩/١٩.
(**) روز اليوسف ١٩٧٧/٤/٤.
(***) السابق.

عواصم تلك الحضارة - باريس - وخلال خمس سنوات فقط قضاها هناك، ونقل لنا فى كتابه الشهير "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" تجربته.

وقيمة الطهطاوى - فى نظرى - أنه استطاع أن يفهم كنه الحضارة الأوروبية بكل محتواها الإنسانى والفكرى".

أفترسه

لقد كان د. حسين فوزى مؤمنا بالمصرى وقيمته وتاريخه وقدرته على العطاء إذا أتيحت له الفرصة، وبقدر إيمانه بالمصرى كان إيمانه بمصر، لذلك كان يحتج بطريقته على غياب اسم مصر فى ظل الوحدة المصرية السورية، غير المخطط لها والتى تحولت مصر فى ظلها إلى الجمهورية العربية المتحدة وموقعها من الجمهورية هو الإقليم الجنوبى، مما أحزن السندباد وجعله يوقع فى سجل الزيارات فى البلدان التى يجوبها باسم د. حسين فوزى مقرونا باسم القاهرة باعتبارها العاصمة المصرية التى لا يزال معترفا بها حينذاك.

وكانت دعوته لمصريتنا وفرعونيتنا صدى لغياب اسم مصر ورد فعل لمحاولة عزلها، يقول "يجب أن تفهم المسألة التى شاعت عنى من هذه الزاوية ، لقد كان موقفى هو ردّ الفعل الطبيعى لمحو اسم مصر وفى مواجهة مغامرات الوحدة بلا تنظيم وبلا استعداد، هل تريد منى أن أقف صامتا أمام محاولة اغتيال مصريتي؟ من يفعل هذا أنا أفترسه"!.. ولم يكن تمسك د. حسين فوزى بمصريته ودفاعه عنها يعنى تخليه عن عروبته أو إسلامه، فهو معجب بعلماء العرب مثل ابن رشد وابن سينا، ولكنه كما يقول كان يجد فى تاريخه المصرى القديم كنزه الثمين، لهذا كتب رائعته "سندباد مصرى" الذى يفاخر فيه بما توصل إليه من نتائج "كتابى صور من ملحمة هذا الشعب الذى أفخر بأننى واحد من أحاده.. "أمة تحيا خمسة آلاف عام تستقل فيها ٣٥٠٠ أى ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها، أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رؤوس الشباب؟

أمة ألفية، أطول الأمم تاريخا تعيش فى أكثر من ثلثى تاريخها مستقلة.

إنما الشعب الحى يجب أن يعيش دائما على اتصال وجدانى بتاريخه ، لأن للتاريخ قوة هائلة على التنبيه والإحياء . التاريخ مُثل حية تضرب للناس، فإذا كنا اليوم نعنى بتاريخ الحضارات التى انتهت إلى العالم الحديث، فلا أقل من أن نجعل حضارتنا المصرية نموذجا لا للاهتداء ولكن للإحياء"، وأى إحياء هو ؟ إنه إحياء لليقظة . ويذهب د. حسين فوزى إلى أبعد من مجرد إحياء الحضارة المصرية والتوقف عندها، وإنما يمتد بصره نحو تاريخ الحضارة الإسلامية، وتاريخ الحضارات الإنسانية بشكل عام، يؤكد ذلك فى حديثه عن موقعه من المؤرخين ، لصحيفة عُمانية فيقول(*) "لست مؤرخا ولكننى أعشق التاريخ، فقراءته عندى معايشة له.

تاريخ بلادى توكيد لشخصيتى ، والتاريخ الإسلامى توكيد لإيمانى، والتاريخ العام توكيد لرفقة الإنسان.

وتجذبنى فى كل هذه التواريخ حقبات اليقظة التى تدفع الإنسان فى مراقى الحضارة دفعا بالفكر والإحساس".. وكلاهما الفكر والإحساس بحاجة إلى العلم والفن.

الذوق قضيتى

وكانت قضايا العلم والحضارة والذوق هى شاغل د. حسين فوزى من أجل مصر التى يعشقها.

فهو يرى ضرورة العلم والفن للإنسان لأن(**) "العلم هو نتاج العقل، والفن نتاج الإحساس، ولأن الإنسان يتكون من عقل وإحساس معا، فإن حرمانه من ممارسة أحدهما يتركه أعرج ، فلابد من أن يجمع بين الاثنين ليحقق التوازن لشخصيته ووجدانه".

وارتباط العلم بالحضارة ارتباط لا يتجزأ لأن الحضارة من صنع العلم، والعلم ليس باستيراد أدواته واستهلاك منتجاته بل بصنعها واختراعها ، وأداة ذلك هو الإنسان نفسه، ولا علم ولا حضارة بدون تربية الذوق العام الذى هو بداية التحضر، وهو ما جعل سندبادنا رغم حبه للمصرى وكفاءته ، يعيب عليه إهماله لهذه الناحية التى امتدت إلى

(*) عُمان ١٩٨٥/٧/٩.
(**) روز اليوسف ١٩٧١/١٢/٢٠.

تراثه وآثاره ففقد تواصله معها وإحساسه بقيمتها وجمالها، لهذا يؤكد في صراحة ووضوح وصدق المحب لخيبة أمله في حبيبه(***) "أنا لم أعرف شعبا يعامل تراثه الذى مازال حيا بين يديه بهذا الإهمال المفرط، وأنا ... "مجاهد من أجل تغيير الذوق، ولكنى تعبت، وما عدت أستطيع الجهاد أكثر من ذلك، ولو ضمنى الموت فقل عنى: كان الذوق قضيته التى أرهق جل سنوات عمره فى الدفاع عنها".

وترتبط الموسيقى بتربية الذوق والإحساس، وهى جزء من شخصية د. حسين فوزى التى قضى حياته من أجلها ، وبسببه أحب نجيب محفوظ الموسيقى، ومن أجلها جعل حسين فوزى أستاذه.

يقول نجيب محفوظ(*) "أنا مغرم بالغناء الشرقى والموسيقى العالمية ، ومستمع دائم للدكتور حسين فوزى فى سهرة الجمعة، وبفضله قبل كل شيء عرفت سبيل متعتى الروحية إلى إلهامات بيتهوفن وموزار وغيرهم".

وقد عرفنا من يحيى حقى كيف درس نجيب محفوظ الموسيقى فى معهد الموسيقى الشرقية وأجلس القانون على "ركبتيه"، وزادنا رجاء النقاش علما بعشق نجيب محفوظ للموسيقى من خلال مذكراته التى كتبها له، حيث يعترف أديبنا الكبير(**):

وقد بلغ من حبى للموسيقى والغناء أننى التحقت بمعهد الموسيقى العربية ودرست فيه لمدة عام كامل، ويبدو لى الآن أننى لو كنت وجدت توجيها سليما من أحد لتغير مسار حياتى واخترت طريق الموسيقى وليس الأدب ... "كان ممكنا أن أحترف "الموسيقى" من شدة افتتانى بها".

ذلك الجنى

أما حكاية د. حسين فوزى مع الموسيقى فقد بدأت باستماعه إليها فى كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية، وقد أراد دراسة الموسيقى فذهب إلى معلم طليانى فى السكاكينى لكنه طلب منه جنيهين فى الشهر، فأشرك معه زميله حسن فتحى - مهندس العمارة الشهير بعد ذلك - ودفعا معا

(***) صباح.. السابق.

(*) الكواكب ١٩٦٢/١١/٧.

(**) نجيب محفوظ .. صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته.. لرجاء النقاش

الجنيهين ، ولكن حسين فوزى عوقب من والده بتخفيض مصروفه إلى نصف جنيه.

لقد كان الفنان حسين فوزى والمعمارى حسن فتحى، رفيقى العلم والفن، يتذكره السندباد عندما "كنت فى مدرسة محمد على الابتدائية فى الحلمية، وقد زاملنى منذ الطفولة حسن فتحى وأخذتنا الدراسة وأخذنا الفن، فقد تعلمنا الكمنجة العربية.. إن صوت الكمنجة هو أصل الموسيقى".

ويقدم لنا محمود تيمور أحد رواد القصة القصيرة ، صورة أكثر تفصيلا عن غرام حسين فوزى بالموسيقى فقد كان أيضا من أصدقاء الطفولة.

يقول(*) "أما غرامه بالموسيقى فحدث ولا حرج. لقيته فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أمام سينما "كليبر" يراود نفسه أن يدخل، وكانت السينما على موعد مع حفل موسيقى يعزف فيه فنان منفرد مقطوعات على الكمان، وكنت فى لمة من الصحاب وصح عزمنا جميعا على الدخول وحضرنا الحفل، ولم يكن على المسرح الصغير الذى أقيم أمام لوح السينما الفضى إلا الفنان وحده والكمان فى يده، وقدم لنا مقطوعات موسيقية صعبة ببراعة فائقة إذ كان يتلاعب على الأوتار فى حركات خاطفة كأنه جنى متوقد.. وخرج الدكتور حسين فوزى معنا كالمسحور يلقى على أسماعنا القول تباعا.. وكانت كلماته فى وصف ما سمع والتعليق عليه أقرب إلى العلامات الموسيقية الرمزية منها إلى ألفاظنا الأدمية المألوفة.

وبعد أيام لقيته وفى يمناه كراسة ضخمة تحوى مجموعة نصوص موسيقية وقال لى فى جد:

لن يهدأ لى بال حتى أتملك ناصية هذا الفن كما تملكها ذلك الجنى الملتهب الذى جلسنا إليه بالأمس.

ومنذ ذلك الحين وهو يتابع تصعيده فى سلمه للموسيقى حتى أصبح فيها رائدا وحجة، وإنه ليفهمها لا فهم استمتاع فحسب بل فهم دراسة وخبرة . وعلى الرغم من أنه لا يمارس اللعب بالآلات الموسيقية استطاع بدأبه وحبه للموسيقى أن يكون فيها أستاذا غير منازع".

(*) الأخبار ١٢/٧/١٩٧٠.

وقد ظل د. حسين فوزى يعتبر نفسه تلميذا لا أستاذا رغم تقدمه فى العمر، فبعد إحالته للمعاش بدأ دراسة التأليف الموسيقى على يد أستاذين، مثبتا أن التعليم فى الكبر ليس كالنقش على الماء، بل هو كالتعليم فى الصغر نقش على الحجر، وأن الإنسان يظل دائما طالب علم من المهد إلى اللحد.

ألف شريط موسيقى

أما عن برنامجه الشهير الذى أسهم فى تثقيف نجيب محفوظ موسيقيا، فتحدثنا عنه عفاف المولد التى عاصرت ميلاد البرنامج الثانى - فكرة حسين فوزى - ثم صارت مديرة له، فتقول إنه(*) "كان يقدمه باسم "شرح وتحليل للموسيقى الكلاسيكية" والذى كان يستمر ما بين نصف ساعة وساعة كاملة، وكان يقدم فيه شرحا وافيا للموسيقى الخالصة من أوبرا وأوبريت وسيمفونيات بأشكالها المختلفة، والغريب أنه لا يجهز كلاما مكتوبا للبرنامج، بل كان يسترسل فى الحديث بدون إعداد، وكان يعايش العمل الذى يتحدث عنه تعايشا كاملا، ولديه بيانات مذهلة عمن يتحدث عنهم من الموسيقيين خاصة أنه التقى بالعديد منهم أثناء إقامته فى فرنسا.

لقد كان برنامجه يجمع بين المتعة والأداء السليم. لقد ترك لنا د. حسين فوزى مكتبة ضخمة تضم ما يزيد على ألف شريط موسيقى وهى ثروة لا تقدر بثمن".

همس

وقد أسهمت ثقافة د. حسين فوزى الموسوعية وغرامه بالموسيقى، فى رهافة حسه، ولم يكن ذلك ليحدث لولا استعداد فى شخصيته، وعوامل كامنة فى طبيعته، فقد كان كنجيب محفوظ مقدرا لمشاعر الآخرين مبيحا لهم الأعذار حتى لو أخطأوا فى حقه، وقد عرفنا كيف تصرف نجيب محفوظ بحساسية بالغة مع الأديب سعيد الكفراوى عندما أغضبه بالتلسن على أم كلثوم مطربته المفضلة، أما كيف يتصرف د. حسين فوزى فى مثل هذه المواقف؟ يتذكر له الأديب الكبير د. يوسف

(*) الأخبار ١٩٨٨/٨/٢٤

عز الدين عيسى هذا الموقف فى كلية علوم الإسكندرية[**] "أذكر عندما كنت معيدا صغير السن أن دخل المعمل للاطمئنان على سير الدراسة العلمية بصفته رئيسا لقسم علم الحيوان إلى جانب عمادته للكلية ، فوجد الطلبة يرسمون من الكتاب ، فأخذنى بعيداً عن الطلبة وهمس فى أذنى قائلا: إن الطلبة ينبغى أن يرسموا من العينات التى تحت الميكروسكوب بدلا من نقل رسومات الكتاب، فهممت بتنبيه الطلبة ، فأشار لى وهمس فى أذنى طالبا منى عدم ذكر شيء عن هذا الموضوع وتأجيل ذلك إلى وقت آخر حتى لا يدرك الطلبة أنه هو الذى أوحى لى بهذه الملاحظة".

الحرمان من الباشوية

ولن تدهشك شخصية د. حسين فوزى كمرهف الحس، إذا وجدته فى مواقف بالغة الحساسية والخطورة لا يتورع عن المغامرة والمخاطرة بمستقبله بل بحياته، من أجل ما يعتقد أنه صواب، وقد لخص لنا شخصيته الشاعر الأديب د. عبد العزيز شرف عندما قال عنه إنه "عرف بالصراحة والصدق إلى أقصى الحدود".

وليس هناك صدق بلا حدود أكثر من إعلان تأييده لثورة يوليو فى الأيام الأولى لقيامها قبل أن يتأكد من نجاحها واستقرار الأوضاع لها، ولكنها قناعاته.

من هذا المنطلق الذى يتسق مع شخصيته التى لا تلقى بالا للمحاذير بدءا من خلعه لبالطو الطب مرورا بتأييده لثورة لم يتبين نجاحها بعد، وما بين هذا وذاك من مواقف كهذا الموقف التالى له مع الملك، مما يتسق وشخصيته وقناعاته وتاريخه إذا أردنا أن نقيم الرجل تقييما كليا لا جزئيا.

كان د. يوسف عز الدين شاهدا على هذا الموقف الذى يحكيه لنا[*] "دخلت عليه فى غرفته بالكلية فوجدته حزينا، سألته عن السبب فقال: إن الملك فاروق سيحضر إلى الإسكندرية وأن التعليمات صدرت إلى عمداء الكليات بانتظاره على رصيف المحطة، وغمغم قائلا: أنا مش تشريفاتى . ولم يذهب إلى المحطة، فعوقب بحرمانه من لقب الباشوية الذى كان يمنح لأساتذة الجامعة فى ذلك الوقت" .

(**) اهرام ١٩٨٨/٩/٢.
(*) الأهرام السابق.

والحرمان من الدكتوراه

ولن تختلف شخصية نجيب محفوظ المرهف الحس أيضا عن شخصية د. حسين فوزى فى التزام الصراحة والصدق فى مواقف تقتضى الحذر وإيثار السلامة ، ويكاد الموقف الذى حدث مع د. حسين فوزى يتكرر مع نجيب محفوظ مع اختلاف الحاكم والزمان، يقول لأحمد هاشم الشريف(*) "فى عهد السادات كتبت فى مفكرة الأهرام.. أسخر من منح درجة الدكتوراه للفنانين.. وقلت إن هذه الدرجة العلمية لا معنى لمنحها لفنان.. لا تشكل علامة على طريقه المهنى.. فعبد الوهاب ليس فى حاجة إلى دكتوراه.. وموسيقاه لن تزيد قيمتها برتبة لواء.. وغضب السادات من رأيي.. وقال لمن حوله بطريقته المعروفة: طيب.. هو مش هياخدها".

إلا العقاد

ويتفق د. حسين فوزى مع نجيب محفوظ على الإعجاب برواد العصر ومنهم د. طه حسين ولكنه يختلف معه حول العقاد إنسانيا لا أدبيا، فيقول(**) "عرفت أحمد لطفى السيد وأحببته، وعرفت طه حسين واحترمته ، وعرفت توفيق الحكيم وعشقته، وعرفت العقاد وكرهته.. "إنسان فظ.. "أدبه وفكره على العين وعلى الرأس أما هو كإنسان لا".

وربما لم يحاول د. حسين فوزى أن يفهم العقاد أو يحاول التعرف على شخصيته الإنسانية واكتفى بالانطباع الذى تصوره عن الرجل واقتنع به، ولسوف ندهش كثيرا إذا علمنا أن نجيب محفوظ أيضا كان ينظر للعقاد هذه النظرة الناقصة فى البداية، ولكنه بعد ذلك فهم العقاد وشخصيته وأحبه كثيرا.

مناظرة مع طه حسين

أما طه حسين فيجله حسين فوزى، ويحترمه، ويكشف لنا عن طرف مجهول من حياته الجامعية واهتمامات الجمهور آنذاك رغم انخفاض نسبة التعليم، فيقول عن عميد الأدب العربى(***) "كان عملاقا

(*) صباح الخير ١٩٨٨/٥/١٢.
(**) صباح الخير ١٩٨٧/٢/١٢.
(***) آخر ساعة ١٩٧٦/٧/٢١.

فى التاريخ والحضارة العربية. كنا نعقد فى كل أسبوع مساجلة أدبية بين كلية العلوم وكلية الآداب، هو أمامى ومعه طالب وطالبة، ومعى مثلهما أنا الآخر. هو يدافع عن الحضارة وكنوزها وأصالتها. وأنا أدافع عن الحضارة الغربية وتطورها وتقدمها.. وكان يحكم بيننا جمهور المستمعين الذى كان يقدر بالآلاف. يأتون من كل أنحاء مصر ليسمعوا هذه المساجلات والمداعبات الأدبية التى لا يمكن أن تعوض فى مصر بعد أن تركت الجامعة المصرية روحها".

ولم تنقطع اتصالات الرواد ببعضهم ولو بتبادل مؤلفاتهم، رغم اختلاف ظروف واهتمامات العصر بعد ذلك، فتجد أن طه حسين يعتب على حسين فوزى فى إهداءات كتبه إليه، غيابه عنه وعدم اتصاله به فيقول له مداعبا "إلى الصديق الهاجر المتجنى الدكتور حسين فوزى، و"إلى الصديق على نسيانه للأصدقاء"، وهو عتاب كما ترى نابع عن حب وأدب الصداقة بين الكبار.

حسين فوزى من رواد القصة الحديثة!

وفى تقييمه لعطاء السندباد كتب يحيى حقى عن حسين فوزى(*) "إنه يمثل المدرسة الليبرالية العلمية، وهو ابن الحضارة الأوروبية، وأحد مؤسسى المدرسة الحديثة فى الثقافة المصرية.

كان هو ومحمد تيمور ومحمد رشيد يجتمعون لقراءة الإلياذة، وعيون الأدب الأوروبى، ويمضون أغلب الليل فى نقاش لذيذ ينفسون به عن مطامعهم فى أن يكون لمصر أدبها الأصيل هى أيضا، ولكن الشك فى قلوبهم كان يطغى على الأمل، وكانت هذه المناقشات مبشرة بظهور المدرسة الحديثة فى القصة التى ازدهرت فى مطلع الحلقة الثالثة من هذا القرن(**)، وفرسانها : أحمد خيرى سعيد، وهو ومحمود طاهر لاشين، وحسن محمود، محمود عزمى، إبراهيم المصرى، حبيب زحلاوى، وتوفيق الحكيم، وقد تحول كثير من هذا الرعيل الأول من مذهب إلى مذهب ، وبقى د. حسين فوزى خير مثل لرأى لم يتحول عنه وهو ايمانه بالفكر الأوروبى وحده".

وفى تأريخه لفجر القصة المصرية، على درب اللوحات القلمية

(*) الأخبار السابق.

(**) يقصد القرن العشرين.

أو هذا الضرب من الهجين من فن القول الذى لا هو قصة ولا هو مقاله، كما حدد لونه بدقة يحيى حقى ذكر أسماء د. حسين فوزى والبشرى، والشيخ مصطفى عبد الرازق. وهى شخصيات مجهولة ولا شك فى فجر القصة المصرية الذى أرخ له يحيى حقى.

ولكن اكتشافنا لحسين فوزى ككاتب للقصة فى بواكير حياته الأدبية يجب ألا يفاجئنا خاصة إذا علمنا أنه كتب أوبرا كليوباترا ١٩٢٢، والتى قرأها توفيق الحكيم فى بداية تعرفه عليه، وأعجب بها وأوصى بها خيرا، وقد لحنها داود حسنى، وقدمتها على المسرح فرقة التمثيل العربى - إخوان عكاشة" لأول مرة فى الخامس من نوفمبر ١٩٢٥ كما يؤرخ الناقد الأدبى فؤاد دوارة.

ويؤكد نجيب محفوظ ريادة السندباد القصصية قائلا(*)

"حسين فوزى عرفناه أول ما عرفناه من رواد القصة الحديثة زميلا لتيمور ويحيى حقى، وهى المجموعة التى أنشأت القصة المصرية الحديثة".. وقد تمنى يحيى حقى وهو يرثى صديقه السندباد، إعادة نشر القصة الأولى المجهولة لحسين فوزى وهى "السبع حلاوة" والتى قال عنها إنها "قصة جميلة" وقد استجبت لهذه الرغبة الأدبية لأستاذنا الكبير يحيى حقى وقمت باكتشافها لنشرها فى هذا الكتاب الذى بين يديك، وما أجمل أن يقدم لها بقلمه رائد آخر من رواد القصة المصرية الحديثة هو محمود تيمور الذى كتب مقدما للقصة ومؤلفها يقول(**) :

علامة طريق

"سبعٌ من الحلوى" عنوان قصة قصيرة طريفة موضوعها فيما تعيه ذاكرتى - أن أسرة أهدت طفلها تمثالا من الحلوى على هيئة السبع مما يصنع فى الموالد فنبعت بين الطفل والسبع ألفة وثيقة، ولشد ما حزن الطفل حين رأى السبع على مدى الأيام فريسة للنمل ينتقص منه ولا يبقى فيه إلا الحطام.

ليس يعنينى الآن من عناصر القصة وتفصيلاتها إلا بطلها ذلك السبع المصنوع من الحلوى.

(*) أهرام ١٩٨٨/٨/٢١.
(**) أخبار ١٩٧٠/٧/١٢.

يحس قارئ القصة بأن الطفل قد أعجب الإعجاب كله بهذا السبع بنظراته التى تتجلى فيها القوة والسطوة بهيئته التى توحى بالمواثبة والغلاب بكل مظهر فيه للقوة والصراع.. ولكن الطفل على إعجابه بعظمة السبع أعجب أيضا بحلاوة مذاقه السكرى الخلاب.

مؤلف القصة الدكتور حسين فوزى يتشهى أن يكون على نحو ذلك السبع فى مظهرين: مظهر السطوة والقوة، ومظهر الحلاوة والعذوبة.. والذين اتصلوا به عرفوا فيه هذين الجانبين: عرفوه جريئا غاية الجرأة، صريحا إلى أبعد مدى الصراحة، قوى العارضة، لا يتهيب المهاجمة، يصدع بكلمة الحق التى يعتقدها كما يصدع الأسد المغوار بزئيره يهز به الأرجاء.

والذين عرفوا منه هذا كله عرفوا فيه أيضا صفاء الطوية وطيبة القلب وأريحية النفس ، تسفر عنها إشراقة الوجه وإيناس الحديث، فهو سبع حقا ولكنه سبع سكرى المخبر، حلو المعشر لا يشوب نقاءه كدر.

لقد أتى لنا د. حسين فوزى بالمعجب المطرب من مؤلفاته السندبادية الرائعة، ولكن قصته المبكرة "السبع الحلوى" ستظل ماثلة كعلامة طريق بارزة تحدد معالم أدبه وترسم ملامح شخصيته أو كأنها عمود الإنارة ينبعث منها النور الأخضر ليعطى إذن العبور لمن يريد الانطلاق مع الكاتب الألمعى فى آفاق فنه الفسيح".

* * *

أما قصة "السبع الحلاوة" نفسها فقد نشرت فى مجلة "التمثيل" وهى "مجلة أسبوعية فنية مصورة ، لمديرها عدلى جرجس. وقد نشر جزء من القصة أولا بدون توقيع، ثم نشرت كاملة فى العدد التالى الصادر يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٢٤، بكامل الصحفتين التاسعة والعاشرة ، يتصدرها اسم "الأديب حسين أفندى فوزى" وهذا هو النص المجهول للقصة التى أشاد بها أدباء القصة.

السبع الحلاوة

بقلم الأديب حسين أفندى فوزى

أنت تعرف ولا ريب كشك الحلوانى فى الموالد. ورأيت أولئك الغانيات الخصرات اصطففن فوق الامفتياترو مزججات الحواجب ورديات الخدود وقد جلس وسطهن صاحب الكشك كأنه النخاس فى سوق

الجوارى . وإذ قد كان الجمال نقمة على بنات النخاسة فقد أسبغت الطبيعة على حفيداتهن نعمة القبح. أجل يا صديقى إنى على يقين من أنك وجدت هذه العرائس قبيحات الصورة إلى حد مضحك. رغم الملابس الثمينة المصنوعة من الورق الملون والتيجان المذهبة القائمة على الأسلاك وقطع الصفيح والمرايا التى تزين صدورهن . وقد لا يكون القبح عيبا فى نفسه خصوصا إذا كانت عرائسنا الحلوى متحليات بالفضيلة - تتفضلن بذلك عرائسنا الأدمية! ولكنى أرى فى جوارى المولد صلفا وكبرياء ونفخة لا تدعو إلى الاطمئنان. ويخيل لى كلما أطلت النظر إلى واحدة منهن أنها تحسبنى أخذت بجمالها. وإلا فلماذا تصعر خدها؟ ولماذا تضع يديها فى خصرها؟ ويظهر أن أولئك المتعوسات قد خدعن بزخرف ما عليهن من الورق والصفيح فحسبن أنهن من الأميرات. بل لقد أكد لى خبير بأنهن يحسبن كل الازدحام والضجة فى الموالد من أجلهن. ومن أجلهن فقط.

كانت الجوارى فى الزمن السالف تعرض لعينيك عاريات أما هؤلاء فأنت مضطر لشرائهن مستورات . وعبثا تبحث عن سيقانهن مثلا. فتحت أذيالهن فضاء تدب فيه أسراب النمل بأنواعه من الفارسى إلى حرامى الحلة. أما إن حاولت أن تعرف طول غدائرهن فهن قرعات بكل ما فى القراع من قلة الشعر ولمعان جلد الرأس. ذلك التاج مسند إلى سور من الحلوى يقوم مقام البندور الذى كانت تستعمله سيدات الجيل الماضى.

إننى مع كل هذا لا أشك فى أن الفنان الذى أخرج هذه التحف الجميلة رجل صادق النظر ينقل عن الطبيعة مباشرة. ففى هذه العرائس من الرياليزم ما يدعو إلى الإعجاب. كلا. أنا لا أضحك وأقسم برأس أى عروس منهن أنى وجدت نساء كثيرات أشبه بهذه العرائس من أى شىء أخر.

تأملت مرة فى ملامح سيدة تناست بضع عشرات من سنى حياتها. تأملت طويلا ثم ما لبثت أن أعجبت بمهارة تلك السيدة فى إخفاء سنها.. إنها لم تستطع أن تخدعنى بأنها شابة هذا حقيقى. ولكنها أقفلت فى وجهى كل سبيل لمعرفة سنها بالتقريب. فهى تناهز الخمسين. الستين الثمانين أو ما ينيف. وجلى لك أن هذا ليس سنا تقريبيا ! أتريد الحق يا سيدى القارئ؟ إن ذلك النوع من السيدات لا سن له. وهذا ينطبق تماماً

على ما أراه في عرائس المولد إذ لا أستطيع أن أضعهن أيضا في كادر الأعمار. هؤلاء وأولئك مخلوقات "Hors cadre" .

لم أكن في صغرى بالطبع لأفكر بهذه الطريقة . ولكنى كنت أكره قبح هذه العرائس التفصيلي مع حبى لمنظر الكشك الإجمالي واهتمامى بأن أفوز منه بتحفة . لذلك كنت أختار لشرائى الجند والفرسان والحيوانات - كنت حيوانا صغيرا فلا تعجب إذا اقنيت كل فصائل الحيوان التى يعرضها أولئك النخاسون المتضائلون - واشتريت مدافع وقصورا فخمة ذات مرايا وذات مصابيح. أى أننى كنت أتحاشي جنس الأنثى جهدى. ليتنى اتبعت هذا الرأى كبيرا! فإن من أسلم الأمور لك ولى أن نبعد عن النساء . كما أنك توافقنى على أن عادة اقتناء القصور الفخمة ليست مضرة مثلما يتصورها أكثر الناس. هذا إن لم تكن نافعة بعض النفع!

وقد حدث أنى اشتريت ذات مولد أسدا من أهل هذا الكشك كان له أثرا فى نفسى وأى أثر! كان فذا فى شكله. لم أر له شبيها فى أى كشك آخر. فقد كان كبير الحجم جدا - يبلغ حجم عروستين قبيحتى السحنة - وقد صنع من الحلوى البيضاء. له لبد زاهى اللون مرصع بالحجارة الكريمة من بونبون مفضض وزجاج أزرق وأحمر وورق مذهب. ثم عيناه الجميلتان! كانت تنمان عن الشجاعة مع الأنفة والشمم مع طيبة متأصلة فى النفس - هكذا فهمت أخلاقه من حكاية "التهجى والمطالعة" التى عنوانها "المرأة والأسد" - وهل إعجابى الدائم بعينيه قد أنسانى الآن مما صنعتا وربما كانتا من البونبون أيضاً: وقد يكشف هذا عن سر إعجابى العظيم بهما . ومن دواعى إعجابى بهذا الأسد أنه كان قائما كسباع قصر النيل ، مديما النظر إلى الأمام فى موقف المنتبه، منبسط الصدر وضاح الجبين!

كنت أخشاه كثيرا ذلك الأسد فى أول الأمر ولكنى لم ألبث أن اطمأنت إليه نفسى منذ تراءى لى أنه قد افترس كفايته فى حياته الماضية وأنه ما جاء إلى منزلى إلا ليكون صديقا حميما لى، ولم يعلم المسكين أن صداقة ابن آدم لا تدوم وأن كل بياض حلواه وبريق لبديه وشرف عواطفه لم تدرأ عنى قضاءه المحتوم ولم تمنعنى من أن أجرده من بونبونه المفضض لألتهمه فى ساعات خلوتى به، على أنى أشهد المرآة

التى كانت تعكس خياله أنى لم أقدم إلا على بضع بونبونات وضعت فى جنبيه وعند منبت ذنبه لم أجد له فيها جمالا ولا حيلة: أمـا لبدتـه الجميلـة فقد أبقيت على كل ما فيها من البونبون - لآكله دفعة واحدة!

وتوالت الأيام والليالى لتوثق من عرى تلك الصداقة، فكلما خرجت إلى الكُتاب فى الصباح دخلت إلى قدس أقداس المودة أقرئ صديقى تحياتى ليقابلهما بكل ارتياح ويشجعنى بعينيه على تحمل المقرعة فى يومى الاثنين والخميس إذ كان علينا أن نُسمع "الماضى" وكلما عدت من الكتاب أو من الهرب من الكتاب دخلت عليه ليتلقانى بنظرات العطف والأشواق.

أتصدقنى يا عزيزى القارئ ؟ أننى أحببت هذا السبع أكثر من كل قصور وخيول وجنود الموالد السابقة واللاحقة ولم أسيء إلى صداقتنا إلا ببضع البونبونات المفضضة التى التقطتها من جنبه ومنبت ذنبه - لا من لبدته كما أخبرتك - بينما الحلويات الأخرى لم يكن يمضى عليها بضعة أيام حتى أكون قد التهمتها بالتدريج: جنود، فرسان، مدافع، سرايات، كلها إلى الفناء، تبتدئ حياتها القصيرة فى معمل الحلوى وتنتهى بين أسنانى.

عَمر سبعى الحلاوة طويلا. لا أذكر كم. ولكننى أذكر عزمى على إبقائه دائما، إلا أن النمل - ذلك الوحش المفترس ! لم يوافقنى على رأيي. فبدأ زحفه على سبعى الحلاوة! وكصديق وفـي قمت بالدفاع عن سبعى الحلاوة، كان دفاع الإبطال ولكنك تعلم أن المثابرة بطولة أخرى، وعدوى امتاز عنى بهذه الصفة فألقيت السلاح مستسلما وتركت النمل ينخر فى سبعى الحلاوة.

كانت والدتى تحذرنى دائما من هذه النتيجة كلما رأت منى إصرارا على إبقاء السبع، فجاءت أخيرا تهددنى بأنها ستكسره فى غيبتى وتلقى به خارجا لتتخلص منه ومن النمل الذى تسبب فى كثرته المخيفة، فبكيت واستحلفتها أن تبقى على سبعى الحلاوة فما ذنبه هو فهل قال للنمل "تعال كلنى" ؟ وعلى هذه النقطة وحدها استندت فى دفاعى، فاتفقنا أن نضع صديقى فى غرفة مهجورة ، ماذا يؤثر ذلك فـى الصداقة مادامت هناك قلوب شريفة متحابة؟ فلتضعه فى الكرار إذا أرادت . أيمنع ذلك أن يكون صديقى؟ بيد أن والدتى أدركت خطر هذا السبع الحلاوة فى

أى ركن من أركان المنزل فأخذت تلاطفنى وتغرينى بالسعادة واللذة فى البنبونات المفضضة التى سأحصل عليها نتيجة للتخلص من صديقى، والحق يا سيدى أن الإغراء كان شديدا .خصوصا وقد يئست من مكافحة عدوى العنيد وقد أدركت أن الزمن سيجئ حينما لا يبقى النمل لى سبعا ولا بونبونا!

ألقيت على صديقى نظرة فوجدته يرمقنى بنظرات أسيفه ملؤها التعنيف. ومنذ تلك اللحظة قام بنفسى عراك هائل منعنى من حفظ اللوح اليومى وكلفنى مقرعات كثيرة من العريف ، وألحت والدتى فى طلب إزالة السبع بالحسنى قبل أن تلجأ إلى القوة وازدادت جيوش النمل التفافا بصديقى حتى أخفت معالمه وحولت جسده إلى ثقوب كثيرة فأصبح سفنجة أكثر منه أسدا! احترم شعورى يا صديقى القارئ فإن منظر صديقى الحلاوة قد فتت كبدى، فتته حقيقة لأن الأطباء يقولون حتى هذه الساعة بأن كبدى أصغر من كل الأكباد.

أيها الطبيعة كم خلقتنا ضعفاء فى كل شيء حتى فى عواطفنا التى تجعل للحياة قيمة ما ! ما إذا أقول؟ تركت صديقى لقسوة القضاء فلم تكد والدتى تستخلص منى كلمة الرضى حتى تقدمت إلى سبعى الحلاوة وحملته بين يديها. نظرت إلى صديقى نظرة أسى عميق وكل ما أذكره من تلك الساعة هو نظرة دهشة وإشفاق من والدتى. ولعلها فى تلك اللحظة فقط أدركت شدة تعلقى بذلك السبع الحلاوة. ومن الغريب أنها حين سألتنى إن كنت أرجع فى حكمى؟ نظرت إلى البونبون وقلت: كلا.. ثم تركتها مسرعا إلى الخارج لأنسى.

واختفى السبع الحلاوة إلى الأبد

ولم تنبس شفاهنا بكلمة عن الصديق الراحل وقد وفرت علىّ والدتى ألم ذكره. على أنى لم أفهم حينئذ لماذا لم تقدم لى بنونبونه المفضض وقدمت لى بدله أصابع الموز الصناعى؟ وأنها إما وجدت البونبون غير صالح للأكل وهو الغالب، وإما خشيت تألمى لدى رؤية بقايا الصداقة الزائلة. وسواء كان هذا أو ذاك فقد نسيت صديقى بين نعيم الشكولاته ولذائذ الحلويات.

وبعد، ألسنا كلنا أطفالا كبارا ننسى فى حلويات هذ العالم كل شيء حتى الصداقة؟

سلامة موسى

رجل المستقبل

"أذكر الآن أول رواية نشرت لى ، فتتعالى دقات قلبى!! لو أنى أملك قوة البعث، لبعثت حيا هذا الرجل العظيم الذى نشرها لى، وأثر على جيل بأكمله: سلامة موسى"

نجيب محفوظ

أساتذتى (*)

تأخرت معرفتى الشخصية بسلامة موسى، قليلا عن معرفتى العامة به من خلال كتاباته فى مختلف المجلات، حتى إذا أنشأ "المجلة الجديدة"، اشتركت فيها ببعض المقالات فى العلوم الاجتماعية الحديثة التى كنا ندرسها فى الجامعة، فبعث إلىّ خطابا يشكرنى ويعتبرنى من أصدقاء المجلة، ويطلب منى مقابلته.

فذهبت إليه فى المجلة وتعرف علىَّ وكنت لا أزال طالبا، وكان هو يظن أننى أكبر سنا من ذلك، ولكننا تعارفنا على كل حال، لأقابل وجها لوجه ذلك المفكر الذى تعلمت منه أفكاره فى الصحف، وكانت شخصيته ترتبط فى ذهنى بالعدالة الاجتماعية والديمقراطية والتصنيع وحرية المرأة وأهمية العلم، وهى مفردات كانت شاغله الأساسى.

وكنت كلما كتبت مقالا قدمته إليه، وجلسنا نتبادل الحديث، حتى إذا جاءت سيرة الرواية، لأى سبب لست أدرى على وجه اليقين، ولكن ربما كانت قد صدرت رواية لطه حسين، أو العقاد، أو لأديب آخر، لا أتذكر تماما. وكان من رأى سلامة موسى أن الرواية جنس أدبى لا يصلح فى اللغة العربية.

فسألته: لماذا يا أستاذ؟

فقال: لأن دور المرأة هامشى ، والروايات الموجودة تقليد للرواية الأوروبية.

وقال لى سلامة موسى رأيا غريبا حين ذكر لى أن الذى يمكنه أن يعطينا فكرة عن رواية مصرية عربية صميمة يمكن يكون واحد أزهرى ! ونظريته فى ذلك هى أن الأزهرى لن يكون متأثرا بالثقافة الغربية، مما يجعل روايته تحمل روحا وأسلوبا عربيا أصيلا دون شائبة

(*) هذه المقدمة أملاها نجيب محفوظ على المؤلف ووقعها فى ٢٠٠٠/٤/٨.

من التقليد الأوروبى.

وقد دعانى رأيه هذا لأن أقول له : إنك أياستنى يا أستاذ ، لأننى كنت أفكر فى أن أكتب روايات.

فقال لى : غريبة ! وطلب منى أن أطلعه على الروايات التى عندى، فجئت له بأول رواية كتبتها كتمرين.

فقال لى بعد إطلاعه عليها: إنت عندك موهبة، لكن هذه الرواية ليست فى مستوى النشر.

وقال لى نفس الكلام على رواية ثانية، ويمكن ثالثة ، لكننى لا أتذكر تماما أسماءها، لكن ربما كانت واحدة منها تتناول الريف، لواحد لم يذهب إلى الريف، وأخرى عن لعيب كرة، أما الثالثة فلا أتذكرها، إلى أن أعطيته رواية "خوفو" . فقال لى : هذه رواية فى مستوى يمكن أن ينشر. لكن اسم "خوفو" لم يعجبه رغم أن له ابنا اسمه "خوفو" ، واقترح علىَّ أن أسميها "عبث الأقدار"، وقد نشرها لى فى كتاب وزعه على المشتركين فى "المجلة الجديدة". التى أصدرها، وكانت هى أول رواية تنشر لى ، وكان ذلك سنة ١٩٣٩، وفتح لى مجلته لأنشر فيها قصصى ورواياتى.

وقد عرفت سلامة موسى كرجل متواضع، وقليلا ما كان يعرف أحدا ولا يشجعه، فهو يحب أن يتعرف على من يكتبون فى مجلته، كما فعل معى وقرأ لى ، بينما اليوم لا يرجد أحد يكتب رواية ويجد من يقرأها له.

كما كان سلامة موسى يهنئنى على كتبى التى كنت أهديها له، وقد زارنى فى ندوة "كازينو أوبرا" ، وتحدث معنا، وكان فى ذلك الوقت يكتب فى جريدة "الأخبار" وكتب كلاما جيدا عن "بين القصرين". لذلك فإن فضل سلامة موسى يظل باقيا فى الأجيال التى رباها، والأفكار التى نشرها، وهى الأفكار التى تبلورت فى الجناح اليسارى للوفد، وثورة ٢٣ يوليو.

ورغم هذا فإنه لم ينل حقه بماله من مؤلفات كثيرة مفيدة لدعاة حرية الفكر، والعلم، وربما لم ينل حقه لتطرف أفكاره وميله إلى الغرب مائة فى المائة كالدكتور محمود عزمى الذى لم ينل حقه أيضا لذلك التطرف فى الغالب.

كانت لسلامة موسى مواقفه المضادة للأفكار والتيارات السائدة فى عصره، ورغم ازدهار الثقافة فى ذلك العصر إلا أن حظه من الانتشار لم يكن مثل بقية الرواد، فتعرض لأزمات مالية اضطرته لأن يبيع مكتبته أكثر من مرة ، وكان هو الوحيد الذى أراد إنشاء دار للنشر، ولم يتعرض الرواد لهذه التجربة القاسية ، ومع ذلك ظل سلامة موسى معتزا بنفسه ومحتفظا بأخلاقه العالية، وطيبة قلبه، وحنوه على عائلته ، فقد كان صاحب عائلة كبيرة. لكنها لم تشغله عن هموم أمته التى كان يحب لها التقدم، ويرجو لها أن تعيش عصرها، وتتوجه توجهاته، فقد دعا للصناعة الوطنية وتشجيعها ، ودعا للعلم، وللحرية ، والديمقراطية، والوحدة الوطنية.

لقد كان سلامة موسى يعمل للثقافة الوطنية، وأبعد ما يكون عن التعصب.

وكان فى أحيان كثيرة يبدو كأنه يساند "الوفد"، ولما سجن العقاد، كان يذكر به القراء فى كل عدد من "المجلة الجديدة"، رغم ما بين سلامة موسى والعقاد من خلافات فكرية، وهذا موقف نبيل لسلامة موسى، ينبغى أن يكون نموذجا للمفكرين والأدباء، لكى يتجردوا من المواقف والصراعات الشخصية فى سبيل المبدأ العام.

والمبدأ العام هو الذى جعله يرى فى الأزهر جامعة حفظت الثقافة واللغة العربية، ومرور ألف سنة عليها يجعلها تستحق الاحتفال. ورغم أن له رأيا فى استعمال "اللغة العامية" أحيانا إلا أنه مع ذلك لم يكن يكتب بالعامية، فقد كان يكتب بالفصحى وله أسلوب سهل كانوا يسمونه الأسلوب التلغرافى.

لقد كان سلامة موسى فى غاية الجرأة والشجاعة الأدبية، وكانت أفكاره فى الغالب أكثر تقدمية من المجتمع الذى يعيش فيه، فقد كان أمثال سلامة موسى يطورون عصرهم لكنهم كانوا متقدمين عن عصرهم.

وتظل أفكار سلامة موسى باقية فيما عدا التوجه إلى الغرب، ولكن من غير مغالاة لأن أخذ الغرب كله وإحلاله محل حياتنا، خطوة غير معقولة. فلابد أن نأخذ من الغرب ما يصلح لنا مع تطويره، وقد تأثرت بكل أفكار سلامة موسى ما عدا تطرفه مع الغرب.

كما تأثرت بدعوته للاشتراكية الإنجليزية التى تعرف

الديمقراطية، وتعترف بالأديان، بعكس الاشتراكية السوفيتية. وكان سلامة موسى عضوا في (*) "الجمعية الفابية" في إنجلترا، وعرف برناردشو، وويلز معرفة شخصية.

ويقف سلامة موسى على يسار المفكرين الذين تأثرت بهم، بأخلاقه وتواضعه وأسلوب تعامله مع الناس، وهو الوحيد الذى اتصلت به بين جميع أستاذتي رغم حبي الشديد لهم، وكان ذلك بفضله هو حيث سعى إلى معرفتي، أما مصطفى عبدالرازق فقد عرفته بحكم دخولي في كلية الآداب وتلمذتي عليه كأستاذ للفلسفة.

ويظل سلامة موسى رائدا كمفكر اجتماعي أولاً، متميزا بهذا الاتجاه بين الرواد.

وخير تكريم هو طبع ونشر كتبه ضمن مشروع الأعمال الكاملة، لأن هذه الكتب مفيدة تاريخيا وعصريا، وما تزال الكثير من أفكارها حية ونحتاج إليها، وقد استحق سلامة موسى بأفكاره التي سبقت عصره أن نضع لحياته عنوانا هو "رجل المستقبل".

(*) من أنصارها برناردشو، وهي تدعو إلى الاشتراكية المعتدلة، نسبة إلى "فابيوس" القائد الروماني الذي كان يداور ويناور ويرهق أعداءه دون مواجهة.

رجل المستقبل

"وصرت عضوا مقلقا للمجتمع المصرى مثل ذبابة سقراط، أنبه الغافلين. وأثير الراكدين، وأقيم الراكعين الخاضعين"

سلامة موسى

"علاقتى به علاقة تلميذ بأستاذ عظيم"

هكذا لخص نجيب محفوظ فضل سلامة موسى عليه، فمن هو سلامة موسى الذى يرى فيه عميد الرواية العربية أستاذا عظيما؟

إنه كما تحدث عن نفسه:

أنظر إلى الدنيا بالعقل البكر والقلب البكر، وأقتحم الأفكار بروح البطل أو الشهيد. وإنى قد احترفت العلم والأدب والفلسفة، وألفت الكتب، وصرت عضوا مقلقا للمجتمع المصرى ، مثل ذبابة سقراط. أنبه الغافلين، وأثير الراكدين، وأقيم الراكعين الخاضعين".

وقد عبر د. حسين فوزى عن هذا المعنى حين كتب يقول "أعظم ما فى سلامة موسى أنه وهب نفسه للعلم والفكر والثقافة، هبة خالصة، دون أن ينتظر ثوابا أو يخشى عقابا".

إرادة النهضة

ولقد عوقب سلامة موسى بالنفى الأدبى والثقافى والمعنوى من الذاكرة الإبداعية بسبب آرائه وأفكاره الحادة الصادمة، التى قوبلت بعاصفة من الهجوم والاستنكار من أدباء ومثقفى عصره، ورغم ذلك فقد كانوا يعترفون بقدره وقيمته.

وقد تحدث نجيب محفوظ عن تأثيره فى قرائه - وهو التأثير الأهم - وذلك فى مقال مبكر من مقالاته التى افتتح بها حياته الأدبية فى الثلاثينات حين اختار "ثلاثة من أدبائنا"(*). اعتبرهم قاموا بعمل عظيم فى نهضتنا الأدبية التى كانت حينذاك "تكاد تودع عصر الانتقال لكى تستقبل عصرا جديدا ثابت الأسس واضح الأغراض ، ولقد قام بهذا العمل العظيم، عمل الانتقال والتوجيه، أدباء كبار.. "نريد أن نتكلم على ثلاثة منهم نرى أنهم الممثلون لنهضتنا فى نواحيها المختلفة ، ولسنا نتحدث عنهم كنقاد أو كمؤرخين وإنما كقراء اتصلت نفوسهم بنفوسهم زمنا طويلا وتأثرت بها تأثرا كبيرا" وقد حددهم نجيب محفوظ بهذا الترتيب : العقاد وطه حسين ، وسلامة موسى.

وقد اعتبر نجيب محفوظ ، سلامة موسى ممثلا لإرادة النهضة الأدبية. فبم استحق سلامة موسى هذا التقدير من نجيب محفوظ فى تلك الفترة المبكرة من حياته؟

(*) المجلة الجديدة - السابق.

طريقته فى الدعوة

يقول نجيب محفوظ: يمتاز الأستاذ سلامة بتفكير عملى، ومن شأن هذا التفكير ألا يكترث كثيراً للنظريات وألا يركن إلى النظر المجرد والتأمل الفنى ، وكل ما يهمه من النظرية أن يطبقها ، لأن همه منصب على الحياة وعلى الآمال فى هذه الحياة، والإنسان لا يذكر الأستاذ سلامة حتى يذكر داروين ونظرية التطور، ولهذه النظرية أثر بالغ فى نفس الأستاذ وهى أصل مثله العليا للإنسان والحياة الاجتماعية، وأهم شاغل له هو الإصلاح الاجتماعى وله جولات عظيمة وتضحيات كبيرة فى سبيل التجديد الدينى وتحرير المرأة ورقى الفلاح والعامل، وقد كان الداعى الأول إلى الوطنية الاقتصادية وكان لدعوته أثر كبير فى نفوس الشبان مما نرى مظاهره قوية حية يطرد نموها يوما بعد يوم. وعلى العموم فهو مجدد أدبى كبير إلا أنه لا ينظر للأدب كغاية وإنما كوسيلة للإصلاح والرقى فى المجتمع والحياة، وطريقته فى الدعوة ليست عن سبيل المنطق والجدل بقدر ما هى عن سبيل علم النفس فهو يقرر ما يرد فى عبارات قصيرة واضحة ويكررها كثيراً حتى تثبت فى النفس وتصير كإحدى عناصره الموجهة، ولذلك ترسخ مبادئه فى النفوس وتؤثر فى أعدائه قبل أنصاره .

أحيا بعد موتى

ورغم أن سلامة موسى ولد فى ٤ يناير ١٨٨٧ فى كفر سليمان العفى، بجوار مدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية وتوفى فى ٥ أغسطس ١٩٥٨ إلا أنه يرى أن عمره القصير هذا ليس إلا الجزء الظاهر من جبل الجليد، أو كما يقول "وليست حياتى هذا العمر القصير الذى أحياه بدمى ولحمى، وإنما هى تعود إلى ألف مليون سنة مضت، ألم أكن سمكة فى يوم ما؟ ألم أعش على الشجر فى وقت ما؟

لقد حمل جسمى آثار هذه الملايين من السنين الماضية".. وكان سلامة موسى يتطلع إلى الموت ليس هروبا ويأسا ولكن من أجل معنى جديد، فيقول "إننى أفكر فى الموت لكى أستخلص منه عزما جديدا لكى أحيا".

بل إنه يرى أن حياته ممتدة بعد وفاته بإنجازاته الأدبية والثقافية وأفكاره التى لا تموت، أو كما يقول : بذلك أتجاوز حياتى وأحيا بعد موتى".

كسب الأعداء

وكان يمكن لسلامة موسى أن يحتل مكانة رفيعة فى تاريخ الثقافة المصرية والعربية لولا أراؤه الحادة فى تلك الثقافة وخصائصها ومسيرتها الطويلة، فقد أراد العامية بديلا للفصحى ، بل دعا إلى كتابة العربية بحروف لاتينية ، فردت عليه بنت الشاطئ:

إن الفصحى لم تجد من يخاصمها فى الربع الثانى من هذا القرن (العشرين) مثل سلامة موسى".

وعندما اتهم سلامة موسى، اللغة العربية بتوقف ألفاظها عند المجتمع الزراعى قائلاً : إن العربية هى المسئولة عن حبنا للقديم وسعينا إلى استرداد الأمس فى الوقت الذى يجب فيه أن نستدبر الماضى نوليه ظهورنا ونيمم شطر المستقبل ونشق إليه طريقنا".

رد عليه زكى مبارك "إن حديثه عن اللغة خطأ، فاللغة العربية فى تطور مستمر، فإن كان لا يعترف بالتطور إلا إذا انعدمت الصلة بين الماضى والحاضر، فليعرف أن هذا أمل بعيد، وليتذكر أن الغاية المستورة التى يسعى إليها بعض الناس لم تعد تخفى على أحد".

وعندما دعا طه حسين لترجمة شكسبير، وقف أمامه سلامة موسى مطالبا بترجمة الكتب العلمية أفضل من ترجمة شكسبير الذى مثله مثل المتنبى وشوقى ، أدبهم جميعا للملوك وليس للشعب.

فرد عليه طه حسين بقسوة: إن الذى يغيظ سلامة من شوقى هو "نهج البردة".

وعاب سلامة موسى ، على طه حسين والعقاد أنهما يكتبان عن مجتمع العرب وأبطال العرب الذين ماتوا قبل ١٢٠٠ سنة ويكتبون عن القديم بصيغة جديدة، ولا يشغلهم المجتمع الحديث ومشكلاته، وقضاياه المتطورة.

ووضع سلامة موسى الأدباء الثلاثة الكبار "طه والعقاد وتوفيق الحكيم، موضع الاتهام، فتوفيق الحكيم "يمارس الفن وفق سخافة "الفن

للفن"، كذلك أحس وأنا أسمع بعنوان جديد لطه حسين أو عباس العقاد بأنهما يؤلفان للتأليف وليس لهدف اجتماعى يخدم الشعب.

أما هو - سلامة موسى - فقد كان يرى نفسه يؤلف من أجل الشعب أو كما يقول "وفى كل ما ألفت أنا هدفت تصريحا أو إضمارا إلى خدمة الشعب وتوجيهه، فإن عناوين مؤلفاتى يكفى ذكرها للبرهان على ذلك مثل "نظرية التطور" و"حرية الفكر"، و"الثورات" و"كيف نربى أنفسنا" و"الأدب للشعب" ، و"برنار دشو" و"طريق المجد للشباب"... إلخ.

وقد هاجمه العقاد بقسوة فقال فيه إنه "الكاتب الذى يكتب ليحقد، ويحقد ليكتب، ويدين بالمذاهب ليربح منها ولا يتكلف لها الكلفة فى العمل أو فى المال... "يشترى الأرض ويتجر بتربية الخنازير، ويسخر العمال ، ويتكلم عن الاشتراكية التى تحرم الملك وتحارب سلطان رأس المال، وهو يعيش من التقتير عيشة القرون الوسطى فى الأحياء العتيقة.. ويتكلم عن التجديد والمعيشة العصرية، وهو ينعى الحضارة الآسيوية ، وإنه لفى طواياه يذكرنا بخلائق البدو والمغول فى البرارى السيبرية".

واتهم سلامة موسى طه والعقاد بعدم القدرة على التجديد وافتقارهما إلى الحرية الفكرية، وكان يقول "إن صناعتى الحرية وليست مجرد الكتابة".

وكان يقول "إننى موفق دائما فى كسب الأعداء".

يدافع عن طه حسين

ورغم قسوة الاتهامات المتبادلة بين سلامة موسى وأدباء عصره، إلا أنه كان يعرف لهم قدرهم ويقف منهم الموقف الصحيح فى أزماتهم، وقد كانوا أيضا يقدرونه ويعرفون له قيمته.

فعندما طرد طه حسين من الجامعة، دافع عنه سلامة موسى فى "المجلة الجديدة" التى يصدرها، فكتب فى عدد أغسطس ١٩٣٤ متنبئا بانتصاره أمام ديكتاتورية إسماعيل صدقى، قائلا "إن البيئة الاجتماعية التى اختمرت فأنبتت طه حسين مستطيعة أيضا أن تنبت مثله يدعو بدعوته إلى التجديد، والأمة مصرة إصرارا لاشك فيه على أنها تريد أن تعيش فى القرن العشرين، وأن تكون بمزاجها الذهنى سواء فى الاجتماع أو السياسة أو الأدب مزاج أبناء هذا القرن. وإذا كان أحد يظن أن طه حسين وزملاءه من الأدباء الأحرار قد انهزموا وخنسوا أمام الرجعية

الواثبة، فهو مخطئ لأنه يأخذ بالظواهر، وهو إذا تأمل لم يجد بدا من الاعتراف بأن هؤلاء الأحرار منتصرون إن لم يكن اليوم فغدا" .. وقد حدث وزالت ديكتاتورية صدقى وانتصر طه حسين وصحبه. لقد كان سلامة موسى معجبا بشخصية طه حسين ، وإن كان يقول إنه يعجب بكفاحه فى تغييره وتطويره لحياته أكثر من إعجابه بأدبه.

وليس من الصعب رصد تناقضات سلامة موسى فى الحديث عن شخص واحد كطه حسين من اتهامه بعدم القدرة على التجديد، فى حين أنه كان يضرب به المثل فى قدرة البيئة الاجتماعية على أن تنبت مثله يدعو بدعوته إلى التجديد، وإن كنا سنعود إلى هذه الملاحظة فيما بعد لتفسير أسبابها.

ولم يمنع ذلك طه حسين من أن يعترف لسلامة موسى بأن "عقليته متوثبة ممتازة، يخوض غمار الأفكار الصعبة ولا يقتنع باليسير الهين".

ويدافع عن العقاد

وكما تصدى سلامة موسى لديكتاتورية صدقى فى محاربة طه حسين، تصدى لما هو أعظم من ذلك عندما تعرض لديكتاتورية الملك فى سجن العقاد بتهمة العيب فى الذات الملكية، فقد كان دائم الذكر للعقاد والإشادة بفضله على الصحافة والشعر، وأكثر من نشر صوره، وعندما زار مصر الكاتب الإنجليزى "ويلز" كتب يقول "لو كان العقاد طليقا لوجد "ويلز" الأديب الجدير بمقابلته والتحدث معه"، مما أعتبر استفزازا للملك، وتوقفت "المجلة" وقبض عليه للتحقيق معه.

وقد أنصفه العقاد بعد موته وقال عنه : إنه رائد من رواد التحرر الفكرى".

تحيته للملك!

وإذا كان العقاد شجاعا فى مواجهته للملك فلم يكن سلامة موسى أقل شجاعة عندما وضع على غلاف مجلة "الفضيلة" (١٤ مايو ١٩٣١) صور خمسة ملوك مخلوعين، وتلك كانت تحيته للملك فى عيد جلوسه على العرش، مما أعتبر تعريضا بالملك ، فقبض عليه وعطلت المجلة.

بل إن سلامة موسى كان قد تنبأ فى مجلة المستقبل"[*] ١٩١٤ (التى أنشأها) عند قيام الحرب العالمية الأولى ، بأنه مع نهايتها ستنتهى العروش فى أوروبا وينهار النظام الملكى.

وفى سنة ١٩٢٥ يكتب أن الحكم الملكى سيزول من جميع البلاد فى العالم لانفراده بالرأى واستبداده بالسلطة .

اعتراض طلعت حرب

لقد أراد سلامة موسى أن تكون مصر بلدا حرا ديمقراطيا، ونستطيع أن نلمس أفكاره فى كتابه الأول الصغير الحجم الكبير القيمة "مقدمة السوبرمان" ١٩٠٩، الذى يتضمن البذور الأولى لتفكيره فى الاشتراكية ، والديمقراطية ، والتصنيع، وحرية المرأة، والنزعة العلمية، والأدب المرتبط بالمجتمع، وقد تساءل فى كتابه "إلى متى نرزح تحت هذا النظام الرأسمالى القذر"؟.

وكان هو صاحب الدعوة والتطبيق فى "جمعية المصرى للمصرى" ١٩٣١، وذلك لمقاطعة البضائع الإنجليزية والأجنبية، وتشجيع الاهتمام بالمنتجات الوطنية، وكان من أعضاء الجمعية: فتحى رضوان، أحمد حسين ، نور الدين طراف.

وكان قسم "جمعية المصرى للمصرى" : أقسم بربى ووطنى وشرفى ألا أعامل شخصا أجنبيا ولا أستعمل شيئا أجنبيا إلا بعد الثقة التامة من عدم وجود الشخص أو الشىء المصرى الذى يغنى عن الأجنبى".. وكان يخاطب المصريين "أنتم الآن لا تملكون مصر إلا بالإسم لأن الذين يملكونها أجانب".

وكان من نتائج دعوته إنشاء شركة "بيع المصنوعات المصرية" لبيع كل ما هو مصرى.

وكان يفخر "لست متواضعا عندما أتخذ ملابس بلادى الخشنة، بل إنى أشعر بكبرياء تكاد تجعلنى وأنا أسير فى الشارع أتبختر كالطاووس".

وطالب سلامة موسى بالتأمين على العمال، وقد دعاه طلعت حرب إلى مكتبه وعاتبه على مطالبته للعمال بتأمين اجتماعى، وقال له :

---

[*] هى أول مجلة أسبوعية تصدر فى مصر، وهى أيضا أول مجلة علمية مصرية.

إن العمال المصريين لكى يصبحوا عمالا مهرة يحتاجون لتدريب وهو أمر يكلف الصناعة غير قليل".

وحتى لا نظلم طلعت حرب فقد ساهم مع سلامة موسى فى إنشاء أول شركة مصرية لبيع المصنوعات. ويبدو لى أن طلعت حرب كان يرى أن عملية التصنيع وتدريب العمال، مسألة مكلفة، وبالتالى فإن الدعوة لتأمين العمال تعتبر سابقة لأوانها قبل أن تثمر الصناعة وتغطى تكاليفها، ولكن سلامة موسى كان دائما سابقا لعصره.

إنقاذاً لها

وقد اعتبر سلامة موسى غير المصريين بالدم دخلاء على صحافتنا، وأنشأ "المجلة الجديدة" المصرية ردا على "دار الهلال" التى أنشأها الشوام، وقد ردوا عليه بمحاولة قتله معنويا بعد أن برزت زعامته الاجتماعية من خلال جمعية المصرى للمصرى، التى انضم إليها عشرة آلاف، وتألفت منها فروع فى القطر المصرى.. وكما يتذكر شيخ الصحفيين حافظ محمود : فقد وقف السياسيون ضد تيار الزعامة الاجتماعية لسلامة موسى بالدعوة للصناعة المصرية. ووقفت "دار الهلال" تحاربه وتنشر أوراقا بخطه عندما كان رئيسا لتحريرها (لمدة ست سنوات) ضد بعض الساسة، فتم ترشيح رئيس آخر للجمعية إنقاذاً لها، وتغير اسمها إلى "جمعية الاستقلال الاقتصادى".

فصله

وكان سلامة موسى أول من دعا إلى الاشتراكية المعتدلة غير المتطرفة (١٩٣٣) ، الاشتراكية الديمقراطية على النظام الإنجليزى الذى يقوم على البرلمان والنقابات والجمعيات التعاونية، لا النظام الاشتراكى الشيوعى، فقد كان يرى "أن الثورة الشيوعية فى بلاد مثل مصر مقضى عليها بالفشل ولو نجحت لكان نجاحها شرا من الفشل". فقد كان ضد نشر المذهب الشيوعى فى مصر ، ولذلك تم فصله من الحزب الاشتراكى الذى شارك فى تأسيسه، فقد كان يقول : إن ولاءنا لمصر ينبغى أن يكون أكبر من ولائنا للاشتراكية . وقد تنبأ سنة ١٩٣٦ بأن المجتمع المصرى سيكون ١٩٦٦ مجتمعا اشتراكيا تؤمم الدولة فيه وسائل الإنتاج، وقد حدث هذا بالفعل بعد قيام ثورة يوليو.

صاحب فكرة تأميم القناة

كما كان أول من طالب بتأميم القناة فى مقالين هامين أولهما فى مجلة "مسامرات الجيب" فى ١٩ نوفمبر ١٩٥٠، وثانيهما فى نفس المجلة فى ١٥ أغسطس ١٩٥١.

فقال "أجل، يجب أن نؤمم قناة السويس، وبما للدولة من سيادة فى أرضها، تستطيع أن تسير بهذا التأميم فى يسر وسهولة ، كما أممت بريطانيا مناجم الفحم والسكك الحديدية ومصانع الفولاز".

و"ليس فى العالم قوة تستطيع أن تمنعنا عن تأميم قناة السويس، لأنها شركة مصرية، ولا تزيد شرعيتها عن شرعية شركة ترام القاهرة"... وقد تحققت دعوته بتأميم الرئيس عبد الناصر لقناة السويس ١٩٥٦. وقد اعتبره سلامة موسى ، "ابنا بارا من أبناء مصر الأصلاء".

لقد حققت الثورة التى أيدها واعتبرها انتصارا شخصيا له، كثيرا من أحلامه، فقد سجن من أجل دعوته إلى الجمهورية (١٩٤٦) وحكم عليه بالسجن.

والدعوة للصلح

وكان سلامة موسى صاحب أول دعوة للصلح مع إسرائيل فى وقت مبكر جدا من الصراع العربى الإسرائيلى، وذلك فى مقاله الثانى الذى دعا فيه للمرة الثانية إلى تأميم القناة، عندما قال ١٩٥١ ".. ولو أننا عقدنا الصلح مع إسرائيل اليوم، لتوافر لنا نحو خمسين مليون جنيه ننفقها الآن على الأسلحة والذخائر كل عام..

ولكن يبدو لى أنى أرتفع بهذا الكلام على المستوى السياسى العام فى بلادنا، أو على الأقل على ضرورات الظروف التى لا تجد من يجابهها فى شجاعة، بدلا من أن يداورها فى لين".

نبوءة فى فلسطين

وكان سلامة موسى من أوائل من نبهوا إلى الخطر الصهيونى فى فلسطين، فعلى سبيل المثال لا الحصر نقرأ فى (المجلة الجديدة) عدد يونيو ١٩٣٤ مقالا بدون توقيع، تحت عنوان "الصهيونية فى فلسطين .. لمن المستقبل.. للعرب أم لليهود" يعتبر نبوءة لما حدث بعد ذلك من "هزيمة محققة" هكذا بالنص، حين وصل كاتب المقال - ولعله سلامة

موسى نفسه - إلى نتيجة مؤكدة "فليس هناك شك إذن في أن المستقبل أسود" ولكنه يرى أن هذه ليست دعوة لليأس بقدر ما هي دعوة للحذر والاستعداد، أو كما ذكر المقال بالنص "ليس معنى هذا الكلام أن ليس له علاج ، فإن العرب يجب أن يتلافوا الهزيمة المحققة بأن يتخذوا جميع الأسلحة التي يحاربهم بها اليهود من تقدم زراعي واجتماعي واقتصادي".

أي أن "المجلة الجديدة" التي أصدرها سلامة موسى كانت ترى أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس صراعا عسكريا ولكنه صراع حضاري، وهي رؤية متقدمة جدا قبل زمانها بوقت طويل، ولم يكن هذا هو المقال الوحيد الذي دق ناقوس الخطر، والأمر يحتاج إلى باحث يرصد ويحلل الدور الرائد لسلامه موسى ومجلته في التنبيه المبكر للخطر الصهيوني في فلسطين والمنطقة العربية، في الوقت الذي كان فيه كثير من الأدباء غافلين عن هذا الخطر أو يغضون الطرف عنه.

عنوان جارح

بل إن سلامة موسى قد تنبأ بالعولمة قبل حدوثها حين قال(*) "في العالم اليوم ثقافة عالمية بشرية جديدة تختمر، وعن قريب ستتبلور ، ثم سوف تتجوهر مبادئ أو ديانة عامة نؤمن بها جميعا ونقول أن هذا الكوكب هو وطننا، هو قريتنا التي يجب أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها.. وطن عالمي جديد كبير، يلغي هذا العالم المجزء أو هذه الأوطان القديمة".

وهذه النظرة المستقبلية ترتبط بدعوته أو نبوءته بأن "الحضارة القادمة ستكون حضارة العلم (الهلال نوفمبر ١٩٢٧) وتنبأ بالتالي بأن الثقافة العلمية قد شرعت تأخذ مكان الثقافة الأدبية".

وقد أسس المجمع المصري للثقافة العلمية، (١٩٣٠) وكان هو الذي أشاع كلمة "ثقافة" في قاموسنا اللغوي. وكان يرى أن للماضي مؤسسات كثيرة لدينا ولكن المستقبل ليس له أية مؤسسات، وكانت مجلة "المستقبل" التي أسسها أول مجلة علمية مصرية، وهو أول من طالب بحق المرأة في الانتخاب والترشيح للبرلمان. وكان من أوائل من دعوا

(*) سلامة موسى نموذجا للتطوير - لماهر شريف نقلا عن حوليات سلامة موسى - الكتاب الرابع ١٩٩٧.

إلى إصلاح القرية المصرية، وإن كان العقاد قد كمن له من باب تحدث فيه عن افتقار القرية إلى "المرحاض" الصحى، فرد عليه بعنوان جارح هو "سلامة موسى المراحيضى"، وإن كان قد اعترف له فى رثائه بمكانه فى عالم الأدب والثقافة ودعا له الله أن يجزيه "فى دار البقاء على ما أفاد وأجاد وأحسن الجزاء" وقد كان سلامة موسى أول من دعا للاحتفال بالفية الأزهر.

أنا أفضل من ابن خلدون

وهكذا كان سلامة موسى أديبا سياسيا اجتماعيا، أو كما كان يقول "إن الأديب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسيا".

ولا يرى الأدب إلا أنه كفاح وأن رسالته تتضمن الثورة من أجل التقدم.

لقد دعا فى "المجلة الجديدة" ١٩٢٩ إلى إطلاق حريات الأمة، فألغاها له إسماعيل صدقى، وتنقل من مجلة إلى أخرى، وكلما أغلقت مجلة استأجر أخرى من أصحابها لمكافحة الاستبداد والرجعية والمستعمر، حتى أصدر إسماعيل صدقى قانونا جديدا للصحافة توقف بسببها نشاط تلك المجلات.

وظل سلامة موسى يكتب فى مجلات مشهورة، ومجلات مغمورة ، لقد كان يريد أن تصل أفكاره من خلال أى منبر باعتبار أن الأفكار الحية لا تموت وسوف تثمر وتنتشر بين الناس فى أى مكان يبذرها فيه، وكان سلامة موسى رغم تواضعه المعروف عنه والذى وصفه به معاصروه، يضع اسمه على عناوين كتبه مثل كتاب "تربية سلامة موسى" باعتبار أنه يستحق الذكر وشيوع اسمه، وكان من أول الذين ينشرون صور أصحاب المقالات؛ واشتهر بأنه الأديب العلمى.

وكان يشعر بالفخر بنفسه والثقة بها رغم تواضعه، إلى الدرجة التى رأى فيها نفسه أفضل من "ابن خلدون" مؤسس علم الاجتماع، ولم لا؟[*] "والخطأ البارز لابن خلدون هو تنقصه حضارة العرب.. "ثم إنه سرق كل ما كتبه إخوان الصفا، وعزاه إلى نفسه"!.. وقارن سلامة موسى بينه وبين بن خلدون ليصل فى النهاية إلى أنه الأفضل "فإنى

(*) السابق.

أعرف عن نفسى أنى أسمو عليه فى دقة العبارة والقصد إلى المعنى".

وذلك ما استفز الدكاترة زكى مبارك ليرد عليه(*) "الله أكبر.. من كان يظن أن الزمن سيبيتلينا بهذه العجائب فيرى سلامة موسى يقدم نفسه على ابن خلدون. أين رأسك من رأس ابن خلدون ؟ إن ابن خلدون رجل مبتكر فى أفكاره ومعانيه وألفاظه أيضا، وسيظل على الزمن، أما أنت فقل فى نفسك ما تشاء، فستظل حيث أنت مبتكر تقاليع".

مطرقة

وقد اتهم سلامة موسى بالتناقض فى أفكاره ، وقد اعترف هو بنفسه بأن لذلك سببا لا يرجع إليه بل يرجع إلى المجتمع نفسه(**) "إن مجتمعنا ليس نهائيا، إذ هو سيتطور، وما دام هذا شأنه، يجب أن نتناوله بالتغيير كلما وجدنا الحاجة إلى هذا التغيير " وعلينا "التسليم بأن معارفنا عن الكون والأشياء مؤقتة، أى لوقتنا أو لعمرنا هذا فقط، وهى ليست نهائية، ولا نستطيع لذلك أن نقول إنها صادقة، لأن هذه الأشياء فى تطور.. نحن جميعا فى صيرورة، نصير ونتغير ، ولذلك فإن هذا الفهم أيضا سيتغير ولا يمكن أن يكون نهائيا".. ويقترب سلامة موسى من الاعتراف لأحد تلاميذه - وديع فلسطين - بسر تناقضاته وعدم ثباته على رأى أو فكرة وانتقاله من دعوة إلى أخرى - على سبيل المثال موقفه من اللغة العربية، ومطالبته بالاحتفال بألفية الأزهر - يقول(***) "إن حب العلم هو فى المقام الأول حب للصدق، فإذا تبينت أن رأيا قلت به أصبح زائفا أو معيبا عدلت عنه حتى ولو رمانى الناس بالتقلب".

ويلخص الناقد الفنى كمال النجمى شخصية سلامة موسى وتناقضاته بكلمات بسيطة بليغة فيقول "التناقض فى كتابات سلامة موسى بحر لا ساحل له، ولكن البحر دائما لا يخلو من النفائس، وهكذا كان الرجل".

ولكن يكفى الرجل فضلا أنه كان كما قال كامل الشناوى(****) "مطرقة ظلت تقرع الرءوس خمسين عاما".

(*) د. نعمة رحيم العزاوى - الجمهورية - العراقية ١٩٨٦/٢/١٢.
(**) حوليات .. السابق.
(***) السابق.
(****) السابق.

اجعل مطامحك فى السماء

وقد كان سلامة موسى - بحق - كما قال نجيب محفوظ أستاذا عظيما لتلاميذه.

يحدثنا تلميذه وديع فلسطين - عضو المجمع اللغوى بدمشق والأردن - عن تواضع سلامة موسى وأستاذيته. فقد كان يكتب أحاديث مترجمة للإذاعة وكان يراجعها سلامة موسى الذى تعرف هو بنفسه عليه، فقد "كان قد حرر نفسه من عقدة التعاظم .. "ووجد فى الشباب حقله الواسع، يزرعه بآرائه المخصبة ، ويحقنه بآرائه ، ويضع فيه الخمائر التى لا تلبث أن تخمر العجين العقلى كله".

بل كان سلامة موسى يهدى كتبه إلى تلميذه ويثنى على كتاباته، ويقوم بزيارته رغم أن فارق السن بينهما أكثر من ٣٥ سنة . ولم يفقد سلامة موسى شجاعته الخلقية رغم تقدم سنه، فعندما بُطش بتلميذه فى عام ١٩٥٢ وهجره الأصدقاء ونسيه الزائرون، أرسل له ثلاث رسائل للاطمئنان عليه ويرجوه الاتصال به إن احتاج إلى شيء، فبدأ يستعيد الأمل فى الحياة، ويخرج للقائه فى ندوته الأسبوعية "بجمعية الشبان المسيحية" والتى تستمر إلى قرب منتصف الليل.

وفاجأ سلامة تلميذه أكثر من مرة بالتعليق على كتاباته "استطرادا مع سليقته فى تشجيع الشباب".

ومن نصائحه إلى تلميذه دافعا إياه إلى العلا واجتناب الصغائر حين يقول له : اجعل مطامحك فى السماء، ولكن اثبت بقدميك على الأرض، واستشرف الدنيا من علٍ، فتتصاغر أمامك ترهاتها. كن كبيرا بعقلك وقلبك، وارض ضميرك، فكأنك ملكت الدنيا جميعا"

نصيحة ليحي حقى

وكان سلامة موسى أيضا هو الذى تبنى عددا من المبدعين وقدمهم للحياة الأدبية ليس أشهرهم نجيب محفوظ فقط بل يحيى حقى أيضا .

يحدثنا صاحب قنديل أم هاشم عن نشره "للبوسطجى" لأول مرة قائلا(*) "يرجع الفضل للأستاذ سلامة موسى.. كان مسئولا عن إصدار

(*) حديث عادل النادى السابق.

"المجلة الجديدة".. وكان كل شهرين ينقطع عن الإصدار ، ولكى يعوض المشترك عن الشهرين كان يرسل كراسة مطبوعة غلافها أحمر.. فطبع لنجيب محفوظ "عبث الأقدار".. وبعد ذلك طبع لى "البوسطجى" .. فكانت الطبعة الأولى "للبوسطجى" عبارة عن كراسة داخل عدد من "المجلة الجديدة" أرسلت للمشتركين.. ولحسن الحظ أن سلامة موسى علق على هذا العمل فى العدد الذى أرفق فيه النسخة، ونصحنى قائلا : عليك أن تقرأ".

مفاجأة لنجيب محفوظ

أما نجيب محفوظ فقد كان سلامة موسى بالنسبة له هو المتنفس الأول لكتاباته وإبداعاته، ينقل عنه الناقد الأدبى د. غالى شكرى(*) "حكى لى بمناسبة نشر الجزء الأول من "بين القصرين" فى مجلة "الرسالة الجديدة" قصة نجيب محفوظ معه ومع "المجلة الجديدة" التى كان يصدرها بين عامى ١٩٢٩ و١٩٤٤. عرفت منه أن نجيب محفوظ كان يعد نفسه للكتابة الفلسفية ، وأنه فى عام ١٩٣٠ حين التحق بكلية الآداب قسم الفلسفة جامعة (فؤاد الأول) القاهرة ، بعث إليه بمقاله الأول ثم تتالت مقالاته. وأنه ذات يوم - وهذا هو المهم - فوجئ بنجيب محفوظ يدرب نفسه على الترجمة عن الإنجليزية بترجمة كتاب عن "مصر القديمة" لمؤلف يدعى "جيمس بيكى". وقد أخذ منه هذه الترجمة ليقرأها، ثم دفع بها إلى المطبعة وأصدرها "كتاب صيف" يهدى إلى قراء المجلة أثناء عطلتها السنوية. وذات يوم آخر - وهذا هو الأهم - فوجئ بنجيب محفوظ يعترف له على استحياء بأنه يجرب كتابة القصة. حينئذ طلب منه سلامة موسى إحدى هذه التجارب. وكانت رواية "حكمة خوفو" التى غير سلامة موسى عنوانها إلى "عبث الأقدار" ، ودفع بها أيضا إلى المطبعة . وفوجئ نجيب محفوظ بمن يحمل بين يديه بعض النسخ على سبيل الهدية . وكانت فرحة المؤلف الناشئ بهذا الأجر لا تصدق.

هذه هى قصة سلامة موسى مع نجيب محفوظ. ولكنها رغم أهميتها ليست أكثر من الإطار الخارجى للقصة الأكثر عمقا.. وهى القصة التى تناولها نجيب محفوظ نفسه بالتعبير الفنى فى "الثلاثية" حين

(*) القاهرة ١٩٨٨/١٢/١٥.

تعرض لشخصية كمال عبد الجواد ومجلة "الإنسان الجديد" وصاحبها عدلى كريم. وقد كتب عام ١٩٥٨ فى "يوميات الأخبار" مقالا يؤكد فيه أنه رأى نفسه فى هذه الشخصية . أما نجيب محفوظ ففى صياغته للعلاقة بين كمال عبد الجواد وعدلى كريم كتب ما يقترب كثيرا من قصته الأعمق مع سلامة موسى".

وثيقة مجهولة

وليس أجمل من أن يكتب نجيب محفوظ بنفسه عن بداية ميلاده الأدبى من خلال هذه الوثيقة المجهولة النادرة التى خطها بقلمه تحت عنوان "يومان من أسعد أيام حياتى" بمجلة "صباح الخير" عدد ٦ أغسطس ١٩٦٤. ولن أجتزئ من المقال الوثيقة، اليوم السعيد الذى يرتبط بسلامة موسى مقترنا بنشر أول رواية له، باعتبار أن ذلك اليوم السعيد مرتبط باليوم السعيد الآخر الذى حصل فيه نجيب محفوظ على أول مكافأة عن قصة نشرت له .

ولنترك نجيب محفوظ بنفسه يسجل ذكرى هذين اليومين السعيدين بقلمه، وهو نادرا ما كان يكتب عن نفسه أو حياته وذكرياته.

أوراق قديمة!

يومان من أسعد أيام حياتى

يوم من أيام صيف عام ١٩٤٠.. كان يوما من أسعد أيام حياتى، بالطبع أتت بعده أيام أخرى سعيدة.. لكن طعم هذه السعادة أبدا لم يتكرر!!

كنت أمشى فى شوارع القاهرة بلا هدف.. وفوجئت بالصديق (المرحوم) صلاح ذهنى. يصيح علىّ بلهجة أحسست معها أن حادثا ما خطيرا قد حدث..

- أين أنت.. يبحثون عنك منذ شهور.

- من هم؟!

- مجلة الثقافة.. لك جنيه عندهم.. ثمن قصتك الأخيرة.. وهم يريدون التخلص من هذا الجنيه الذى يربك لهم تسوية ميزانيتهم!!

دهشت..

كنت قد كتبت ونشرت حتى ذلك اليوم ما يقرب من ثمانين قصة. ولم أقبض مليما واحدا! منذ عام ١٩٣٤ وأنا أنشر قصصا قصيرة

فى مجلتى الرسالة والرواية . دون أن يدخل جيبى قرش واحد..

طرت طيرانا إلى مجلة "الثقافة"

ما الذى حدث؟..

لم أنتظر لأعرف الجواب.. كنت أحس أنى أحمل ثروة ضخمة.. ووجدت الجنيه فى انتظارى.. فأخذته وانطلقت إلى أصدقانى.. وليلتها شهدت العباسية سهرة أصدقاء مرحة استمرت حتى الصباح!!.

فى تلك الليلة، ظننت أن أبواب الثروة فتحت لى . فأرسلت لهم قصة أخرى، كانت حوادثها كلها تدور أثناء غارة ، فقد كنا أيام الحرب العالمية الثانية، ولأول مرة تكوى القاهرة بهذا النوع من الحروب، وكان طابع القصة، هو الرعب الذى تحدثه الغارات فى النفوس!!

نشرت القصة بالفعل، فذهبت لأقبض ثمنها، وأسلمهم قصة جديدة، غير أنى ما إن دخل علىّ سكرتير التحرير ورآنى، حتى هاجمنى شرر ينطلق من عينيه، وهجم علىّ كما لو أنه يريد أن يخنقنى على خديعتى له !!

أى خديعة؟!

فى تلك الأيام، كانت الرقابة العسكرية تمنع أى كتابة تثير الخواطر ، وما إن نشرت قصتى عن الغارة، حتى فوجئت المجلة بإنذار من السلطات.. وخصم المسئولون فى المجلة جزءا من مرتب سكرتير التحرير، لعدم يقظته!!

رأيت هياج سكرتير التحرير، فلم انتظر حتى آخذ ثمن القصة، بل وليت هاربا ولم أعد إليهم، وبقى الجنيه الوحيد الذى أخذته منهم، ذكرى يتيمة، لكنها جميلة، عمرت قلبى بالأمل فى المستقبل، كانت النقود أيامها هى آخر شىء يفكر فيه الكاتب الناشىء مثنى!!.. نعم.. لقد ظللت أعتبر نفسى ناشئا حتى بعد كتابة ونشر ما يقرب من ثمانين قصة!! كان النشر فى تلك الأيام هو المجد الأعظم.. والمتعة التى لا يعلوها متعة!! كان جيلنا لا ينظر إلى الأدب على أنه مصدر رزق.. إننى أتذكر الآن تلك الأيام وأضحك وأفكر !!

كم تغير الزمن؟!

اثنان أو ثلاثة فقط، هم الذين كانوا يقبضون على ما يكتبون.. (طه حسين والعقاد والمازنى".. أما جيلنا، فكان المجد فى النشر وحده!!

واحد فقط من جيلنا ثار على هذا الوضع، (عادل كامل)، وعزم على أن يحترف الأدب ويعيش منه، فماذا حدث له؟!.. كان أول أديب من جيلنا توقف عن الكتابة.. كان يكتب الرواية، فلا يناله منها قروش. كان يكتب المسرحية، فلا تحيا شخصياتها إلا فى ظلام درج مكتبه.. أعلن هجره الأدب، واحترف المحاماة!!

تلك كانت محنة الأديب أو الفنان فى تلك الأيام، هذا مع أننا لم نكن نحس فيها بطعم المحنة، لقد كان شقاء فى سبيل ما نحب!!.. كنا ننفق على الفن والأدب من مرتباتنا التى نقبضها من الوظيفة! همنا الوحيد أن نكتب.. ونكتب .. ونكتب!

أذكر الآن أول رواية نشرت لى ، فتتعالى دقات قلبى!!

لو أنى أملك قوة البعث، لبعثت حيا هذا الرجل العظيم الذى نشرها لى وأثر على جيل بأكمله : سلامة موسى!! كم هى جميلة، تلك اللحظات التى اتذكر فيها بداية علاقتى به !! حين صدرت "المجلة الجديدة" كنت أول قارئ أشترك فيها، فأرسل لى سلامة موسى خطابا يشكرنى ويقول لى فيه "أعتبرك من أصدقاء المجلة".. وأصبحت فعلا من أصدقائها ، لا بالقراءة فقط .. ولكن بالكتابة أيضا!! كنت أرسل إليه مقالات فى الاجتماع وفى الفلسفة، وغالبا ما كان ينشرها لى!!.. وذات يوم، ذهبت إليه بمقالة، وفى نفس الوقت بمخطوط رواية كتبتها! كان رحمه الله رجلا وديعا جدا، وحيويا. تطمئن له من اللحظة الأولى.. ورغم أنك من تلاميذه إلا أنه كان يشعرك أنك معه على قدم المساواة!! أعطيته المقالة. ثم تشجعت، وقلت له إنى كتبت رواية. وأريد رأيه فيها! فأخذها منى برحابة صدر ووعدنى بقراءتها وإعطائى رأيا فيها!!

وكان عند وعده..!

بعد أيام كان يقول لى : قرأتها .. لكنها لا تصلح.. لكذا وكذا وكذا.

كانت علاقتى بهذا الرجل مصدر سعادة وقوة لى .. لم يجعلنى أحس فى لحظة أنى ثقل عليه.. قرأ لى أربع روايات.. أو بمعنى أصح. أربع تجارب فى الرواية، وفى كل مرة كان يقول لى : لا تصلح للنشر .. ولكن استمر.. لابد أن تستمر.. فى انتظار رواية أخرى منك!! إلى أن جاء يوم آخر من أسعد أيام حياتى: ذهبت له برواية "عبث الأقدار" وحين

قرأها قال لى فى هدوء.. هذه الرواية تستحق النشر.. سوف أطبعها وأقدمها هدية من "المجلة الجديدة" فى أجازتها السنوية، وكانت لهذه المجلة أجازة شهران: يوليو وأغسطس، تعطى فيهما للمشتركين كتابا بدلا من المجلة!!

لحظتها لم أصدق ما أسمع.. غير أنى كنت أثق فى كلام الرجل.. مع هذا ظللت لا أصدق نفسى حتى فوجئت به فى أحد الأيام يقول لى بهدونه المعتاد "اذهب إلى المطبعة.. وصحح روايتك..".

جريت إلى المطبعة وفرحة الدنيا لا تسعنى..

وكانت أول رواية تنشر لى:

واجهت "المجلة الجديدة" بعد ذلك ظروف مالية صعبة. فقفلت أبوابها.. فلم يعد أمامى إلا دور النشر الأخرى.. كنت أكتب الرواية وأدور بها على دور النشر فلا أقابل إلا بالرفض أو بالاعتذار .. فأضعها فى درج مكتبى وأبدأ فى رواية أخرى. وما أن انتهى منها. حتى أحملها بدورها، وألف بها على دور النشر من جديد.. وبالطبع نفس المصير، تقبع مع أختها فى درج مكتبى. حتى تجمع عندى ثلاث روايات بلا نشر: رادوبيس. كفاح طيبة. القاهرة الجديدة.

ثم.. ظهرت "دار النشر الجامعية" عام ١٩٤٣. أنشأها الصديق عبد الحميد السحار.. فبدأ المخزون يخرج إلى الهواء.. وكانت بداية النور..

أذكر هذا ، وأنظر من حولى وأتأمل الظروف التى يحياها الجيل الجديد من الكتاب والفنانين.

مجلة للقصة.. مجلة للشعر.. الكتاب الذهبى.. الكتاب الماسى، الدار القومية للطباعة والنشر.. مسابقة نادى القصة.. الكتاب الأول.. جوائز الدولة التشجيعية.

أنظر إلى كل هذا. فأغبطهم من قلبى. لكن أشفق عليهم فى الوقت نفسه!!

نجيب محفوظ

